حسان عبدالقدوس

العذراءوالشعرالابيض



🎉 أصحاب السوابق 🎇

دخل الأستاذ أحمد عبد اللطيف مكتب الوزير وانتفض السكرتير يستقبله في احترام مبالغ فيه ، وقال الأستاذ أحمد في هدوء :

- هل أستطيع أن أرى سيادة الوزير ؟

وقال السكرتير في رعشة :

– طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . ثانية واحدة . .

وما كاد السكرتير يدير ظهره حتى لوى شفتيه فى قرف وأطلق زفرة من صدره كأنه يستغيث بالله ، وفتح الباب ودخل إلى الوزير وقال كأنه يبلغه بأنباء نكبة :

– الأستاذ أحمد عبد اللطيف هنا . .

ورفع الوزير حاجبيه فى دهشة وقال :

- ماذا يريد ؟

- يريد أن يدخل . .

- ألم يسبق أن طلب تحديد موعد ؟

. . ٧ –

وأطلق الوزير أنفاس الضيق ، وعاد السكرتير يقول : – هل أقول إن سيادتك في اجتماع وأحدد له موعداً في الساعة الثانية . . وقال الوزير في حرارة وقرب:

ولكن يا أحمد كل وزراء العالم يدخلون ويخرجون . . ومنذ وجد الإنسان
 لم يوجد وزير بق العمر كله وزيراً إلا في القصص الخرافية . .

وقال أحمد وهو لا يزال يضحك :

- هناك فرق . . فهناك وزارة بأكملها تترك الحكم ، أو وزير يخرج من الوزارة نتيجة معركة . . سواء معركة سياسية أو معركة فنية خاصة باختلاف الرأى الفنى . . وفى هذه الحالة لا يتأثر الوزير بلقب سابق لأنه يعيش وضعاً مستمرًا وهو المعركة السياسية أو الفنية . . فهو مقاتل دائم وكل ما هناك أنه غير موقعه داخل هذه المعركة . . ولكن الذي يصاب وبجرح هو الذي يصبح «سابقاً » محجود شلوت . . شلوت قد يرفعه إلى أعلى كأن يخرج من الوزارة ليصبح مستشاراً أو يعد أن يمنح وساماً جليلاً ، وقد يكون شلوتاً إلى أسفل ويجد نفسه فى الشارع . . المهم أنه لم يدخل معركة يعرفها ويستطيع أن يستمر بها سواء داخل الوزارة أو خارجها ، ولكنه ألتي فجأة من الشباك وقرأ خبر وفاته فى الصحف وبدأ يستقبل المعزين دون أن يستعد لاستقبالهم ، أو يقيم صيواناً لاستقبالهم . . إن آثار الشلاليت على بنطلونات كثير من الوزراء السابقين لا يمكن أن تمحى أبداً حتى لو أخذ بنطلونه وذهب به إلى أكبر الإخصائين فى إزالة البقع والفتوق . .

وقال الوزير فهمي عباس في حدة :

- اسمع یا أستاذ أحمد . . إن هذا الكلام يمسنى ولابد أنك تقدر ذلك . . وأحب أن أقول لك أنه لا يهمنى أن أخرج من الوزارة اليوم أو غداً . . لا يهمنى في أى لحظة أن أكون سابقاً . . كل ما يهمنى هو إحساسى بأنى أجلس على هذا الكتب لأؤدى خدمة لبلدى . . إنى أخدم يلدى سواء وأنا جالس إلى مكتب وزير

- أى شىء يا أحمد . . أى شىء . . اطلب . . وقال أحمد كأنه يسخر من فرحة الوزير : - إنك تعلم أنى لم أطلب أبدأ شيئاً منكم . .

وقاطعه الوزير :

ولكنها ليست غلطة أحد فأنت الذى كنت ترفض كل ما يعرض عليك . .
 كان يمكن أن تكون الآن وزيراً . .

وضحك أحمد قائلاً :

ربما لأبى أنبه منك . . فإن كل وزير يصبح بعد قليل وزيراً سابقاً . . وأنا أكره أن أحمل لقب و سابق ، إنه أقرب إلى لقب و المرحوم ! . . هل تذكر أخانا مختار رفعت . . إنه وزير سابق ورئيس وزراء سابق ، وهو أيضاً رئيس على إدارة سابق ، وسكرتير هيئة سابق ، إنه الآن يعتبر من أصحاب السوابق . وهو يعيش فعلاً كأصحاب السوابق ، حاثر في تحقيق مكانه وصفته في المجتمع . إني أعرف أن الذي يصاب بلقب ؛ سابق ، يصاب بجرح خطر يؤثر في كل تفكيره وفي كل أحاسيسه . . إنه بعدها يصبح إما من أكبر المغالين في النفاق وفي المتزلف وفي الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين في المعارضة وفي النقد . . ولا علاج وفي الاستسلام ، وإما أن يصبح من أكبر المتطرفين في المعارضة وفي النقد . ولا علاج وأما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذي يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود وأما لإسكاتهم عن الكلام والنقد ، والذي يعود لا يعود أبداً كما كان ، إنه يعود وهو مجروح و يزاول عمله وهو يحسب في كل يوم أن يتلقي السهم المسموم من وهو مجروح و يزاول عمله وهو يحسب في كل يوم أن يتلقي السهم المسموم من أكثر مما يعمل لما بعد خروجه من الوزارة أكثر مما يعمل لمستولياته كوزير . ولست في حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ، أكثر مما يعمل لمستولياته كوزير . ولست في حاجة لأن أضرب لك الأمثلة ،

أو إلى مكتب موظف درجة سادسة . .

وقال الأستاذ أحمد دون أن يبدو عليه أى تأثر بحدة سيادة الوزير :

وقاطعه سيادة الوزير :

يا أستاذ أحمد . . إن الوزارة ليست مركزاً فنيًا . . كل الاختصاصات الفنية يتولاها وكلاء الوزارة . . أما الوزير فهو مركز سياسى . .

وقال أحمد في هدوه :

- هذا هو الخطأ الأكبر الذي نقع فيه وتقع فيه كل الدول العربية وأيضاً معظم دول العالم الثالث وهو أن يعتبر مركز الوزير داخل نظم الحكم التي يعيشونها مركزاً سياسيًّا إلى ابدأ . إن مركز الوزير لا يكون مركزاً سياسيًّا إلا داخل نظم تعدد الأحزاب لأن الوزارة تنفذ مبادئ وخطط وبرامج الحزب في مواجهة حزب آخر . ونحن ما زلنا متأثرين بالماضي عندما كانت الوزارات سياسية حزبية . كان الوزير سياسياً لأنه وفدى أو لأنه دستورى أو لأنه مستقل عواكن الآن أي صفة سياسية يمكن أن يحتاج إليها الوزير . . لقد أخطأنا يومًا ووضعنا للوزراء صفة التمثيل السياسي الخارجي . . كنا في مرحلة التفاهم مع

أمريكا نختار وزيراً له موقف سياسى رأسمالى ، وفى مرحلة التفاهم مع الاتحاد السوفييتى نختار وزيراً له موقف سياسى شيوعى . . وكل هذا لم يؤد إلى نتيجة سياسية ، لأن الواقع هو أن الوزارة كلها ليس لها اختصاص سياسى ولا تستطيع ، ويس من حقها أن تقبل أو ترفض أى قرار سياسى . . إن السياسة مركزة فى تنظيم آخر خارج الوزارة . . وكان الحل الأمثل هو الاعتراف بكيان هذا التنظيم وأن تنفرغ الوزارة ككيان فنى تنفيذى . . ولكن هذه اللخيطة بين السياسة والتخصص العلمي أدت إلى ضياع صفة الوزير لا هو سياسى ولا هو فنى . . أنت مثلاً . . .

وقاطعه الوزير وقد اشتدت حدته قائلاً :

يا أحمد . . أنت أستاذنا جميعاً ونحن نقدر لك استمرارك في التفرغ
 للمحاماة و . . .

ورد أحمد مقاطعاً :

- حتى مكتبى كمحام تعرض لكل لهذا الخلط وكل هذه الأوضاع الغريبة . . فأنت تعلم أن عدد الموكلين أو الزبائن الذين يعتمدون على مكتبى محدود ، فرغم أنى متفرغ للمحاماة كعمل فعلاً إلا أنى أكثر تفرغاً للفكر السياسي منذ تخرجت وقبل أن أتفرغ . . وكانت صورتى وسمعتى السياسية والكتب السياسية التى كتبتها ونشرتها ، ثم ما هو معروف عنى من عمليات ثورية كنت أقوم بها فى شبابى ، كل ذلك أثر فى إقبال الناس على مكتبى كمحام . . وكنت أعطى الناس العذر ، فمع افتراض أنهم يقدروننى كسياسي عاشوا معه جيلاً كاملاً ، إلا أنهم لا يحتاجون فى قضاياهم إلى سياسي بل يحتاجون إلى محام . . ثم قد يكون القاضى مختلفاً معى فى آرائى السياسية فيتأثر بهذا الخلاف فى حكمه ، فما ذنب صاحب القضية . .

ما تقصده . . وهذا ما جئت لأطلب وساطتك فيه . .

ودق جرس التليفون بجانب الوزير ، وكان السكرتير يذكره بأنه على موعد وقال الوزير في عجل :

- Y . . Y مواعيد . .

ثم التفت إلى أحمد قائلاً :

- في خدمتك يا أستاذ أحمد . .

وقال أحمد :

– أخشى أن تفاجأ إلى حد أن تخيب أملى . . .

وقال الوزير مبتسماً :

– لقد عودتنا على المفاجآت . .

وقال أحمد :

لقد اخترتك ولجأت إليك لأنى مقتنع بأنك خير من يستطيع أن يحلل
 كل مؤقف وأن يقدر وأن يفهم الصعب ...

وقال الوزير كأنه يتعجله :

- شكراً . . كلنا من تربيتك . .

وقال أحمد في هدوه وبين شفتيه ابتسامة حزينة :

- جئت لأوسطك حتى تسعى لإقناعهم بوضعى فى السجن . .

وقال الوزير كأنه ينتفض :

ماذا تقول . . السجن ؟!

وقال أحمد في هدوه :

نعم . . السجن . . إن الشيء الوحيد الذي أطلبه من الثورة بعد هذا

إن من صالحه دائماً أن يختار محاميًا متفرغًا تفرغًا كاملاً للمحاماة . . هذا ماكنت أعتقد . . إلى أن قابلت مرة الرئيس في لقاء خاص ، وأنت تعرف أني تعودت أَنْ أَلْقَاهُ كَثِيرًا كَصَدِيقَ ، ولكن في هذه المرة نشرت المقابلة في الصحف ضمن المقابلات الرسمية ، وكانت الصدمة التي تعرضت لها هي أني فوجئت في اليوم التالى مباشرة بعدد كبير من الزبائن بدأوا يترددون على مكتبي . . زبائن جدد . . وأنواع جديدة من القضايا . . وفرح عبد العاطي وكيل المكتب الذي عاش معى العمر كله وهو يعانى تقتير القدر عليه في الزبائن ، واستحملت أنا أسبوعاً وأسبوعين وأنا أقابل كل من يأتى إلى المكتب وأقرأ وأبحث كل قضية . . ئم توقفت . . إنها ليست قضايا ، إنها عمليات تحتاج إلى وساطات ، وكل هؤلاء الزبائن الجدد لم يلجأوا إلى كمحام ، إنما لجأوا إلى كأحد المقربين بعد أن قرأوا الخبر في الصحف. إن الذي يقابل الرئيس يستطيع بلاشك أن يقابل رئيس الوزراء ، ويستطيع أن يقابل الوزير ، ويستطيع أن يقابل رئيس هيئة أو أي وكيل وزارة . . ويستطيع أن يحقق المطالب ويكسب القضايا . . و . . وكانت النتيجة هو أنى اعتذرت عن جميع القضايا التي جاءتني بهذا الفهم الجديد لقيمتي ، بل إني أغلقت مكتبي وذهبت إلى القرية وبقيت هناك ثلاثة أشهر . .

قال الوزير فهمي عباس ساخراً :

لأن لك قرية تغنيك عن المكتب . ولكن لو لم يكن لك شيء في القرية
 أين كنت تذهب . . اعذرني يا أستاذي عن هذا السؤال . .

وقال أحمد دون تأثر :

- تقصد أكل العيش . . إنى أستطيع أن أعيش بلا عمل لأنى أملك أرضاً في القرية ، ولذلك أستسلم لكل آرائي السياسية لأنى لست محتاجاً . . هذا وسيلة إلا أن أحبس نفسي في زنزانة حتى لا يستطيع فكرى أن يتحكم في تصرفاتي ولا حتى في لساني . .

وزفر الوزير زفرة زهق وقرف وأسند رأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع

أن يسمع مزيداً من هذا الكلام ، ثم قال : - صدقني يا أحمد . . لقد جعلت من نفسك مشكلة لا يمكن حلها . . وقال أحمد وهو ينظر إلى الوزير بكل عينيه كأنه يرجوه أن يحتمله : - يكني أنك اعترفت أني أصبحت مشكلة . . وحتى تصل إلى تحديد خطوط مشكلتي يجب أن تعرف أنى لا أقبل أبداً أن أحمل لقب وسابق . . . أفضل أن أموت قبل أن يعلن أني أصبحت من أصحاب السوابق . . وأنا ليس لى صفة أعتز بها وأحرص عليها إلا صفتي كثائر . . فكر ثوري . . وإيمان ثوري . . ولا أريد أن أعيش حتى أصبح في نظر وتقدير الناس ثائراً سابقاً . . واحد من ثوار زمان . . واحد لا يستطيع أن يلاحق بثورته الأجيال الجديدة والتطورات السياسية والحضارية. وبما أنى في الوقت نفسه أريد أن أستريح من نفسي ومن ثورتي فإن أفضل مكان وأشرف مكان يمكن أن يستريح فيه الثاثر هو السجن . . إن وجودي في السجن

وقال الوزير ساخراً :

- كنا نعرف أيام زمان نوعاً من الشبان يفتعل الحركات الثورية ويفتعل الاحتكاك بالبوليس حتى يقبض عليه وينشر اسمه فى الصحف ويشتهر كأنه أحد الثوار . وهو ليس بثاثر ، إنما مجرد نصاب باسم الثورة ، وأخشى بعد هذا العمر الثوري الطويل الذي عشته أن تحسب من بين هؤلاء . . تريد السجن لتبدو بطلا . .

هو تأكيد لصفتي كثائر وفي الوقت نفسه إعفائي من أداء مهنتي كثائر . .

العمر الطويل وبعد أن أصبحت الثورة دولة ، هو إصدار قرار بوضعي في السجن . . ونظر إليه الوزير كأنه ينظر إلى مجنون ، وقال :

ماذا فعلت وجثت تعترف به حتى تدخل السجن . .

- لم أفعل شيئاً بعد ...

ولكن بأى سبب تريد أن يدخلوك السجن . .

- تحت التحقيق . .

التحقيق في ماذا وأنت لم تفعل شيئاً . .

- التحقيق في احتمال أن أفعل شيئاً . . .

أنت رجل قانون وتعرف أن الاحتمالات لا تكنى لتوجيه أى اتهام . .

- ليس القانون . . ولكني أحد المقربين إليكم . . كل الناس تعرف أني من المقربين . . والمقربون لهم امتيازات كثيرة ، والامتياز الوحيد الذي أطالب به هو ادخالي السجن . .

- ولكن لماذا ؟

لأن القرية لم تعد تكني . .

- تكني لماذا ؟

- لهربي من نفسي . . إن السجون وجدت لتحمي الناس وتحمي الدولة . .

وأنا أريدها لتحمى نفسي من نفسي . .

.. U isant 1-

- حتى تفهمني بجب أن تقدر أولاً أنى تعبت . . إنى الآن في الستين من عمرى . . الواحد والستين . . ورغم ذلك ففكرى لا يزال في شبابه لا يريد أن يشيخ معى ولا يريد أن يستسلم لواقعي . . وأصبحت أخشاه وليس هناك من

وقال أحمد في هدوء :

- لا ألومك على تصور هذا الاحتمال . . لقد تصورته أنا أيضاً . . خشيت أن تعتبروا سعيي إلى السجن نوعاً من البحث عن الشهرة والبطولة . . ولكن يجب أن تقدروا أنى لم أقم بأى عمل يمكن أن يبرر دخولى السجن . . إنى أدخل السجن بناء عل طلب شخصى . أى يمكن أن يصدر القرار في صيغة ، تقرر حبس الأستاذ أحمد عبد اللطيف حبساً مطلقاً بناء على طلبه الشخصى ، ثم لا ينشر هذا القرار في الصحف ولا يدرى أحد أين اختفيت . . أرجوك . . افهمنى . . يمكن أن تعتبرني مريضاً في حاجة إلى دخول مستشفى . . والمستشفى الذي يصلح لى هو السجن . .

أنت لست مريضاً . . والسجن ليس مستشفى . . وأنت تطالب الدولة بقرار استثنائى لا يقره قانون . . فإنك تريد أن تستغل صداقتك واحترامنا لك لتحقيق مطلب شخصى . .

هذا صحيح . . ولكنه مطلب لا يكلف الدولة شيئاً . . وأنت تعرف كم
 كلفت الدولة المطالب الشخصية الأخرى . .

وسكت الوزير برهة ثم رفع رأسه وملأ عينيه من وجه الأستاذ أحمد كأنه يريد أن يتأكد أنه هو نفسه الأستاذ أحمد الذي يعرفه ثم قال :

- أستاذ أحمد . . إن ما يحبرنى هو اعتقادك أنك يجب أن تهرب من فكرك الثورى . . لماذا . . إن الثورة لا تزال مستمرة ولا تزال قادرة على احتواء أى فكر ثورى . . ولا أعتقد أنك ضد الثورة أو معارض لها يحيث تتصور أنها لن تحمل أفكارك . .

وابتسم أحمد ابتسامة الأستاذ وقال :

 هناك فرق بين الثورية المضادة وبين اختلاف الموقف داخل الثورة الواحدة , , وأنا وأنتم أصبحنا من زمن تختلف في الموقف . . أنا أقف في الشارع وأنتم تقفون في الداخل . . والذين يقفون في الشارع هم الذين اختاروا الحرية المطلقة . . حرية بلا مسئولية تنفيذية . . إنها حرية الفكر . . والذين يقفون في الداخل يقيدون حريتهم بعشرات السلاسل والأغلال . . السلاسل والأغلال التي تفرضها المسئولية التنفيذية . . وكل من الطرفين على حق في موقفه . . الذي يقف في الشارع يمكن أن يطالب بمشروع شعبي يتكلف ألف مليون جنيه ، والذي يقف في الداخل يعارض هذا المشروع لا لأنه ضد الشعب ولكن لأن الدولة لا تملك ألف مليون جنيه . . أي أن الثائر المطلق لا يتقيد بالواقع بل يرفضه ويثور عليه ويركز كل فكره الثوري على المستقبل ، أما الذي يحمل المسئولية التنفيذية فهو مقيد بالواقع وهو مضطر إلى الإبقاء على هذا الواقع وصيانته حتى لو اضطر إلى تسليط البوليس على رجل الشارع ، وليس معنى ذلك أنه لا يفكر في المستقبل ولكن تفكيره قد يكون مجرد الإيمان بأن الواقع قادر على التطور لتغطية المستقبل ، أو قد يكون تفكيره هو مجرد الاتكال على الغيب ، ومواجهة كل المشاكل بهذا الاتكال . . . ربنا بحلها . . و . . .

وقاطعه سيادة الوزير فهمي عباس قائلاً :

المهم أنك قلت إن كلاً من الطرفين على حق فى موقفه . . أى يمكن التفاهم بينهما . . . و . . .

وقال أحمد مقاطعاً:

 لا . . التفاهم هو انجاه الضعفاء المستسلمين . . لا يمكن لأى ثورة أن تتقدم فى مواجهة المستقبل إلا تحت ضغط . . وهو إما أن يكون ضغطاً من خارجها

أو ضغطاً من داخلها . . ضغط قوة شعبية قائمة مستمرة تملك أن تجعل كل مسئول في حالة مستمرة من الدفاع عن نفسه . . وكي يدافع عن نفسه يجب أن يثبت قدرته على التقدم . . على التطور . . على مواجهة كل مطالب المستقبل . . على تحقيق المبادئ الئورية , . فإذا اختفي هذا الضغط أوضعف ، أصيب المسئولون عن الحكم بالغرور لأنهم تخلصوا من الإحساس بالدفاع عن النفس . . والغرور هو أخطر ما يتعرض له الحكم ، وهو ما يمكن أن يجعل من الدولة مجرد شركة مقاولات لا تنصرف إلا في حدود ما يطلبه صاحب الملك المغرور . . ثورات كثيرة عجزت عن تحقيق مبادئها لأنها لا تواجه قوة ضغط . . الثورة الشيوعية مثلاً . . إن مبادئ ماركس لم يطبق واحد على ماثة منها حتى اليوم . . والمجتمع السوفييتي لا يزال يعانى من الانفصال الطبقي ، ولو أن الطبقات تحولت إلى طبقات بير وقراطية . . لماذا . . لأن الثورة قضت على قوة الضغط الخارجي عليها ، ثم قضت على قوة الضغط الداخلي أيضاً . . أي قضت على الفكر الشيوعي الذي يقف في الشارع . . وفي أيام ستالين أعدم ثلاثة ملايين شيوعي كانوا يمثلون قوة ضغط على الحكومة ، ثم بدأ المجتمع الشيوعي بعد ستالين يتقدم في بطء لأن الحكومة سمحت بظهور بارقة من الضغط الداخلي . . لهذا لا يمكن استمرار الثورة على أساس التفاهم ببن الفكر المنطلق والفكر التنفيذي المسئول أي التفاهم بين المقيدين بالواقع والمتطلعين إلى المستقبل . . لا يمكن أن تستمر إلا تحت قوى

ضاغطة . . كل منها يضغط على الأخرى . .
وقال الوزير وهو يبتسم كأنه توصل إلى الحل الذي يرضى أحمد :

— إذن قإنى أتعهد لك باسم جميع الأصدقاء أن تنرك لك حرية التعبير
عن القوة الضاغطة . . إننا نثق فيك حتى لو اختلفنا معك . .

وصاح أحمد وقد احتد لأول مرة ;

- ٧٠.٧. ٧ أستطيع . . قلت لك إنى تعبت . . تعبت من نفسى ومنكم . . أربد أن أستريع . . أن أحال على المعاش . . ولا أطلب وساماً ولا حتى خطاب شكر. أربد أن أستريع في السجن . . إنى كمن يرسل كتابه الذي انتهى منه لوضعه في غلاف محترم له . . والسجن هو الغلاف الذي أربد أن أغلف به حياتي . . هل في هذا شئ يصعب على الدولة . .

وقال الوزير وقد علا صوته هو الآخر :

ومان الوريو وقد مد الله الله العلب الغريب . . إنهم المال الغريب . . إنهم سينهمونني بالجنون لمجرد أنى أنقل إليهم فكرة مجنونة كفكرتك . .

وهدأ الأستاذ أحمد وقال وهو يبتسم ابتسامة مسكينة ضعيفة :

لقد فكرت فى الجنون أيضاً .. فكرت أن أدعى أنى أصبت بمرض فى عقلى وفى أعصابى . وأطلب من الطبيب أن يضعنى فى مستشفى المجاذيب . . والحترت مستشفى بهمان بالذات لأن نزلاءه أقل خطراً . والانتهاء بالجنون هو نهاية مشرفة أيضاً لصاحب أى فكر ثورى . لأن معناها أنه أجهد عقله فى سبيل وطنه إلى أن جن ، وقد يعتبر الناس أن الدولة هى التى وضعتنى مع المجاذيب كما يحدث لكثير من المتهمين السياسين نخلصاً من محاكمتى . .

وقال الوزير في تأثر :

- أستاذى إنى أشفق عليك من كل ما تفكر فيه . . من كان يصدق أن هذه يمكن أن تكون أفكار الأستاذ أحمد عبد اللطيف . .

وقال أحمد :

- هل تعرف ما فكرت فيه أيضاً . . فكرت في الانتحار . . إن الكاتب

الأمريكي هيمنجواي انتحر لأنه اكتشف أنه أصبح أعجز من أن يقدم شيئاً جديداً لقرائه . . وأنا . . ربما كانت هذه هي سر أزمتي . . لم أعد أستطيع أن أستمر باتجاهي الثوري وأصبح من أقدم فكراً جديداً لوطني . . لم أعد أستطيع أن أستمر باتجاهي الثوري وأصبح من حتى أن أنتحر . . على الأقل فإني أفضل لقب « مرحوم » على لقب « سابق » . . الثائر السابق . . . الثائر السابق . . .

وقال الوزير وهو يتطلع إلى أحمد بنظرة إشفاق :

- تستطيع أن تفكر في شيء آخر . . تستطيع أن تفكر في اعتزال العمل السياسي والتفرغ لمشروع زراعي أو اقتصادي . . كثير من زملاتنا كما تعلم أنهوا وضعهم الثوري وتركوا كل مسئولية سياسية وتُجحوا نجاحاً كبيراً في مشروعات تصدير واستيراد أو غيرها من المشروعات . .

ونظر أحمد إلى الوزير كأنه بلومه وقال :

- تريدنى أن أكون واحداً من هؤلاء .. إنهم جميعاً استغلوا الثورة فى الانجار .. لقد وجدت كتاباً أصدره واحد منهم فى إحدى دول الخليج .. دول البترول .. وكتب عليه اسمه وكتب تحت اسمه صفة ، عضو مجلس قيادة الثورة ، رغم أنه لم يكن عضواً فى مجلس القيادة ، ورغم أن الكتاب كله لا علاقة له بالثورة إنما هو كتاب عن مشروع تجارى ربح منه الثائر السابق أكثر من لميون جنيه استرلينى .. هل هذا ما تريده منى ؟ .. هل يهون عليك أستاذك الى هذا الحد .. هل تهون عليك الثورة لنشى إلى يد أمثال هؤلاء ؟ !

وقال الوزير وهو يحاول أن ينهي الحديث :

لا . . لا أقصد هذا النوع من الناس . . هناك مشروعات أخرى مشرفة . .
 تستطيع مثلاً أن تقيم في القرية مزرعة دجاج . . الدجاج الآن يمثل حاجة شعبية

و يسل أزمة حادة من أزماتنا ، وهي أزمة المطالب الغذائية . . كل صاحب أرض عهم الآن مزرعة فراخ . . وشخصيات معروفة من الشخصيات الثورية السابقة لعيش الآن على مشروعات الفراخ . .

وقال أحمد ساخراً :

إن كل ما أجيده هو التعامل مع عقول الناس . عقلى وعقلهم . .
 تبادل الفكر . . ولا أستطيع أن أتعامل بعقلى مع عقل فرخة . . وإن كانت الفراخ
 كما تقول أصبح لها قيمة شعبية ودور وطنى . . .

وقال الوزير وهو يضغط بيده على حافة المكتب كأنه يهم بالقيام حتى يلفت بطر أحمد إلى ضرورة إنهاء المقابلة :

على كل حال يا أستاذى . . أنا آسف . . لن أستطيع أن أعرض مشروعك
 على أحد . . لا أستطيع . . أكرر أسنى . . وقام أحمد من على مقعده ومد يده
 بصافح الوزير مودعاً قائلاً :

كنت أنتظر هذا . . وقد قلت لك فى أول الحديث إنك ستفاجأ . .
 وعلى كل حال من حتى أن أختار . . إما السجن أو مستشفى المجاذيب أو الانتحار . .
 والوزير يودعه حتى الباب قائلاً :

لا تنس مشروع الفراخ . .
 وقال أحمد ضاحكاً . .
 هذا إذا قامت الفراخ بثورة . .

🎉 الساعات الأخيرة قبل الغروب

كنت أقضى أياماً فى جزيرة رودس . سائحة تبحث عن الهدوه والجمال . . وكنت جالسة فى حديقة فندق اجراندأوتيل الله على حافة حمام السباحة أقرأ كتاباً بهم مجموعة قصص قصيرة لكتاب إيطاليا عبر الأجيال المتعاقبة من أول بوكاسيو وسكافيللي إلى الكاتب المعاصر مورافيا . . ووقف أمامى شاب وسيم رشيق كأنه رسم خطوط وعضلات جسده بنفسه وبذوق فنان ، وفيه سمرة أوربا التي تختلف قليلاً عن سمرتنا . . سمرة مصر . . وهي سمرة يتميز بها شباب حنوب اليونان وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط . وقد حاولت اولاً أن أعامل هذا الشاب ولكنه ظل واقفاً أمامي حتى اضطروت أن أرفع عيني إليه والتقبت بابتسامة حلوة بين شفتيه شدت ابتسامتي إليه . . وقال وكأنه يعرفني من زمان :

- سيدتى . . منذ أيام وأنا أراك لا تفعلين شيئاً إلا القراءة فى الكتب . . إنك تستطيعين القراءة فى أى بلد ولكن جزيرة رودس ليست مخصصة للقراءة ، إنها حزيرة تستطيع أن تعطى أكثر مما يعطى أى كتاب . . . وكان يتكلم بالإنجليزية وبلهجة إيطالية .

وقلت وابتسامتي تتسع بلا افتعال كأني فرحة بهذا الجمال الذي يعرض نفسه علي :

لم القراءة . .

ومنذ بدأت أعتمد على القراءة لمل، الفراغ الواسع الذي أتعرض له في كثير من أبامي ، وأنا لا أقرأ إلا القصص . . القصص الطويلة والقصص القصيرة . . ولا أحس وأنا أقرأ القصص بمجرد التسلية وتضييع الوقت ، كما لا أحس بأني قَمَطُ أَنتَقَلَ لأَعيش في الخيال ، بل أحس وأنا أقرأ قصة كأنى أقرأ دراسة اجتماعية . . إل القارئ يستطيع أن يتعرف على كل طبائع الشعوب وكل مميزات الشخصية الإنسانية من خلال القصص التي يكتبها كتاب كل شعب . . ولذلك أصبحت عوايتي أن أجمع القصص التي تكتب في كل بلاد العالم . . قصص روسية وقصص يابانية وقصص هندية و . . و . . بل أنى قرأت أيضاً قصصاً كتبها كتاب من غانا ومالى وكوبا , . و . . وأصبحت أحس كأنه من السهل على أن أَكْتَشْفَ شَخْصِيةً أَى إنسان من أَى بلد في العالم ، حتى هذا الشاب الذي وقف أمامي . . ألبرتو . . إنى أعرفه من خلال قصة قرأتها منذ أكثر من عشر سنوات كتبها كاتب ألمانى بعنوان « قيمة الحب عشرة » وبطلها شاب احترف اصطياد السائحات العجائز الإنجليزيات والأمريكيات ويعطبهن كل ما يطلبن من متع نظير أحر غال ، واتسعت أعماله إلى حد أنه افتتح بيناً كاملاً مخصصاً لاستقبال عجائز الساء ، واتسعت شهرة هذا البيت في مجال السياحة في ألمانيا حتى أصبح يتردد عليه النساء الصغيرات أيضاً ، وهو لا يبخل أبداً بقواه كرجل يبيع الجنس ، ولكنه مدأ يحس أنه في حاجة إلى بعض المقويات ، ثم لم تعد المقويات تكفي لتغطية طلبات الزبائن فاستعان باثنين من الشبان ليعملا معه داخل البيت ، ولكنه كان دائماً هو المطلوب وهو صاحب الشهرة بين العجائز والشابات . . إلى أن أحب . . أحب فتاة لا تعرف شيئاً عن مهنته ولا تعرف كيف جمع هذه الثروة الضخمة ،

إنى لا أستطيع أن آخذ شيئاً من رودس قبل أن أنتهى مما يعطيه لى هذا الكتاب ..
 قال وهو ينظر إلى الكتاب بين يدى فى زهق كأنه ينظر إلى منافس خطير :
 هل يأخذ منك وقتاً طويلاً ؟

قليت :

- إلى أقرأ في قصة قصيرة .

قال :

قد تأخذ منك ساعة . .

فلت:

ا عا أقا

قال وعيناه مركزتان على وجهى كأنه يحاول أن يكتشف مصيره معى : - هل أعود إليك بعد ساعة . . أقصد نصف ساعة ؟

قلت وقلبي يضحك :

- حاول . .

قال في إصرار وكأنه انتهى من تحديد مصيره :

- سأحاول . .

وابتعد عنى وعيناى تجريان وراء قوامه المهشوق المرسوم بخطوط فنان وتتعلقان بشعر رأسه . . إنه لا يطلق شعر رأسه بلا حساب كما هو موضة الشبان هذه الأيام ولكنه يضعه فى قالب معتدل يتفق مع ملامح وجهه ، وهو ليس شعراً ناعماً لامعاً ولا شعراً خشناً غامقاً ، ولكنه شعر متموج فى لون الساعات الأولى من الغروب ، وأحسست إحساساً قويًّا بأنى أريد أن أمد يدى وأغرز أصابعى بين خصلات شعره . . وطبعاً قاومت هذا الإحساس ورفعت كتابى أمام عينى أحاول أن أهرب منه وأعود

لنقدم إليها أى رجل .. الوحدة .. الفراغ .. إنهما أكثر ما يهدد تصرفات الإسان سواء كان رجلاً أو امرأة .. وأنا أتغلب على وحدثى وفراغى بقراءة الفصص ...

وعدت وفتحت الكتاب وحاولت أن أعيش في داخله كأني أحمى به عسى من ألبرتو . . ولكني لم أستطع . . إن ألبرتو أثار في نفسي إحساساً بأني مطلومة في وحدثي ، برغم أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها وحيدة وفي فندق ول بلد أجنبي ، فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسافر كثيراً مع زوجي إلى أوربا ، وسافرت معه مرات إلى أمريكا ، ومرتين إلى روسيا ، وفي كل مرة كَانُ بِنْهِي مِنْ عمله في العاصمة التي نقصدها ، ثم يقنعني بأنه في حاجة إلى السقر وحيداً إلى عاصمة أخرى ، وغالباً ما تكون لندن أو باريس، ونتفق على أن أنظره في مدينة من المدن السياحية المعروفة . . وكنت أقبل هذه الفرقة بيني وبينه ل بساطة وفرح لأنه في الغالب كانت ابنتي أمينة وابني طارق معنا ، أو كانا للحقان بي في البلد التي نختارها وأقضى معهما أسبوعاً أو أسبوعين في انطلاق عاللي حلو إلى أن يلحق بنا عبد اللطيف ونعود جميعاً إلى مصر . . ولكن أمينة وطارق كبرا . . أمينة الآن زوجة وأنجبت ولدين ، وطارق يقيم في أمريكا . . . ورغم ذلك فزوجي لا يزال يتركني وحيدة في كل مرة نسافر فيها إلى أن يعود إلى . . . إنه في حاجة إلى عندما يسافر حتى يستكمل صفته الرسمية وحتى أكون بجانبه في الدعوات التي توجه إليه ، ولأنه لا يطمئن إلى أحد في حفظ أوراقه إلا إلى ، ولد أصبحت أعرف وأحفظ من هذه الأوراق أكثر مما يعرف هو نفسه . . نُم عد أن تنتهي العملية يصبح وليس في حاجة إلىّ فيبتكر الأعذار ليتركني ، وَكَانَ رَمَانَ يُجِــد في الأولاد حجته فهو يريد أن يدخلهما مدرسة في جنيف وأحبها فعلاً بكل عقله وقلبه وقرر أن ينهى أعماله الخاصة بالسائحات ويتفرغ للحب ، ولكنه عندما بدأ يعطى للحب . عندما بدأ يمارس الحب . فشل . . لم يستطع . . وكان يعود ليمارس مهنته مع سائحة عجوز فينجع ، فشل . . لم يستطع . . وكان يعود ليمارس مهنته مع سائحة عجوز فينجع ، أن الحب يرفض أن يستجيب مع آلته ، وهو قد حول نفسه وجسده إلى آلة لا تستطيع أن تعيش الإحساس الإنسائى . . الإحساس بالحب . . فانتحر . . هذه هى القصة التى ذكرتى بها ألبرتو وحكمت بها عليه . . إنه هو أيضاً عليه . . إنه هو أيضاً عليه . . إنه هو أيضاً

بعطاد السائحات العجائز . . إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب و جيجولو و بعسطاد السائحات العجائز . . إنه يحترف مهنة يطلق على صاحبها لقب و جيجولو و وهي مهنة منتشرة في كل فنادق العالم ، وفي فنادق مصر أيضاً . . وحتى أمس كان ألبرتو في خدمة امرأة أمريكية ربما كانت في السبعين من عموها ، ولعلها سافرت هذا الصباح وتركت رودس قجاء يعرض نفسه على . .

هل أنا عجوز . . إنى - بلا كذب - فى التاسعة والخمسين من عمرى ، ولن أعترف بأنى وصلت الستين عندما أصل إليها ، ولكنى محتفظة بقوامى ونضرة جلدى المشدود فأبدو كأنى فى الأربعين من عمرى ، وصدقونى أنى لم أجر عملية شد جلد وهى العملية التى أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقى فى مصر . أبدأ . . جلد وهى العملية التى أجرتها معظم سيدات المجتمع الراقى فى مصر . أبدأ . . وربا كان احتفاظى بنضارتى يرجع إلى هدوئى الدائم ، ورضائى عن نفسى ، وبجاحى العائلى . . بجاح زوجى ونجاح أولادى وبناتى . . إن النجاح فى حد ذاته عملية تجميل تشد الجلد وتحتفظ بنضارة اللمحات واتساق القوام . .

لا ، إن ألبرتو لم يأت إلى لأنى عجوز . لقد جاء إلى لأنى وحيدة . . إنه
 برانى منذ أسبوع فى هذا الفندق وأنا وحيدة . . ووحدة المرأة هى إغراء طبيعى

الواقع أنها لم تئته . . وربما شجعته ابتسامتي فمد بده وأخذ الكتاب من بين يدي وقال : سأروى لك قصة أمتع مما تقرئين . . ومن يدرى ربما استطعنا أنت وأنا أن .. هل نكتبها بالعربية أم بالإيطالية . . وقلت في دهشة :

- كيف عرفت أنى أكتب بالعربية . .

قال وهو يشد مقعداً ويجلس بجانبي :

– سَأَلَتَ . , لقد أخذتك أولاً على أنك إسبانية . . إن ملامحك فيها كثير من ملامح الإسبانيات ولكني عندما سألت عرفت أنك مصرية . .

وقلت ضاحكة :

- وماذا عرفت أيضاً . .

قال كأنه يطمئنني :

- لن أعرف أكثر مما تريدينني أن أعرف . . المهم ألا نبقي الآن هنا . . هل دهبت إلى ليندوس . .

: قلت

- سمعت عنها ولم أذهب لأنى لا أحب الذهاب في أفواج سياحية . . - قال :

 ستكونين أنت وحدك فوجاً كاملاً . . إنك تساوين عشراً . . تعال . . وببساطة تركت له يدى يشدنى منها ويبتى محتفظاً بها ونحن نسير إلى خارج الفندق وبدعوتني للركوب بجانبه في سيارته . . إنها سيارة فيات صغيرة قديمة ورغم ذلك فرحت وأنا أركبها كأنى أصبحت طفلة وجدت لعبة تلعب بها ،

أو يريد أن يلتحقا بالدراسة الصيفية في أكسفورد أو كمبردج ، أو يريد لهما أن يتمتعا بمصايف أوربا ، ولكن بعد أن كبر الأولاد لم تعد هناك حجة تقنعني إلا أنه يريد أن يكون بعيداً عني ، وكنت أستسلم لما يريد . . ماذا يمكن أن يكون غرضه من هذه الفرقة المتعمدة . أن يمتع نفسه كرجل . يذهب إلى هذا الصنف من النساء الذي يعطيه بالثمن . . لا يمكن أن يكون محمود مرتبطاً بأي علاقة جادة مع أي امرأة . . إني أعرفه . . إنه يلعب أو يعطى نفسه إجازة زوجية ، وهو في حاجة إلى هذه الإجازة خصوصاً بعد أن وصلنا إلى هذه السن . . إنه الآن في الثانية والستين ولا يزال محتفظاً بكل رجولته . . إني أعرف رغم إنى فقدت القدرة منذ سنوات على إثارة هذه الرجولة . . إن كل ما يحتاج إليه مجرد امرأة يدفع لها . . نفس الصنف الذي ينتمي إليه ألبرتو . . امرأة تبيع تفسها . ورجل يبيع نفسه . . ولكني لم أشعر أبداً بحاجني إلى رجل من هذا النوع ولا من أي نوع آخر . . إنى عشت وحيدة في مصايف أوربا وفي جزر البحر الأبيض . . في كابرى . . وسيسليا . . وكريت . . وجزر كنارى في المحيط الأطلنطي . . أصبحت أنا التي تختار الملجأ الذي أعيش فيه إلى أن ينتبي زوجي من لعبه . . وأنا التي اخترت جزيرة رودس لمجرد أنها قريبة من أثينا التي كنا فيها للعمل . .

وفجأة وجدت ألبرتو واقفاً أمامي يقول من خلال ابتسامته الرزينة :

- هل انتهت القصة ...

ورفعت عيني إليه وطارق جديد يلح على عقلي . . لماذا لا أجرب , . ماذا سأخسر . . إنها مجرد تسلية تريحني من وحدتي وفراغي ومن قراءة القصص . . . وقلت وأنا أبتسم له ابتسامة كبيرة :

أو ربما كانت هذه السيارة الصغيرة القديمة قد حررتنى من كيانى الاجتهاعى الذي يفرض على أن أركب السيارة البويك والمرسيدس الكبيرة الفخمة . أصبحت حرة . والطريق إلى البندوس ا يعلو إلى قمة الجبل ويهبط إلى الوادى وكله مكسو بأشجار الزيتون وأشجار البرتقال والجمال من حولى يكاد يطبر بى . . لا . ليس مجرد الجمال . لقد عشت قبل ذلك فى القمم والجبال وبين أشجار الزيتون والبرتقال ، ولكن هذه هى المرة الأولى التي أحس فيها بأنى أعيش مغامرة مع رجل غربب . إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتهاهه أكثر إلى مع رجل غربب . إن الإحساس بالمغامرة يجعل الإنسان يركز انتهاهه أكثر إلى كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال . ولكن . لماذا أسميها مغامرة . كل ما يمر به فيكشف مزيداً من الجمال . ولكن . كاذا أسميها مغامرة . إنها مجرد رحلة سياحية أقوم بها على حساني الخاص ، والبرتو ليس إلا دليلا سياحياً ترجماناً . وأنا مطمئنة إليه . مطمئنة لأنى سيدة كبيرة . . عجوز . . لا يمكن أن يطمع فيها أى شاب كالبرتو . .

وهو لا يكف عن الكلام طول الرحلة . . إنه يجعلني أضحك عندما يريد أن يضحكني . . ويزيد معلوماتي عندما يريد أن يزودني بمعلومات . . ويروى لى قصصاً مسلية تصلح ليضمها كتاب من الكتب التي أقرؤها . . وقد النتهزت فرصة سكت فيها وسألته :

- ألبرتو . . ماذا تعمل . . ما هو عملك ؟

ونظر إلى كأنه استسخف السؤال وتلعثم قليلاً ثم قال :

- أنا رجل أعمال . .

قلت :

- أي نوع من الأعمال ؟ . .

وأطال نظرة اللوم إلى ثم قال :

- كل الأعمال تؤدى إلى نتيجة واحدة . . كلها محاولات لتحقيق سعادة الإنسان . . إن مدرس الأطفال يبيع السعادة للطفل بتعليمه . . والجرسون فى بار ببيع السعادة بتقديم الخمر للزبائن . . ورئيس الوزراء فى أى بلد يدعى أنه ببيع السعادة للشعب بتحقيق الحرية والرخاء . . وأنا أزاول أى عمل يحقق السعادة . . لا يهم نوع العمل . . المهم أن أكون سعيداً به وأن أسعد به غيرى . .

قلت د

إنك تسعدنى فعلاً ، ولكن هل أنت سعيد بي ؟

هل تحقق الأمل بينك وبين السيدة الأمريكية التي كنت أراها معك . .
 ونظر إلى وبين شفتيه ابتسامة كأنه يشفق بها على وقال :

أراهن أنك سيدة بلا تجارب . . إنك تجعلينني أحس كأني أول رجل
 ف حياتك ، بعد زوجك طبعاً . .

قلت كأني أنهره :

- إنك لم تدخل حياتى بعد . . -

: ال

- أقصد أنى أول رجل غريب تلبين دعوته . .

فلت :

- هذا صحيع . .

: ال

وهذا ما يجعلك تحاولين أن تعرفى كل شيء عنى رغم أنى معروف فى كل أوربا تقريباً . . وهذا أيضاً ما يجعلك تغارين من السيدة الأمريكية . . جاكلين . . و.
 وقاطعته :

- إنى لا أغار ولكنى فقط أحاول أن أعرفك . . عال . .

- حتى محاولة معرفتي تجعلك كأنك طفلة صغيرة تجتاز تجربة لأول مرة ، فإن معرفتي لا تهم في أي شيء ، المهم هو اللحظة التي نقضيها معاً ، هل أنت سعيدة بها وهل أنا سعيد بها أم لا . ولكن . . لا يهم . . سأروى لك قصة جاكلين . . لقد عرفتها منذ عشر سنوات في فينيسيا وكنت لا أزال في اولي تجاربي ، وكان لها فضل كبير على . . علمتني كل شيء . . ورفعتني إلى الحياة التي كنت أحلم بها . . قدمتني إلى أزق المجتمعات . . وعشت معها في أكبر الفنادق التي أصبحت الآن زبوناً دائماً بها . . بل إن أصحاب الفنادق يتنافسون على دعوتي للإقامة عندهم كما يتنافسون على استثجار الفرق الموسيقية أو الفنانين المشهورين . . وقد أخذتني جاكلين معها إلى أمريكا . . إنها تملك أسهم إحدى شركات البترول فى ولاية أوكلاهوما وعشت هناك أكثر من عام ثم لم أعد أطيق ، رغم كل ما كانت تحيطني به جاكلين . . لقد اشترت لي طائرة خاصة لأتنقل بها داخل أمريكا ، وكنت أطير بها إلى لاس فيجاس لألعب القمار وأخسر وجاكلين تتحمل، ورغم ذلك لم أعد أطيق . . وكانت كريمة فانفقت معى على أن أعود إلى أوربا وتأتى هي إلى كلما أرادتني . . لقد سافرت صباح اليوم . . ومنذ ثلاثة أيام . .

منذ رأيتك فى الجراند أوتيل وأنا مصمم أن أتقدم إليك بعد أن تسافر جاكلين . . وأقول لك بصراحة . . لو عادت جاكلين فسأضطر أن أعود إليها :

قلت وأنا مبهورة بالصراحة التي يتكلم بها ;

- إنها كبيرة . . أكبر منى بكثير . . لعلك تحس بها كأم . .

ال في بساطة :

لا . . أحس بها وأحبها كعمل . . إن الطبيب لا يهمه سن المريض . .
 وأعتبر يني طبيباً نفسانياً

ويزداد انبهارى بصراحة ألبرتو . . إنه لا يخنى شيئاً عن طبيعة عمله بل يتحدث كاخصائى فخور بتخصصه . . إنه لا يخدعنى . . ولا يحاول أن يصل إلى شيء لا أعرفه . . إنه يقدم لى نفسه ويتركنى أختار . . والسيارة القديمة الصغيرة تعلو وتهبط بنا بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وفجأة بدأت السيارة تهتز ثم عجزت عن السير وتوقفت ، وصرخ ألبرتو :

- هذا ما كنت أخشاه . .

ونزل من السيارة وفتح غطاء الموتور وبدأ يعبث فيه إلى أن عاد إلى التحرك . . وعدنا نقفز فى طريق الزيتون والبرتقال ثم عادت السيارة وتوقفت ، ونزل منها ألبرتو قائلاً :

- إنها غلطتى . . كنت أريد أن أشترى سيارة جديدة من روما وليس من هنا . . ثم دار وفتح لى الباب قائلا :

سنضطر آن نسير كيلومتراً واحداً ونصل إلى قرية « مالونا » . . إن هناك أحسن نبيذ . . . أستطيعين السير كيلومتراً واحداً . . أستطيع أن أحملك بين ذراعى لو أردت . . .

وقفزت من السيارة فى خفة كأنى أحاول أن أثبت له شبابى ، وتركنا السيارة وراءنا دون أن يهتم ألبرتو حتى بإغلاق أبوابها ، وبدأنا نسير على أقدامنا بين أشجار الزيتون والبرتقال وقلت :

- ألا يستحسن أن نغلق أبواب السيارة ؟

قال وهو يأخذ يدى في يده :

- لم نعد في حاجة إليها . . ليأخذها من يريد . .

وسرنا حوالى نصف ساعة . . وكل ما حولى جميل . . والجمال فى داخلى . . أحس كأنى أعيش قصة بطلتها فتاة صغيرة خطفها فارس أحلامها . . ولم أكن أحس بألبرتو بالذات . . ليس هو . . وهو إلى الآن مجرد شاب من الشباب الذين تعودت أن أقيسهم بعينى وأنا جالسة فى مقاهى أوربا . . ولكن ما أحس به هو ما يحيطنى به ألبرتو . . هو الإحساس بالمغامرة . . بالشيء الجديد . . بالجمال التحرر من كل ما عشت فيه من تقاليد . . وتوقف ألبرتو تحت شجرة زيتون قائلاً :

- استراحة لمدة عشر دقائق . .

ثم سقط على الأرض فى ظل الشجرة وأسقطنى معه . . ثم سكت عن الكلام . . وأخذ ينقل عينيه فى أنحاء وجهى ، ثم مد ذراعه ووضعها فوق كتفى ، ثم قال فى همس :

- أريد أن أحاول ..

وعيناى متعلقتان بوجهه الوسيم وشعره المتموج فى لون الساعات الأولى من الغروب ولكنى حاثرة . . لا أدرى ماذا يريد أن يحاول . . ولا أدرى ماذا أريد أنا . . ومال بشفتيه فوق عنتى ، ثم تسلل بهما فوق وجنتى ، ثم أحسست بهما بين

شفتى . . وتجمدت شفتاى . . منذ أكثر من عشر سنوات لم أتلق قبلة بين شفتى . . زوجى عبد اللطيف كان قد استغنى عنهما كما يستغنى عن الحذاء القديم ، وأنا أيضاً . . شفتاى . . كانتا قد فقدتا الحاجة بالإحساس بالقبل . . ولذلك تجمدت شفتاى بين شفتى ألبرتو . . وهمس مبتسماً :

انك مازلت ساذجة . . أحس كأنى يجب أن أعلمك كل شيء حتى
 اقا

– كني يًا ألبرتو . . دعنا نعد إلى السير . .

وقفزت واقفة ، وقفز معى وهو يبتسم كأنه يعلم كل أحاسيسى ، وبدأنا من جديد ، وبدأ يعود إلى أحاديثه كأنه يعزف لى الألحان بين أشجار الزيتون المرتقال . .

إلى أن وصلنا إلى قرية ، مالونا ، ودخلنا هناك دكان بقال واستقبلوه بالتهليل كأنهم يعرفونه من زمان طويل ، وجلسنا لنتناول طعام الغداء والنبيذ ، وهو يقوم بين الحين والآخر ليبدل الأسطوانات فوق ، الديستوتك » . . وبعد أن انتهينا وقررنا أن نعود لنستأجر سيارة ونعود إلى ، رودس ، فتحت حقيبتي وأخرجت منها كل ما فيها من آلاف الدرخمات ومددت بها يدى من تحت المائدة إلى ألبرتو قائلة :

وكانت الساعة الرابعة عندما وصل بنا التاكسي إلى الفندق وتركني ألبرتو على أن نلتني في التاسعة . . إنه هو أيضاً الذي دفع أجر التاكسي وقد حاولت أن أدفع أنا ولكنه عاد وقال مبتسماً :

لا تكونى ساذجة . .

ومن الرابعة حتى التاسعة كنت أشبه بالمجنونة . كنت كأني أحاول أن أحلق نفسي من جديد . . لقد دخلت الحمام ولأول مرة أهمّم بأشياء مضت سنوات طويلة لم أهتم بها . . إني أستعرض كل تفاصيل جسدي في المرآة ، وأتحسس صدري لأطمئن إلى أنه لا يزال يحتفظ بشيء من تماسكه . . وساقى . . وذراعى . . وبطني . . لا شك أنى لا أزال محتفظة باتساق قوامي . . وبذلت في الإستحمام مجهوداً لم أنعود أن أبذله ، ولم أكن في كل ذلك أفكر في ألبرنو أو يخطر ببالي . . لم أكن أعد نفسي له . . ولكني كنت أعد نفسي لنفسي . . كنت أعيش شخصية جديدة أريدها هكذا . . ثم قررت أن أذهب إلى الكوافير رغم أن شعرى ناعم وكنت قادرة دائماً على أن أعقصه كما أريد بلا كوافير . . وعندما بدأت أختار الثوب الذي سأبدو به بدأت أبحث عن مظاهر أخرى غير التي تعودتها . . لقد تعودت أن أختار ثوب المساء لأظهر به في الدعوات الرسمية بصحبة زوجي ، أو في السهرات الاجتماعية بصحبته أيضاً وكنت أنجه دائماً إلى الأزياء الحشمة العاقلة ، وكنت معروفة في كل المجتمعات باتساق ذوقي في اختيار ثوبي مع الاحتفاظ بهذه الحشمة العاقلة . . ولكنني الليلة لست حشمة ولا عاقلة ، إنِّي أفكر فيما يكشف عنه الثوب أكثر مما أفكر في الثوب نفسه . . ذراعي . . عنتي . . وإبراز صدري وتحطوط ظهري . . كل ما أتخيل أنه جميل مني أحاول أن أبرزه . . ووقفت أمام المرآة معجبة ببطلة القصة التي أؤلفها . . ولكن . . ماذا

– ألبرتو . . أرجوك ادفع عنى الحساب . .

وكنت أعتقد أن هذا ما يجب أن أفعله بعد أن اعترف لى ألبرتو بعمله . . ونظر إلى ألبرتو فى دهشة ثم ضحك ضحكة كبيرة وقال :

- ليس هكذا أيتها الطفلة الساذجة . .

ثم دفع الحساب من جيبه ، وأعتقد أنه كان سخيًّا فى دفع البقشيش فقد أثار فى الدكان كثيراً من التهليل وصيحات المرح . . وأكثر من ذلك . . أخذنى إلى دكان فى القرية يبيع تحف السيراميك التى تشتهر بها رودس ، واشترى لى قطعاً غالية دفع ثمنها من جيبه . .

وركبنا السيارة التاكسي وأنا حاثرة . . لا أدرى كيف أحدد أسلوب التعامل معه . . ترى كيف يتعامل زوجي عبد اللطيف مع النساء اللاتى يعطينه اللحظات الحلوة . .

وقال ألبرتو :

- ضاعت منا و لاندوس و اليوم . . فالليل هناك بارد وهم ينامون بمجرد أن تنام الشمس . ولكننا سنذهب غداً أو بعد غد وبعد أن نجد سيارة جديدة . . والتاكسي ينطلق بنا عائداً بين أشجار الزيتون والبرتقال ، وألبرتو يضع ذراعه فق كتفى وأملت رأسي واسترحت بها فوق كتفه . . ثم رفعت يدى ودسست أصابعي بين خصلات شعره . . حققت ما كنت أحلم به منذ رأيته . . شعره المتموج في لون الساعات الأولى من الغروب . . لم لا . . إني أعيش في حالة نسيان . . نسيت عمرى ، ونسيت زوجي وأولادي ، ونسيت مركزي . . إني أعيش قصة ، ويبدو أن إدماني قراءة القصص جعل مني امرأة مخمورة بقصة تؤلفها وتعيشها . .

أبضاً في أنواع السيارات . .

وقال كأنه غضب :

- إلى أين ؟

- بيتريق . .

قالها وكله ثقة في نفسه وكأنه تملكني وكأنى استسلمت له . . ثم توقف برهة عند مكتب البواب وطلب مفتاحاً ، ونظر البواب إلى وابتسم ابتسامة لم أرتح لها ثم أعطاه المفتاح ، ثم أدخلني معه في المصعد وضغط على رقم الطابق الرابع إنه نفس الطابق الذي أقيم فيه . . ثم سار بي في نفس المعر الذي يؤدي إلى حجرتي . . ووقف أمام حجرتي فعلاً . . الحجرة \$\$\$. . وفتح بابها بالمفتاح . . وقلت كأني أصرخ :

- كيف أعطوك مفتاحي ؟

: ال

- لقد كنت معى . .

قلت :

أحمل معى لألبرتو .. بجب أن أحمل له هدية تشجعه على أداء مهمته في اسعادى .. هكذا تتطلب القصة .. وألبرتو ليس اجيجولو ا رخيصاً يقبل أن تدفع له المرأة حساب السهرة .. إنه محترف غالى الثمن .. وكنت قد اشتريت من باريس علبة سجائر ذهبية وولاعة سجائر كارتيه هدية لأخى إسماعيل .. سأعطيها لألبرتو وأشترى لاسماعيل هدية أخرى ..

واستقبلني ألبرتو في بهو الفندق كأنه بهر برشاقتي ولا أريد أن أقول جمالى . . على الأقل بهر بجمال ثوبي وجمال إعدادي لنفسي . . وجلسنا نتناول العشاء في صالة الفندق . وأخرجت علبة السجائر والولاعة وقدمتهما له قائلة :

- حتى لا تنسانى . .

ولم يبد عليه أنه بهر بالهدية . . قلبها بين يديه وقال بلا حماس :

- ألف شكر . كنت في حاجة فعلاً إلى علبة سجائر وأفضل دائماً ولاعات كارتبه :

قالها ببساطة كأنه تعود على أن يتلقى مثل هذه الهدايا . . ثم بدأ يثير إهتمامى بحكاياته ونكاته ويقضى وقتاً طويلاً فى اختبار أنواع النبيذ ، وبروى لى تاريخ كل نوع . . وأنا لم أتعود أن أشرب من النبيذ ولكنه استطاع أن يجعلنى أشرب . . لم أسكر ولكنى شربت . . وبين كؤوس النبيذ قال لى ألبرتو :

غداً نذهب فى رحلة بحرية بين الجزر . . وبعد غد نكون قد اشترينا
 السيارة ونذهب إلى ليندوس . . خبرينى . . هل تفضلين المرسيدس أم الألفا روميو . .

وتوقف عقلي لحظة عند هذه الكلمة . . ماذا يقصد . . ولكني بسرعة تجاهلت كل ما يخطر على بالى مما يقصده ، وقلت :

- ألفا روميو تليق بك . . والمرسيدس تليق بى . . إن فرق السن يتحكم

لم أسمعك تطلب مفتاحى ، ولو سمعت لاعترضت . .

قال في ثقة : د د:

- لا أظن ...

ودخل الغرفة كأنها غرفته ، كأنه يعرف كل تفاصيلها وكل ما فيها ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب زجاجة اليكير ، من عصير النعناع ، ثم جلس على الأريكة العريضة وشدتى ليجلسنى إلى جانبه ، وقال وهو يحتويني بعينيه الغامضتين وإبتسامته الحلوة تكاد تلتقط شفتى :

يا عزيزتى . إن العمر إحساس . وأنا أحس بك الآن كأنك فتاة
 فى الرابعة عشرة ، وأحس بنفسى كأنى وحش فى الأربعين قرر أن يفترسك . .
 وأنت . . أنت فى حاجة إلى هذا الإحساس . . الإحساس بأنك امرأة . . إن القدرة على الإحساس لا تضعف أبداً ولا تذبل . .

وقد بدأت أحس فعلاً . .

وبين كثوس العصير المسكر يشتد إحساسي . إحساسي بأنى امرأة وأن البرتو رجل . وأننا قريبان جدًّا من الفراش . وألبرتو يتحكم في بمهارة صنايعي . . يجيد الصنعة . . لا شيء بيننا سوى الصنعة . . المهارة في الإخراج وفي الوصول . . واكتشفت أنه لا شيء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأى امرأة . . قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عز القدرة على الانجاب ، ولك لست

واكتشفت أنه لا شيء هناك يسمى سن اليأس بالنسبة لأى امرأة . . قد يكون الوصول إلى سن اليأس هو توقف المرأة عن القدرة على الإنجاب ، ولكن ليست هناك أبداً سن تصل فيها المرأة إلى العجز عن الإحساس . . وقد كنت أعتقد أنى وصلت إلى سن اليأس منذ سنوات ، ولكنى الآن مع ألبرتو أحس بالمتعة كاملة . . أحس كأنى أعيش فى جسد تنبض كل خلجة منه بالحياة . . ليس فى داخلى قطعة مانت أو فقدت الإحساس . . وربما كان هذا هو سر ما كنت أعانيه

مع رَوجي عبد اللطيف . . إنه يؤمن بما يسمى سن اليأس بالنسبة لى فتجاهل إحساسي كل هذه السنبن . . إنه ما تعانيه كل نساء الشرق عندما يصلن إلى هذه السن . . وقد حررفي ألبرتو من المعاناة . .

وتركني ألبرتو عارية فوق الفراش . قائلا :

- سأراك غداً . .

وفى لحظة خلعت من أصبعى خاتمى السوليتير الذى يحمل فصًا ماسيًا رته ثمانية قراريط . وكنت قد اشتريته منذ أكثر من عشر سنوات بثلاثة آلاف جنيه وربما يساوى الآن ثلاثين ألفاً ، وأعطيته لألبرتو قائلة :

– بعه . . واشتر لنا سيارة ألفا روميو . .

وأخذه ألبرتو بعد أن قبل أصبعي الذي خلعته منه . .

إنه تمن غال دفعته للمفاجأة التي فوجئت بها . . مفاجأة أنى ما زلت أعيش إحساسي كامرأة . .

ومهما كان الثمن الذى دفعته فلا يمكن أن يقاس بما دفعه زوجى عبد اللطيف خلال كل هذه السنوات وخصوصاً بعد أن تعدى الستين حتى بمارس إحساسه برجولته مع نساء أوربا اللاتى يقدمن نفس ما يقدمه ألبرتو . . يقدمن متعة الإحساس،

ونحت ليلتها . . لعلى لم أنم بل أغمى على فقد كان ألبرتو قد استنزف كل قواى من ساعة أن قابلته في الصباح حنى تركني على فراشى بعد منتصف الليل . . واستيقظت في حوالى الساعة الثانية بعد الظهر . . لا . . لم أستيقظ ولكنى فزعت نافرة من فوقى الفراش كأن ناراً مستنى ، وكل ما حدث أمس ينطلق في رأسى . . كيف استسلمت لكل هذا . . إن هذا الصنف من المحترفين أمثال

ألبرتو أعرفه وأسمع عنه منذ زمان ولكني لم أستسلم أبدأ . . بل لم يكن يخطر على بالى التعرض لمثل هذه التجربة . . وزوجي إنه يعيش حياته الخاصة منذ سنوات وقد احتملتها دون أن أحاول أبداً أن أعطى لنفسى الحق في حياة خاصة يي انتقاماً منه أو ردًّا عليه . . ثم مركزي وقيمتي في المجتمع المصري والعربي والأورى إن المركز والقيمة لا يصنعهما ما يعرفه الناس عنك ولكن ما تعرفه عن نفسك ... وما أعرفه عن نفسي الآن يهدم مركزي وقيمتي . . وأولادي . . يا خبر . . كيف أواجه أولادي وأحفادي وفي صدري خطيئة كبيرة أخفيها عنهم . إن الإحساس بأنى أخفى عنهم شيئاً يضعفني أمامهم . . يجعلني أستسلم لأخطائهم ، لو وقعت ابنتي أمينة في خطيئة ماذا أقول لها وأمها وقعت في نفس الخطيئة . . والله . . ماذا يفعل بي الله . . إنه قد يغفر للرجل ، بل منحه الحق في الزواج من أربع حتى يحميه من الخطيئة . أما المرأة فهو لا يغفر لها بسهولة ولم يمنحها شيئًا تحمى به نفسها إلا إيمانها به واستسلامها لحكمته . . قد يصب غضبه على في صحتي ، أو في أولادي ، أو في زوجي . . يارب كن غفوراً . . احمني من غضبك . . وقررت أن أقوم وأنطهر وأصلي . . ولكن هذه الحجرة كلها لم تعد تصلح لأداء صلاة . . إنها موقع الخطيئة . .

وتعذبت ساعات طويلة حاولت خلالها أن أقنع نفسى بأن ما حدث ليس شيئاً كبيراً ولا غريباً ، وأتى بجب أن أتحرر من التقاليد القديمة وأعيش المجتمع الحديث . . إن فى الجزيرة عشرات من الرجال من أمثال ألبرنو وكل منهم بيبع بضاعته لسيدات كلهن فى سنى وأكبر منى وكلهن من عائلات كبيرة ثرية . . بل حتى المجتمع العربي . . كثير من السيدات المحترمات يتعاملن مع أمثال البرتو كلما خرجن من بلادهن . . بل إن سوق النساء العربيات أصبحت هى

الهلى الرائحة لصناعة ألبرتو . . بل ربما كان ألبرتو لم يخترنى ليلقى على شباكه ٧ ٧له عرف أنى عربية ، وأقيم فى هذا الفندق فأنا ثرية . . ثراء بترولى . . وقد معمد عملاً ربما أكثر مما تدفع سيدات البترول . .

وله معدد ربع الحر من للساء لم أطلب شيئاً آكله ولا حتى كوب ماء . . ثم وبقيت فى غرفتى حتى المساء لم أطلب شيئاً آكله ولا حتى كوب ماء . . ثم برات إلى يهو الفندق فى المساء وقد قررت أن أنهى أى علاقة بألبرتو ، ولا مجرد

و وجدته أمامي كأنه كان في انتظاري . . وقلت له فوراً :

-- آسفة مسيو ألبرتو . . إنى متعبة وفي حاجة لأن أبغي وحيدة . .

وقال في هدوء وابتسامته الحلوة تنطلع إلى شفتي :

هذا ما كنت أنتظره . . فإنى أعرف أنك مازلت مبتدئة . .

وابتمد عنى ...
وعيناى تجريان وراءه وإحساسى بأخذ فى التحرك .. إحساسى بأنى امرأة
وعيناى تجريان وراءه وإحساسى بأخذ فى التحرك .. إحساسى بأنى امرأة
إلى أريده .. إن ما تركه فى ليلة أمس لا يمكن أن أتخلص منه بمجرد قرار ..
إلى أحس بكل قطعة من جسدى فى لهفة إليه .. شفتاى .. صدرى .. ساق ..
لقد أصبحت .. أصبحت مريضة .. ولن أقاوم مرضى وأنا وهو فى مكان واحد ..
لقد أصبحت .. أصبحت مريضة .. ولن أقاوم مرضى وأنا وهو فى مكان واحد ..
وبسرعة انجهت إلى مكتب الفندق وحجزت مقعداً فى الطائرة التى تتجه إلى
أثينا صباح الغد .. وما كدت أبتعد عن المكتب حتى وجدت ألبرتو أمامى يقول
فى صوته المنغم الهادئ :

- هل تسمحين أن أصحبك إلى المطار . . هناك شيء يبقى دائماً ولا يكلف شيئاً . . وهو الصداقة . .

وأجبت وأنا أهرب من إغراثه ومن ضعفي :

لعلى أنسى وأشنى من إحساسي بأنى إمرأة . .

بعد ستة شهور قرر زوجي عبد اللطيف أن يسافر إلى برلين في عملية جديدة ، وأبلغني الخبر كان المفروض أن أسافر معه ولكني صرخت دون أن أتعمد الصراخ وكانه فاجأني بشيطان مخيف :

- لا . . لن أسافر . .

وقال في دهشة :

- لاذا ؟

: قلت

– لأنى زهقت من السفر ولم أعد أحتمل

: ال

- ولكنه عمل . . والعمل في حاجة إليك وأنت تعرفين أنك عندما تكونين معي فإن ما يمكن أن أصل إليه في شهر أصل إليه في يوم . . إن الزوجة تفتح دائماً أبواب المجتمع الجاد أمام زوجها . . عندما تكونين معي ندعي إلى جلسات عائلية وتتعرفين على زوجات الآخرين وهذا هو أقصر طريق لنجاح العملية . . وعندما أكون وحدى أدعي في النوادي الليلية وفي المكاتب . . وكل واحد من الآخرين يتمنى أن أكون وحدى حتى يستغل ضيافتي في السهر يعبداً عن زوجته ولكن هذا الأسلوب يعطل العملية ويفتح مجالات كثيرة غير محترمة . . وأنت تعرفين كل ذلك وأنا أعرف أنك تصنين في النجاح . . ولن أنجح بغيرك . .

وكنت فعلاً أعرف كل ذلك . . ورغم أنى حاولت كثيراً أن أقنعه بإعفائي من صحبته إلا أنه أصر واضطررت أن أقبل ولكنى قلت : نعم . . نعم . . أراك في المطار . .

وعدت أجرى إلى غرفتى دون أن أتناول طعام العشاء ، وخفت أن أموت لونمت دون أن آكل فطلبت قطعة من الساندويتش وكوب ماء . .

ولم أنم ليلتها . . أتعذب في صراع بين ما يريده هذا الإحساس الذي أثاره في ألبرتوا، وبين تصميمي على أن أعالج نفسي من هذا الإحساس . .

وفى الصباح لم ينتظرنى ألبرتو فى المطار ولكنه انتظرنى فى بهو الفندق ، وقام بكل الإجراءات الخاصة بنقل حقائبي وتصفية حسابى ثم وضعنى فى سيارة يقودها . ليست السيارة القديمة وليست جديدة ، وقال :

- إذا التقينا مرة ثانية ستركبين الألفا روميو...

وكل ذلك دون أن يحاول إقناعي بالعدول عن السفر . . لم يطلب شيئاً أبدآ . . كأنه فعلاً طبيب يجد أن العلاج الوحيد لحالتي هو أن يتركني أتخذ القرار ننفسور . .

وقبل أن أتركه في المطار أعطاني بطاقة تحمل اسمه وعنوانه . قائلا :

إنه عنوانى فى روما ولكنهم من هناك يستطيعون أن يتصلوا بى فى أى مكان
 أنا فيه . . إذا احتجت إلى . . .

ورفعت عيني إليه ولم أتكلم . . ولا حتى كلمة وداع . .

وجريت إلى الطائرة . .

وفى أثينا اتصلت بزوجى عبد اللطيف فى لندن وطلبت منه أن يأتى إلى فى اليوم نفسه . . ولكنه لا يستطيع أن يترك لندن قبل يومين ، فقلت له إنى مريضة وسأعود غداً وحدى إلى القاهرة . .

وعدت . .

وطلبت روما بالتليفون ، وردَّ علىّ صوت نسائى ناعم ، وسألت عن ألبرتو ، وقالت :

إنه فى اسبانيا . . مايوركا . . احتفظى بالخط سأحول لك المكالمة . .
 وسمت صوت ألبرتو . .

وقلت في هدوء :

ألبرتو قابلني في سان مورتيز . . غداً . .

- في شرط واحد . ألا تتركني وحدى . غير مسموح لك بأجازة زوجية . .

وقال مستريحاً :

– موافق . . ولا دقيقة وحدك . .

وسافرنا . .

وتمت العملية .

وفى نفس اليوم بدأ عبد اللطيف يقنعنى بأنه مضطرٍ أنْ يسافر إلى لَندن وحده . وصرخت :

- خذنی معك . .

: قال

 ليس هذا في صالح العملية . . إنى سألتنى هناك بشخصيات عربية والعرب لا يصحبون زوجاتهم . . العمليات معهم تتم في النوادى الليلية والكباريهات كما تعلمين .

وكنت أعلم ، ولكنى أعلم أيضاً أن ما يسعى إليه عبد اللطيف ليس لقاء الشخصيات العربية ولكن الارتماء في حياته الخاصة ، وقد أصر على السفر وحده ، وقلت له إنى سأعود إلى القاهرة غداً أو بعد غد . . .

سافر زوجی . .

وكنت وحيدة في غرفتي بالفندق ، ووجدت نفسي أبحث عن البطاقة التي تحمل اسم ألبرتو ، وكنت أحتفظ بها كنوع من التحدي لنفسي . . نوع من إقناع نفسي بأني لا أهرب ولكني أقاوم . . وقلبت البطاقة في يدى وابتسمت ابتسامة ساخرة . . أسخر من نفسي . .

🎉 یا أنت . . دعنی لغروری 🎇

The State of the Control of the Cont

انت . .

لعلك تسألني لماذا انقطعت عنك طوال هذه الشهور . . والواقع أنى لم أنقطع عنك وحدك ولكنى انقطعت عن كل أصدقائي خارج لبنان ، ربما لأنى فقدت ثقتي بنفسي إلى حد أنى لم أعد أستطيع أن أواجه أحداً حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات أو التحدث في التليفون . .

وأنت تعلم كم كنت مغرورة بنفسى خصوصاً عندما أكون خارج لبنان . . كنت أقيم من نفسى أستاذة على كل مجتمع أجد نفسى فيه ، وأعطى لنفسى الحق فى توزيع الدرجات على طلبة علم التقدم الحضارى . . وأنا – أستاذة علم التقدم الحضارى . . وأنا – أستاذة بأكثر من صفر . . وأنت وحدك كنت أمنحك درجين من عشر درجات ربحا لأنى التقيت بك وأنا مازلت طفلة لم أستكمل بعد كل عناصر الغرور . . الجمال . . والذكاء ، والثراء المكتسب بالعمل لاثراء الصدفة الذى تحققه آبار البترول ، ثم قوة الجذب فى كل المجتمعات العالمية التى حققت لى نجاحاً لا تحلم به أى فتاة أخرى . . كل هذا خلق لى الشخصية التى كنت أعتز بها . . شخصية الأستاذة . . شخصية العبقرية . . الشخصية التى كانت تمنحنى شخصية الأستاذة . . شخصية العبقرية . . الشخصية التى كانت تمنحنى

الشماتة .

إنى أعيش في إحساس بأن العالم كله شامت فينا . . كل فرد من بنى البشر يتلذذ عا يحدث لنا . . يتلذذ بدماثنا التي تغرق الشوارع ، وكياننا الذي يتهدم ، وصراخنا الذي يشق قلوبنا . . وقد يذرف العالم دموعاً شفقة علينا ، ويلف كرافت أسود حداداً على قتلانا ولكن وراء هذه الدموع وهذا الكرافت فرحة في القلب . . فرحة الشمائة . . فرحة سوداء . . وربما كانت شمائة الإنتقام من سنوات الغرور الذي عشنا نصبه على العالم . . شمائة التخلص من السيطرة اللبنائية التي لم تكن تعمد على شيء إلا على الذكاء الغرورى . شمائة إنتصار الشيء على اللاشيء . . ورغم ذلك كنا نسيطر على كل العالم العربي إلى أن انتصر علينا شيء . . شيء مجهول . . وربما لأنه مجهول فقد انتصر . . فالمجهول هو الذه

ولعل الشماتة التي أحسس بها يوماً كأنها سكين تذبحني هي شماتة هذه المرأة التي تدعى ايفيت . . أنت تعرفها بل أنت الذي قدمتها إلى دون أن تدرى . . فابغيت مصرية مسيحية يسرى في عروفها دم أجنبي لا أدرى أهو دم أربني أم جربكي أم فرنسي ، المهم أنها قدمت إلى نفسها عندما جاءت إلى بيروت على أنها مصرية . . وأنت الذي عودتني على أن أحس بمسؤليتي عن كل فناة مصرية تصادفني . . أحبها لمجرد أنها مصرية . . ربما لأنك يوماً ما كنت مسؤلاً عنى . . مسؤلاً عن تكوين عقليتي وفكرى . . كان عقلك المصرى هو الذي هذب عقلي اللبناني . . ولهذا تعودت أن أرد لك الجميل في كل ماهومصرى . وكانت وايفيت وتعدو مسكينة ، غلبنانة ، رغم أنها جميلة . . وعرفت أنها من عائلة وكانت وايفيت المدومة المعرفة ، غلبنانة ، رغم أنها جميلة . . وعرفت أنها من عائلة المراسة ، وكانت غلية في مصروكان أبوها يمتلك مصنعاً للرخام ، ثم فرضت عليه الحراسة ،

الحق فى أن أوزع نصائحى على كل من أقابله ، وأتصور كل يد تمتد إلى كأنها نستغيث بى لأنقذها أو لأسد حاجتها . .

وقد ضاع کل شیء . .

ضاع غروری . .

أصبحت كلما التقيت بأحد يخيل إلى أنه ينظر إلى نظرة إشفاق لا نظرة الإعجاب التي تعودتها . . وكلما مددت يدى لمجرد المصافحة أحس بأنه يستقبلها كأنها يد تستغيث به وتستجديه . . فإذا تحدث كان حديثه كله دروسا ونصافح كأنه هو الذى أصبح أستاذاً وأنا التلميذة الفاشلة الغبية التي لا تساوى أكثر من صغر . .

وقاومت . .

قاومت نفسى حتى أظل محتفظة بشخصيتى المغرورة . . ./

ولكن . .

لا أمل . . لم تعد هناك وسيلة للاحتفاظ بهذه الشخصية إلا أن أنعزل بها . . انعزلت عن كل الناس الغرباء وقد أصبح كل من ليس لبنانيًّا غربياً عنى لا يعيش إحساسى ولا يتكلم لغتى ولا يفهمنى . . حتى أنت . . وكانت خطاباتك تصلنى فأقذف بها بعيداً وأنا أحاول أن أقنع نفسى بأنى أتعالى عليك . وعندما تتحدث فى التليفون أنكر نفسى عنك كأنى أرفضك ، لعلى بهذا التعالى والرفض أستطيع أن أحس بأنى مازلت محتفظة بشخصيتى المغرورة ، وإن كان الواقع هو أنى كنت أخاف هذه الخطابات وهذه المحادثات التليفونية لأنى أعلم أنها لا تحمل إلا مجموعة من النصائح التافهة والاقتراحات الفارغة التى تشبع بها إحساسك بأستاذيتك وترضى بها شهوة الشماتة بي . .

وضاعت كل أمواله ، ورغم ذلك بني في مصر وبقيت وإيفيت، معه ، تحاول أن تغطى حرمانها بأن تكتسب صداقة بنات وأولاد الطبقة المصرية الجديدة كما حاولت أن تكتسب صداقتي عندما جاءت إلى بيروت بصحبة بعض صديقاتي المصريات ... * ولا تدرى ماذا فعلت لايفيت . . إنى منذ اليوم الأول أقمت من نفسى أستاذة عليها بحكم غرورى بنفسى ، وبدأت أقدمها لمجتمعات بيروت الراقية . وحتى تشرفني في هذه المجتمعات كنت أشترى لها الفساتين ، وأعطيها من عندى الجوارب وأدوات المكياج ، وأرسلها إلى حلاقي الخاص ليساوي شعرها ويرسل لى بفاتورة الحساب . . وكانت هي تقدر كل ذلك وكانت حريصة على أنْ تحتفظ لى بغروري ... وضعت نفسها كسكرتيرة لى . . دائماً تتأخر على بخطوة إلى الوراء ونحن ندخل أي مجتمع . . وقد تدهش لإحساسي بقيمة هذه المظاهر رغم أنى فتاة مازلت في الثانية والعشرين من عمري ولا يهمني أن أتظاهر بسكرتيرة أو بدلدولة تسير خلفي . . ولكن هكذا أنا . . أو ربما هكذا لبنان . . الغرور الحضاري . . أو ربما كانت هذه هي عقدة اللاشيء . . فإن اللاشيء يتظاهر بأنه شيء . . ونحن لا شيء . .

ولا شك أن إيفيت حققت نجاحاً فى مجتمع بيروت . . ولأنها مسيحية فقد تخاطفها الشبان المسلمون . . فهذه هى أيضاً عقدتنا فى لبنان . . الشاب المسلم يهمه أن يستولى على فتاة مسيحية ، والشاب المسيحى يهمه أن يستولى على فتاة مسلمة . . مجرد شهوة طائفية . .

وكانت إيفيت حريصة على أن تقدم لى كل يوم تقريراً عن كل علاقاتها مع المجتمع أو مع أى شاب . . كأنها تستأذنني ، أو كأنها تفنعني بأنها لا يمكنها أيداً أن تستغنى عنى . . وكانت دائماً تأخذ بنصائحي . . كنت أطلب منها أن تعتدد

ر دعوة ، فتعتذر ، أو أنصحها بأن تقاطع شابًا من الشبان فتقاطعه . . وكان ط ذلك يجرى فى إطار من الصداقة الحلوة وإن كان فيه ما يرضى غرورى ومد أبضاً ما يدفعني إلى الاستمرار في تحمل مسئوليتها . .

إلى أن تعرفت أيفيت بشاب من أثرياء الصدفة - أقصد أثرياء البترول - استمرت في هذه الصداقة مع موافقتي إلى أن عرض عليها أن يأخذها معه ال شواطئ الريفييرا ونصحتها أن تقبل بعد أن قضيت ليالى أشرح لها كيف يمكن أن تحتفظ به إلا إذا احتفظت بشيء لم يأخذه منها . . أنا المغرورة . . أنا المغرورة . . أنا المغرورة . .

وسافرت إيفيت وبقيت حريصة على أن تكتب لى . . إلى أن بدأت الأحداث في لبنان . . حدث كل هذا الذي حدث . . وبدأت نوبة الضياع وفقدان النفة في نفسي تزحف على صدري ، وفكرت أن أسافر إلى أثينا في اليونان لأرتاح . . وكنت أعلم أن الفقيت هناك . . لم أقرر السفر إلى أثينا لأنها هناك بل لأنى تعودت أن أرتاح هناك . . أي أنى لم أكن في حاجة إلى إيفت . . لا يمكن أن أحتاج إلى أبداً . . ولكن لأنها هناك فقد شرقتها بأن أرسلت لها برقية بموعد وصولى . . الوصلت أثينا ، ولم أجد إيفيت في انتظارى ، ولكنى وجدت سائق سيارة يحمل لافتة مكتوباً عليها اسمى ويطوف بها بين الناس . . إن إيفيت لم تأت لاستقبالى ولكنها أرسلت لى سيارتها . . ما شاء الله . . والله عال يا ست إيفيت . . ورغم ذلك من السيارة وأنا أقول للسائق في لهجة أحاول أن أعبر بها عن كل غرورى ،

– أوتيل هيلتون . .

وقال السائق في برود :

- السيدة تنتظرك في البيت . .

الأسلوب الذي تعودت أن أحادثها به في بيروت :

- المهم . . كيف حالك مع صديقك . ، احكى لى بالتفصيل . .

وقالت وهي لا تزال واقفة أمامي كأنها أستاذتي :

ليس هذا مهماً . . المهم هوأنت . . إننا سنقيم فى أثبنا مدة طويلة . . و . .
 وقاطعتها فى حدة :

- لن أقيم هنا إلا بضعة أيام . .

قالت في دهشة :

- ثم إلى أبن ؟

: قلت

– العودة إلى بيروت طبعاً . .

قالت كأنها تصرخ:

- هل أنت مجنونة . . بيروت انتهت . . صدقيني . . دبرى أمرك من اليوم واتركى لبنان . .

فقلت وأنا أنتفض أمامها :

ونظرت إلىِّ وبين شفتيها ابتسامة ساخرة تفضح شماتتها :

– أعتقد أن كل شيّ تغير . .

وخطوت نحو الباب كأنى أجرى منها قائلة ؛

يا سلام سلم . . جناب السيدة إيفيت تنتظرنى فى بيتها . . ولا أدرى لماذا سكت وقبلت . . ربما تغلبت على عقلية الدبلوماسية اللبنانية . . عقلية إدارة الأعمال . . أن تأخذ كل زبون وفقاً لشخصيته . .

واستقبلتنى إيفيت وفى عينيها نظرة كأنها تستقبل بها فتاة مسكينة فقيرة مشردة . . خيل اليها أنها نفس النظرة التى استقبلتها بها أنا عندما جاءت من مصر وهى مسكينة فقيرة مشردة . .

وقبلتنى إيفيت كأنها تقبل صديقة مريضة راقدة على سرير فى المستشفى . . أو ربما كانت قبلة أشبه بالبقشيش تحسن به على فتاة شحاذة . . وقالت وهى تبتسم لى ابتسامة ضعيفة خيل إلى أنها محاولة فاشلة لمداراة شهاتها فى :

كنت أنتظرك من مدة . . وقد خصصت لك غرفة في البيت . . قد لا تكون على قدر غرفتك في بيروت ولكنها على الأقل غرفة في بيت . .

قلت وأنا أنظر إليها في دهشة :

- لقد حجزت في الهيلتون . .

قالت كأنها أصبحت مسئولة عني :

لاذا الهيلتون . . كونى واقعية . . وأقيمى معى هنا . . وقد دبرت لك
 كل شيء . .

قلت وقد بدأت أواجهها في سخط وتحد :

– أفضل الهيلتون . .

قالت وهي تنظر إلى في تعجب :

- لا تكوني عنيدة . .

وابتسمت كأنى أخفف عن نفسي ألم الجرح وقلت محاولة أن أحدثها بنفس

ا أنت . .

إنى لا أكب لك لأنى فى انتظار رأيك ولا استجداء لمواساتك ، ولكن لأنى فقط تعودت أن أرتاح وأنا أكتب لك ، وأحس وأنا أطلعك على أسرارى كأنى ألتى بها فى بثر لا قرار لها . ولكن . هل يمكن أن يكون فى لبنان كله ما يسعى سرًا . . لا أظن . . إن المجتمع اللبنانى عندما قرر التعامل مع الواقع مهما كان مضمون هذا الواقع ، أراح نفسه من ثقل الأسرار . . ولكن الأسرار لها طعمها ولذتها وكنت أتمنى دائماً أن يكون لى سر . . ولأنى لا أجد لى سرًا فى لبنان فقد كنت أكتب إليك لمجرد إقناع نقسى بأنى أبوح بسر لرجل غريب يعيش بعيش عني . . .

وحكايتي مع طوني منذ بدأت لم تكن سراً في لبنان حتى لونظاهرت أمامك بأنها سر خطير أطلعك عليه . .

أنا مسلمة . . وهو مسيحي . . ماروني . .

وعائلتى تقيم كما تعلم - أو كانت تقيم - فى حى الأشرفية . . حى الأغلبية المسيحية . . ثلاث عائلات إسلامية فقط تقيم فى شارعنا والباقى عائلات مسيحية معظمها مارون . . ولم يكن لذلك أى أثر فى مجتمع حى الأشرفية . . أو على الأقل بين العائلات الكثيرة العنية فى الأشرفية . . كانت أعز صديقاتى هى عايدة بهى مسيحية من الروم الارثوذوكس وتسرين وهى مارونية وفاتيما وهى بروتستانت . . و . . كنا دائماً معاً وسهرات البيوت تجمعنا كلنا . . نرقص معاً . . ونضحك معاً . . ونضحك معاً . . ونضحك . . وه . . وقد تتنافس مسلمة وسبيحية على رجل واحد . .

ولم أعرف طوفى وأنا صغيرة ، ولم يكن من أبناء الجيران ، ولكنى التقيت به منذ عامين فقط خلال حفل ساهر أقامته إحدى عائلات الحيى . . وفي خلال - سأذهب إلى الفندق . . اتصلي بي هناك . .

قالت وهي تجرى وراثي :

- انتظرى . .

ومدت إلىَّ يدها بكمية من النقود اليونانية ، وهي تقول :

- كنت قد دبرت كل شيء على أن تقيمى معى . . بل إنى اشتريت لك ثويين وحذاءين وأنا أعرف مقاسك . . ولكن ما دمت عنيدة وتريدين الإقامة في فندق فقد تكونين محتاجة . . .

وأمسكت النقود بين أصابعي كأني أتحسس مجموعة من الديدان السامة ، ثم ألقيت بها في وجهها بعنف وأنا أصرخ :

– قلت لك أن لا شيء تغير . .

ونزلت أجرى على السلم وأنا أغلى بالثورة في داخلي . .

العودة دائماً إليها . . إلى بيروت . .

أسابيع أحس كل منا كأنه مرتبط بالآخر إلى الأبد . . ولم تمض شهور إلا وكنت قد قررت أنى لن أتزوج إلا طونى . . كان المجتمع قد بدأ يستسلم لحبنا ولم يبق إلا الزواج . . وليس هذا جرماً في المجتمع اللبناني . . مسلمة تتزوج مسيحياً . . حتى لو تزوجت السنة بالمارون . . وابنة زعيم لبنائي مسلم متزوجة من مسيحي سويسرى . . وابنة زعيم إسلامي آخر متزوجة من مسيحي فرنسي . . وكبير قضاة لبنان المسلم متزوج من مسيحية لبنانية . . وأحد أصدقائك مسلم متزوج من عائلة مسيحيــة معروقة ، وصديق آخر مسيحي ماروني تزوج من مسلمة ، وابنة مؤسس دولة لبنان المسلم اعترف المجتمع اللبناني بحبها المسيحي وأصبح يستقبلهما على أنهما خطيبان رغم أنهما لم يعلنا خطبتهما ولا قررا الزواج ... ليس غريباً في المجتمع اللبناني أن يتزاوج المسلمون والمسيحيون . . ولم يكن غريباً أن أقرر الزواج من طونى . . ولكن التقاليد في لبنان ترفض أن توافق العائلتان على هذا الزواج . . ثم يتركان للاثنين حرية التصرف . . فإذا أعلن المسيحي إسلامه ليتزوج من مسلمة فرحت العائلة المسلمة وأقامت حفلاً صاخباً كأنها تعلن انتصارها بالاستيلاء على مسيحي وضمه إلى حظيرة الإسلام . . أما إذا راعى الاثنان عدم جرح عائلتيهما فإنهما يسافران إلى قبرص ويتزوجان هناك زواجاً مدنياً ، ويعودان زوجين لايلبث المجتمع كله بما فيه عائلناهما أن يعترف بزواجهما . .

وكان فكرى يتجه إلى أن أنزوج طونى زواجاً مدنياً لا لأنه رفض اعت الإسلام حتى يتزوجنى ، ولا لأنى رفضت اعتناق المسيحية لأنزوجه . . لا كان تفكيرى قائماً على اقتناع . . قائم على الارتفاع فوق الطائفية الدينية والإسلام – فى اقتناعى – حرم على المسلمة الزواج من غير المسلم كه.

لنشر الدعوة .. نشر الإسلام .. من يريد مسلمة فليسلم .. والإسلام في لبنان لم يعد في حاجة إلى دعوة ، فقد أصبحت أغلبية الشعب اللبناني مسلمة ، والمسيحبون يدخلون في الإسلام أفواجاً على الأقل حتى يحصلوا على حق الطلاق من زوجاتهم المسيحيات .. ثم إنى أستطيع تقرباً إلى الله وتكفيراً عن أنانيتي أن أجعل من أولادي وأولاد طوني مسلمين .. أفراداً في طائفة الإسلام .. إني وائقة أني أستطيع ..

ولم يكن كل ذلك يعنى أننا سنتزوج اليوم أو غدا . . فطوق لا يزال فى الخامسة والعشرين من عمره ورغم أنه من عائلة مارونية ثرية إلا أنه لا يزال فى حاجة إلى وقت حتى يقيم لنفسه شخصية مستقلة ويستطيع أن يتزوج حتى لو تحدى أهله . ليس قبل أن يصل إلى الثلاثين . . ورغم ذلك لم يكن التخطيط للزواج يتوقف بيني وبين طوق . .

إلى أن بدأت الأحداث . .

وقد بدأت وكأن لا شيء يمكن أن يحدث . . مجرد تعير عن الرأى بطلقات الرصاص . . وفي كل يوم كنا نؤكد عن إيمان بأن كل هذا سينتي غداً . . إن من طبيعة الشعب اللبناني التفاؤل ، وكان تفاؤل كل طائفة يجعلها تتصور أنها ستنتصر غداً . . ولكن لا شيء ينتي . . وشوارع الأشرفية تزدح بالشبان المسلمين ، وكنت أعرف أنهم من أفراد الكتائب أو من أفراد حزب شمعون، ولكني عندما كنت ألحهم في الطريق كان يحيل إلى أنهم غرباء . . رجال آخرون غير رجال لبنان . . هذه النظرة التي يتطلعون بها إلى لم أصادفها أبداً من قبل . . وهذه الشفاه المقلوبة التي تكاد تطلق بصفة على وجهى لا يمكن أن تكون شفاها لبنانية . . وبدأ إحساس جديد يسيطر على كلما خرجت إلى

الشارع . . إحساس الخوف . . إننا لم نتعود الخوف في بيروت . .

والأحداث تزداد بشاعة . . القتلي يسقطون في حينا . . حي الأشرفية . . ورغم ذلك لم أكن أريد أن أعترف أو حتى أتصور أنها معركة بين المسيحيين والمسلمين . . إنى مازلت أتزاور وأتحدث في التليفون طول النهار والليل مع صديقاتي المسيحيات . . وعندما يسقط أحد المسلمين قتيلاً نبكي عليه كلنا وعندما يسقط مسيحي فربما يشتد البكاء أكثر لمجرد أنه يمثل أغلبية الحي . . ثم طونی . . إنه لا يزال حبيبي وسيبتي حبيبي . . بل إن أمي بدأت تتعلق به وتكف عن رفضها له ، ربما لأنها أرادت أن تتخذ منه حماية لنا داخل الحي . . . مسيحي في بيتنا فلا يمكن أن يعتدى علينا المسيحيون . . ولكننا لم نكن نستطيع أن نستمر في خداع أنفسنا أو التعلق بارتباط السنين الطويلة مع جيراننا المسيحيين . . والمارون بالذات . . وصمم والدى على أن نترك الأشرفية . . أن نهاجر إلى حي آخر نحتمي فيه ونعيش فيه كمسلمين مع مسلمين , . و ربما كان ما يدفع والدى أكثر إلى الهجرة من الأشرفية هو خوفه على أخى ياسر. . إن أبى نفسه هادئ عاقل يستطيع أن يتصرف بحكمة مع الأحداث . . وأنا وأختى وأمي لا خوف علينا . . لا يمكن أن يصل الاعتداء إلى النساء.. ولكن أخى ياسر ، رغم عدم انتهائه إلى أى تنظيم من التنظيات المتقاتله إلا أنه شاب. . وهو جرىء . . يهوى أن يعرف ويجرب كل شيء بنفسه . . ومن يدرى . . لعله فى خطوة يضيع . .

واستسلمت للهجرة بعيداً عن الأشرفية وبعيداً عن حبيبي طونى من أجل

وكانت هذه هى الأيام التى سافرت فيها إلى البونان لأستربح كما رويت لك . . وقد عدت بعد أسبوعين . . ولم أصدق أذنى بما سمعته . . لا يمكن أن يحدث

كل هـذا . . ويحدث في لبنان . . إنهم لا يكتفون بالقتل . . إنهم يشوهون قتلاهم . . يمزقونهم قطعاً . . وهم يعتدون على البيوت . . يسرقون ويدمرون . . كلهم . . كلهم . . ليسوا مسحيين ولا مسلمين . . كلهم . . كلهم وصدقني أن الإحساس الذي كنت أعيش فيه هو أن كلهم ليسوا لبنانيين . . ولا حتى سنة ولا شيعة ولا دروزا، ولا مارون ، ولا روم أرثوذوكس ، ولا كاثوليك ، ولا بروتستانت . . ولا . . ولا . . إنهم ناس غرباء لا نعرفهم . . جيوش جاءت من الخارج واحتلوا مناطق محددة يتحاربون فيها ، بدليل أن خارج هذه المناطق كل شيء هادئ . . إن أبي يعارس عمله . . وأخي يطير من بيروت إلى الكويت ليباشر عملياته هناك ثم يعود في اليوم التالي . . وأمي لا تزال مهتمة بالشخط فى أم نعيمه حتى تجيد تقديم اللبنه والكبه . . وأختى تنتق ثوبها الذي ستزور به صديقتها . . أنا وحدى التي ستجن . . لقد اعتدى الغرباء على بيتنا في الأشرفية وكنا قد تركنا فيه أثمن ما يملكه بيت . . تركنا الكثير لأننا كنا نتصور أننا لن نغيب إلا أياماً . . السجاجيد العجمي ، وقطع الأوبالين ، وقطع من مجوهراتنا ، وكل قطع ذكريات صباى وشبابي بما فيها السلسلة المرصعة بالفيروز التي كانت أول ما أهداه لى طوني . . وكل العائلة استسلمت لهذا الاعتداء . . استسلموا لفقدان بيتنا . . أبي يحمد الله على أنه لا يزال يحتفظ بحياته . . وأخى يبصق على الأرض ويؤكد أنه سيشترى لنا أكثر مما ضاع منا ، وأمى بكت أباماً ثم استطاعت أن تتناسى . . أنا وحدى المجنونة . . أعيش كأنه لن يكون لنا أبدأ بيت بعد بيت الأشرفية . . إن طوفي يستطيع أن يعيد لي بيتي . . إنه هناك في الأشرفية . . ويستطيع أن يعيد لي البيت . .

ومنذ وصلت وأنا أبحث عـن طوني ولا أستطيع أن أجده . .

لم يعد أمامى إلا أن أذهب بنفسى إلى الأشرفية . . إلى بيتنا . . إنهم يعرفوننى هناك ولن يعتدوا على . . ثم إلى فتاة . . من يعتدى على فتاة عزلاء حتى لو كان من هؤلاء الغرباء الذين يتقاتلون . .

ولم أقل إلا لأمي . .

وصَّرَخِتَ أَمَى . . يا مجنونة . . إنهم سيقتلونك . .

ولكني مصممة . .

سأذهب إلى الأشرفية . . إلى بيتنا . . إن طونى هناك وسأكون في حمايته . .

وخوفاً من أن تلجأ أمى إلى أبى ليحول بينى وبين الأشرفية ، جريت من أمامها إلى الشارع ، وإذا بها نجرى وراثى وتلحق بى ، ثم تمسك بيدى وتسير بجانى وتقول وهى تقاوم دموعها :

– سأذهب معك . . ربنا يستر . .

وركبنا سيارة أجرة . . وأمى لا تسكت عن ترديد آيات القرآن التي تحفظها . . ووقفت السيارة عند منطقة رفض السائق أن يتعداها . . ونزلنا إلى الشارع . وأمى قد توقفت عن ترديد القرآن ، ولمعت عيناها لمعاناً غريباً كأنها مقبلة على معركة تتحدى بها القدر . وبدأت تخطو بجانبي كأنها أقوى منى . . منصوبة القامة تدق بقدمها على الأرض . . .

إننا نجتاز عرض الشارع الذي يفصل بين المنطقتين المتقاتلتين . . اجتزنا أكثر

من نصف الشارع . .

وفجأة . .

انطلقت رصاصة . .

ونظرت حولي في دهشة كأني أتعجب ثم صرخت . . إنها أمي . . تترنح . .

وتسقط . . وسقطت فوقها . . ماتت . . قتلوا أمى . . وفوق رأسى رجلان . . . لا أستطيع أن أمير وجهيهما . . ربما كانا من أبناء الأشرفية ، ولكن في هذه اللحظة كنت أراهما من خلال غمامة كثيفة تعميني . . وسمعت صوت أحدهما يسألني ساخراً :

- هل هي أمك ؟

وتركت جسد أمى ووقفت أمامهما صامتة . . تائهة . . وكل خلجة منى قد شلت . . وعاد الرجل يقول وكأنه يضحك :

- خساره . . كان المفروض أن تكوني أنت . .

وقال الرجل الثانى :

- اتركها . . سنأخذها معنا . .

وقال الأول :

– انتظر حتى نعطيها ذكرى أمها . .

وانحنی علی جثمان أمی ، وأخرج سكيناً قطع به أذناً من أذنيها . ثم اعتدل ووضع أذن أمی فی یدی وهو یصبح مقهقها :

- هدية من أمك . . حتى لا تنسى . .

وأطبقت يدى على ما وضعه فيها وقطرات من الدم تسرى بين أصابعي . دم أمي . . وفجأة ظهر رجل ثالث يجرى نحونا وهو يصيح . .

مستحيل ...

إن الغمامة تنزاح من أمام عيني وأستطيع أن أراه . .

إنه طونی . . حبيبي طونی .

وفوق كتفه سلاح ...

- الكلاب . .

ثم انحنى فوق جثة طونى وقطع إحدى أُذُنبِه وَالقَاهَا بِعِيدًا ثُمَّ أَخَذَ بَمْزَقَ فَى بَقَيَّةً .

وانحنيت والتقطت أذن طونى . . وضعتها مع أذن أمى في يد واحده . .

يا أنت . .

لا تحاول أن تكتب لى كأنك تعتقد أنى أسألك رأبك . . رأبك لا يساوى عبيناً . . أنا لبنانية وكل لبنائى ليس فى حاجة إلى رأى أحد . . وقد كتبت لك لمجود أن أستربح ثم ألتى بما أكتبه فى سلة المهملات . . آسفة . . لا أقصد أنك سلة مهملاتى . .

وسأعود . .

ولن أنسى

إنه واحد منهم . . وصرخ : - سمة

ولف ذراعه حول كتنى وأخذ يصرخ فى وجه الرجلين . . كلاماً لا يهمنى أن أسمعه أو أفهمه . .

ثم صرخت . . وصرخت . . وصرخت . . وجذبت نفسي من تحت ذراع طوقی وجریت عائدة إلى الناحیة التي جثت منها . . وطوفی بجری و راثی وهو بصرخ ،

- سميرة . . يا مجنونة . . انتظرى . . سأقول لك . . و . . ولحق بى . . أحسست بيده وقد أمسكت بكتنى . . وفجأة أنضاً . .

انطلقت رصاصة . .

وسقط طونی . . وسقطت بجانبه . . توقفت أنفاسه . . لقد قتل . . كأمی . . ولكنی لا أحس شيئاً . . لم يعد فی ما أحس به . . راقدة بجانب جثة حبيبی الذی ولكنی لا أحس شيئاً . . لم يعد فی ما أحس به . . راقدة بجانب جثة حبيبی الذی قتل أمی . . والطلقات تشتد بین ناحیتی الظریق وكلها نمر فوق رأسی . . كم مضی . . ساعة . . ساعتان . لا أدری . . وتوقف إطلاق النار . . ورأیت رجلاً يزحف ناحيتنا ثم يعود وهو يشد وراءه جثة طونی . . وإنسان آخراقترب وحملنی بین زملائه . . إنهم يسألوننی و يطمئنون إلى أنی منهم . . وعندما تعجبوا لأنی جازفت بعبور هذا الشارع بصحبة أمی ، قلت : — كنا عائدين إلى بيتنا فی الأشرفية . .

ونظروا إلى كأنهم يشفقون على مجنونة . . ولمح أحدهم أذن أمى التي كنت لا أزال مطبقة عليها بأصابعي وصرخ : 🎇 العذراء والشعر الأبيض 💥

المرابع المراب notice you was a supplied that the ball and the second of the parties of

إن صرختها لا تزال تملأ أذنيه :

ر سرم ، رق عدد . - أنت لست أبى . . كن صريحاً مع نفسك وخذنى كما أنا . . وأنا لست

إنها صرخة تتردد كأنها صدى صوت القدر يزفه إلى مصيره كل ليلة قبل

قبل أن ينام معها . .

ويصحو كل صباح وينظر إلى عينيها المغمضتين فوق وجهها الصغير ويبتسم ابتسامة تحمل كل أحاسيسه المتناقضة . . تحمل السعادة بنفسه والخجل من نفسه ، والسخط على نفسه . .

وتعود الصرخة تدوى في خياله :

- أنت لست أبي . .

ولكن . .

واتسعت ابتسامته وقد امتلأت بالسخرية من نفسه حتى كادت تنقلب إلى قهقهة مرة ، وعاد فيلم الذكريات يطوف بخياله . . الفيلم الذى يعود ويتردد كلما خلا إلى خياله ، دون أن يستطيع أن يقاوم الاستسلام له . .

كان لا يزال في بداية شبابه . . في السادسة والعشرين من عمره . . وكان قد انقضى على زواجه من (دولت) أربع سنوات . . إن دولت تكبرة سناً بنلاث سنوات وقد أحبها وهي زوجة رجل آخر ، وربما كان أقوى ما في هذا الحب هو نشوة الاستيلاء عليها . . النشوة التي ترضى غرور كل رجل يصل إلى زوجة رجل آخر . . ولكن دولت لم تتركه طويلاً يتمتع بهذه النشوة . فقد استطاعت بعد عام واحد من لقائهما أن تطلق من زوجها وأصبح من الطبيعي أن يتزوجها ، وقد دفعه إلى الاستسلام للزواج الجانب الآخر من حبه لدولت . . جالب الأعتاد عليها ، فمئذ أن التق بها وهو يعتمد عليها ، وهي من الشخصيات التي تعبر عن العب بالعطاء . . كانت تعطيه كثيراً . . وهو لم يكن قد بدأ في بناء نفسه بعد ، كان قد تخرج في نفس العام من كلية التجارة ، وكان يقبم وهو طالب في غرفة من بنسيون في أطراف الجيزة ، وكان بعيش على ما ترسله له عائلته المقيمة في طنطا . . ليس غنياً ولكنه أيضاً ليس محتاجاً في حدود المستوى المتواضع الذي يعيش فيه . . ولكن دولت بدأت تعطيه ونقلته من غرفته فى الجيزة إلى غرفة فى بنسيون بشارع متفرع من شارع قصر النيل . . وقد حاول أن يرفض . . إن إيجار غرفته في الجيزة تُعانية جنيهات وهذه الغرفة الجديدة التي اختارتها دولت إيجارها خمسة عشر جنيهاً لا يستطيع أن يدفعها . . وحاولت دولت أن تقنعه بأنها ستنحمل عنه دفع الإيجار . . إنها غنية ورثت عن أبيها ، وزوجها يعطيها

كثيراً ولا يدقق فى الحساب . . ولكنه رفض . . إنه يرفض التنازل عن اعتزازه بنفسه وإحساسه بأن الرجل هو المسئول عن المرأة التى يملكها . . ولكن دولت تلح وهى فى حاجة إلى هذه الغرفة الجديدة أكثر من حاجته هو إليها فإنها تستطيع أن تصل إليه فيها دون أن يكشف سرها أحد . فالعمارة كبيرة فى منطقة تجارية ومن يراها ذاهبة إليه يمكن بسهولة إقناعه بأنها فى طريقها لأن تشترى بعض المشتريات أو فى طريقها إلى الدكتور أو الخياطة اللذين تضمهما نفس العمارة ، أما الغرفة التى يقيم فيها فى الجيزة فهى فضيحة ، لا أحد يراها ذاهبة إليه إلا ويصب عليها نظرات اللعنة ، وأصحاب الشقة أنفسهم رغم أنهم سكنوا نظير الهدايا التى تحملها إليهم كل مرة ، ورغم أنه قدمها إليهم على أنها ابنة عمه إلا أنهم يستقبلونها كل مرة كأنهم يشلحون عنها ثوبها ليروا من تحته ما يراه محمد . . وقد اقتنع محمد بهذا المنطق ورضى أن ينتقل إلى الغرفة الجديدة على أن يظل يدفع الثانية الجنبات التى تعود أن يدفعها وتدفع هى الباقى . .

وضحكت دولت قائلة . .

- لا . . النصف بالنصف . . كل منا يدفع سبعة جنيهات ونصفاً . .

ولكنها كانت تدفع كثيراً واستسلم بلذة وغرور إلى ما تدفعه .. نصف ثيابه أصبحت هدايا تقدمها له ، والساعة التي يتباهى بها أمام أصدقائه ، والقلم الذي يكتب به ، بل إنها تحملت مسئولية حياته الخاصة كأنها أصبحت زوجته ، رغم أن فكرة الزواج لم تكن تخطر له على بال ولم يكن يعتقد أنها هي نفسها يمكن أن تفكر في أن تتزوجه . . فهي زوجة رجل محترم ناجح يوفر لها اجتماعيًا وماديًا كل ما تحلم به أي امرأة . وكان يعتقد أن كل ما بينهما هو ذلك النوع من الحب الذي لا يشمل كل شئ ولكنه يغطى جانباً من النقص

الذي يشعر به كل من الطرفين . . شيء ينقصها يعطيه له . .

إلى أن فوجئ بأنها طلقت . . ولم يسبق طلاقها أية مقدمات أوحديث عنه بينهما . . مفاجأة صارخة بالنسبة له خصوصاً وأنه لم يكن قد مضى على زواجها أكثر من أربعة أعوام ، ولم يكن قد مضى أكثر من عام واحد على لقائهما ، وخصوصاً أنه تأكد من أنها هي التي طالبت بالطلاق . . وكل ما قالته له أن أبلغته بطلاقها :

- إنى لا أستطيع أن أعيش لرجلين . .

وكان من الطبيعي أن يفكر في مصيره معها . . هل يتزوجها ؟ وقبل أن يقرر كانت هي قد بدأت تشير بأسلوبها الهادئ الناعم إلى الزواج . . هل كانت تنتظر أن يتخرج في الجامعة ويبدأ حياته العامة حتى تطلق وتطالبه بالزواج . . لا يدرى . . بل لا يدرى ماذا تجد فيه مما يغريها بالزواج منه حتى لو كان فيه ما يغريها بحبه ، فهو لا يستطيع أن يوفر لها الحياة التي كان يوفرها لها زوجها الأول . . لا الحياة الاجتماعية ولا الحياة المادية . . إنها تتزوجه وهي تعلم أنها ستعطيه أكثر مما تأخذ . . لا يهم . . هذا ما تريده . .

واستسلم للزواج بلا حماس وبلا اقتناع تام ، وتركها هي تتحمل مهمة اتخاذ كل الإجراءات . . هي التي قدمته لأهلها ، وهي التي اختارت بينهما ، وهي التي قامت بتأثيثه وهي التي اختارت المأذون وهي التي تولت دعوة أقاربها واكنني هو بأن يتولى دعوة أبيه وعائلته كل هذا لم يأخذ شيئاً من فكره ، فقد كان قد بدأ يفكر في بناء نفسه . . في أن يعمل . . وكان يكوه أن يكون موظفاً في الحكومة فبدأ يسعى بين شركات المقاولات ويحاول أن يكسب علاقات وصداقات مع رجال الأعمال وأهمهم رجال وكالة البلح . . وحتى بعد أن أصبحا

رُوجِينَ فعلاً لم يحس أن هناك شيئاً جديداً يجمعه بها ، فهى ليست غريبة عنه ، وليس فيها شيء جديد ، وما تقدمه له بعد الزواج هو نفسه ما كانت تقدمه له قبل الزواج . . الاهتمام بكل شيء ومسئولية كل شيء ، كل ما أضافته هو أنها بدأت تفتح أمامه أبواباً اجتماعية جديدة كان في حاجة إليها وساعدته كثيراً في بناء نفسه . .

ومنذ الليالى الأولى من الزواج أحس بأن هناك شيئاً تريده وتسعى إليه دون أن يبدو ما هو ، إلى أن انقضى أكثر من شهور عندما قالت له يوماً :

- كل ما ينقصنا اليوم يا محمد هو أن تخلف . . أن أكون أماً وأن تكون أباً . .

نفسى فى بنت يا محمد ...
ولم يهتم بما تريد فهو نفسه لا يحس بأنه يريد أن يكون أباً ، بل يكره أن يكون أباً لبنت أو ولد إنه لا يزال فى مقتبل شبابه .. كل ما يريده هو نفسه .. ومرت الشهور .. وبدأ يلاحظ أن دولت تتردد كثيراً على الأطباء وتتبع إجراءات غرية عليه فى علاج نفسها إلى أن صارحته بأنها تذهب إلى الأطباء لتحمل وتلد ، ثم فاجأته يوماً بأن طالبته بأن يذهب إلى طبيب ليتأكد هو الآخر بأنه يستطيع أن ينجب ، وصرخ فى وجهها .

أن نسب خلفتهما إلى زوجها الأول أو تتبع أى أسلوب آخر مما نسمع ونقرأ عنه من أساليب . . وتذكر أنها قبل أن يتزوجا كانت حريصة كلما جاءت إليه على اتباع كل إجراءات منع الخمل ، ربما لأنها لم تكن تريد أن يكون لها مولود احرام ا، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعترف بأن النقص فيها هي . . هي امرأة ناقصة . . امرأة لاتنجب . . امرأة عاقر . . ولم يكن هناك ما يمكن أن يغطى عقدتها إلا أن تتظاهر بتعاطى وسائل منع الحمل . . أو تنهم زوجها الأول بأنه هو الناقص . . ثم تلح على زوجها الثاني بأن يذهب إلى طبيب . .

وذهب إلى الطبيب مرضاة لها وتحت ثقل إلحاحها . .

وكان يتعنى أن يثبت عليه الطبيب أنهاقر لا ينجب ، فهو فعلا لا يتمنى ولا يحب أن يكون أبًا . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا يحب أن يكون أبًا . . قد تكون هذه أنانية منه ، ولكنه مقتنع بأنه لا هو ولا العالم كله في حاجة إلى مولود آخر , وقد أكد له الطبيب أن رجولته طبيعية وأنه لا شك قادر على الإنجاب ورغم ذلك فقد ألح عليه أن يكتب له أى نوع من الدواء حتى يعود إلى دولت وكأنه هو الذى في حاجة إلى العلاج ، لعلها تهدأ . . وقد فرحت دولت وقلت عندما عاد إليها وفي يده زجاجة دواء . وأصبح هذا الدواء أهم وأغلى ما في البيت بالنسبة لها ، وتناوله له في اهتمام مبالغ فيه كأنها تنقذ به حياته وحياتها . . ومع ذلك فلا شك أن دولت كانت تحس أنها تدارى عقدة في داخلها . . عقدة المرأة العاقر . . فهي تعلم منذ سنوات زواجها الأول أنها لا تنجب ولكنها لا تر يد أن تعرف بنقصها ولا تر يد أن تبحث عن حياة تغنيها عن أن يكون لها أولاد وبنات ، وكانت تتعمد أن تذهب إلى الطبيب سرًا دون أن تخبر حتى زوجها ، أولاد وبنات ، وكانت تتعمد أن تذهب كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز وقد عرض عليها أحد الأطباء أن يجرى لها عملية جراحية ولكنها وفضت حتى لا تفضح أمرها ، وكانت تعطى كل ذلك بالتحدث باستمرار عن عجز

وجها عن الإنجاب ثم كبرت الكذبة في خيالها حتى بدأت تفكر في أن لطلق زوجها فعلاً بحجة عجزه . . وقبل أن تبدأ في الطلاق من زوجها الأول عرفت محمد . إنه زميل لابن عمها في كلية التجارة وأصبح صديقاً لأخيها ، وقد شعرت منذ رأته بأحاسيس كثيرة تشدها إليه . وقد كانت تستطيع أن تقارم هذه الأحاسيس . إنه لا يزال في نضارة شبابه وهو يبدو كأنه ربني لا يزال بخيره وبكل قوته لم تستنزفه بعد حياة المدينة . . من يدرى ربما كانت تستطيع أن تنجب منه . . هذه العقدة هي التي دفعتها إليه وإلى محاولة الاستيلاء عليه . . ورغم ذلك فعندما استولت عليه كله . وأعطته كل شيء كانت حريصة على أن تفرض عليه وعلى نفسها إجراءات منع الحمل لأنها لم تكن تريد أن تعترف خي أمام نفسها أنها لا تحمل ، أو لأنها لا تريد أن تشعره بعجزها عن الحمل ، أو ربما لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأمل . . وكانت حريصة ألا تجرب هذا الأمل إلا في المحلل . .

هذه المشكلة التى تعيشها دولت بكل فكرها وأعصابها وبكل وجودها ، لم يكن محمد يعيشها أبداً رغم أنها كانت تذكره بها بحرصها على تقديم الدواء الخادع له . . كان كل فكره وإحساسه ونشاطه ينحصر فى بناء عمله . . وقد بدأ ينجح بسرعة وبدأت أرباحه ترتفع إلى أن قارب أن يكون فى مستوى ثراء زوجته ، وكان قد مر عامان على زواجه عندما قرر أن يسافر إلى لندن للاخول فى صفقة جديدة ، وفوجئ بأن دولت تصر على أن تسافر معه . . يا حبيبتى إنى أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعينى أتوه هناك وحدى إلى أن أكتشفها لك ثم أسافر إلى لندن لأول مرة ، فدعينى أتوه هناك وحدى إلى أن أكتشفها لك ثم سافر معاً فى المرة القادمة . . ولكنها تصر ، لماذا . . هل تغار عليه . . على تخشى أن يتزوج فتاة إنجليزية . . ولانا تصر على تهريب كل هذه المبالغ

من الجنبهات الإسترلينية . . إنه لم يعرف إلا وهو جالس بجانبها في الطائرة التي حملتهما إلى لندن . . إن كل ما تريده هو أن تعرض نفسها على طبيب هناك لعلها تحمل ، وتلع عليه أن يعدها هو أيضاً بأن يعرض نفسه على طبيب . . لابد أن هناك شيئاً جديداً . . علماً جديداً . . دواء جديداً . . شيئاً لم يصل إليه أطباء مصر . . فلنجرب . . وثار عليها . . لم يخطر على باله أنها لا تزال تحاول وأن تتكلف كل هذا المشوار وكل هذه المصاريف حتى تستمر في محاولتها ، وأقسم في ثورته أنه لن يعرض نفسه على طبيب وأعلن ندمه لأنه استسلم لها وصحبها معه . . ولم تتحد ثورته بل ظلت هادئة مبتسمة كأنها تعذره . .

وقى لندن اكتشف أنها كانت قد حددت موعداً مع الطبيب الإخصائي : وذهبت إليه وحدها وتركته يتفرغ لعمله . .

ومرت أيام فاجأته بعدها بأنها قررت أن تقبل إجراء عملية جراحية ينصحها بها الطبيب - ووافقها دون أن يهتم حتى بتقصى تفاصيل العملية كل ما عرفه أنها عملية تنطلب أن تبقى فى المستشفى أكثر من أسبوع ، وهو مضطر أن يعود إلى مصر بعد يومين . . وبقى معها إلى أن خرجت من غرفة العمليات ثم سافر فى نفس اليوم عائداً إلى القاهرة . . ولم تعترض . . كانت تعرف أنه لا يهتم بأن يكون أبا فاعفته من أن يتحمل عبء محاولتها أن تكون أمًا . إلى هذا الحد كانت تعطيه . وعادت إليه بعد شهر ووجهها يضحك بنضارة الأمل . . إن الأطباء أكدوا لها أنها حتما ستكون أمًا . . وعندما أخذها محمد بين ذراعيه وهما فى الفراش بدأ يحس بإحساس لم يحسه من قبل . . إحساس أقبل . . لم يكن إحساس المتعة التى تعودها معها ، ولكنه إحساس أقرب إلى الإحساس بالمسئولية . . إنه مسئول الآن على أن يجعل منها أمًا . . أن يقوم بعملية حمل . . وأحس فعلا كأنه على

وشك أن يقوم بإجراء عملية جراحية لها يكمل بها العملية التي أجرتها في لندن . . كأنه طبيب . حتى أن شفتها لم يعد لهما نفس طعم القبلات . . وضغط أصابعه على جسدها لم يعد يثيره كما كان . . إنه مكلف الآن بإجراء عملية جراحية . . بجب أن تكف عن هذه الابتسامة التي كان يحبها حتى تساعده على التحرك كأنه طبيب . . وأن تغمض عينها حتى لا تزعجها رؤية المشرط . .

وقد أثر كل ذلك فى إحساسه الطبيعى بالجنس ، وأحس أنه يضغط على كل رجولته حتى يستكمل هذا الإحساس . . وقد أفلح فى أن يقوم بالعملية وأن يؤدى واجبه ، ولكنه من يومها وهو لا يستطيع أبداً أن يعود إلى متعته التى تعودها معها وهما فى فراش . . فى كل مرة يسيطر عليه الإحساس بإجراء عملية . أداء الواجب . . فقط أداء الواجب . .

ومر عام كامل دون أن يتغير شيء في دولت . . لم تحمل . . وبدأت تفكر في أن تعود إلى الأطباء في لندن ولكنه صرخ رافضاً . . احمدى الله على ما كتبه لك . . دعى حبك لى يغنيك عن حرمانك . . كان يقول هذا الكلام وعقله بأخذه إلى مشروع الطلاق . . ربما طالبته بالطلاق كما طالبت زوجها الأول حتى نعطى عقدتها أمام نفسها وأمام الناس . . ولكن لماذا لا يطلقها هو . . ولكن لا . . لا يستطيع . . إنه لا يستطيع أن ينسى كل ما أعطته . . إنها سر نجاحه . . وسر كل هذه الحياة الفخمة التي يعيشها . . وقد تعود عليها وعلى الحياة معها وعجزها عن أن تكون أمًا إلى حد أنه لا يستطيع أن يعيش كاملاً بغيرها . .

والذي حدث أنها عرفت أن زوجها الأول الذي كان قد تزوج غيرها قد أنجب وأحست أن عورتها قد انكشفت . . لم تعد تستطيع أن تضلل نفسها

وتضلل الناس وتقول إن الزوج هوالسبب.. وبدأت تعانى من ثقل الإحساس بأن مالا تستطيع أن تعطيه لزوجها تستطيع غيرها أن تعطيه ، وزاد ثقل هذا الإحساس حتى وصل بها إلى حالة اليأس . . اليأس من أن تستمر فى محاولة أن تحمل وتنجب ، وقررت أنه لم يعد أمامها إلا وسيلة واحدة حتى تعوضها وتعوض زوجها عن عجزها وهى أن تبنى . .

وفكرت طويلاً في مشروع التبني قبل أن تعرضه على محمد ، وقررت بينها وبين نفسها أن تتبنى بنتاً . . إن البنت يمكن أن تكون أقرب إليها من الولد . وتستطيع بطبيعتها كأنثى أن تفهمها وتربيها أسهل مما تستطيع أن تفهم وتربى الولد. . وبدأت فعلا تبحث عن الملاجئ ودور رعاية الأحداث التي تعطى حق التبني . . وفي القاهرة أكثر من دار لرعاية الأحداث ، تضم الأطفال الذبن يجمعون من الشوارع وأغلبهم قبض عليهم في جراثم صغيرة ليس لهم ذنب فيها . . . وليس في القاهرة إلا ملجاً واحد في المطرية يضم الأطفال اللقطاء بعضهم احتواه الملجأ وهو لا يزال في أيامه الأولى من الحياة . . ولم تجد في دور رعاية الأحداث طفلاً يشد إحساسها ، واقتناعها . . كانت نقف أمام كل طفلة وتتردد طويلاً ثم تبتعد دون أن تستطيع أن تتخذ قراراً . . ثم ذهبت إلى الملجأ في المطرية وما كادت عيناها تلتقي ببثينة حتى قررت أن تكون ابنتها . . إنها طفلة في الرابعة من عمرها كل ما في وجهها يبتسم . . عيناها تبتسمان ، ووجنتاها تبتسمان ، وشفتاها ، حتى أصابع يديها . . ابتسامة دائمة هادئة فيها حلاوة وفيها ذكاء . ولون بشرتها أقرب إلى البياض كلونها ، وشعرها أقرب إلى اللون الفاتح يضيع فيه الأسود مع القرمزي مع الأصفر كلون شعرها . . إن من السهل أن يعتقد الناس أنها ابنتها فعلاً ، وخاصة أن تصرفاتها وحركاتها حتى وهي طفلة وفي ملجأ لقطاء

فيها كثير من الرقة الأرستقراطية ، ومن يدرى ربما أنجبتها فى خطيئة امرأة من عائلة لها قيمتها ثم وضعتها أمام جامع أو أمام مركز بوليس هرباً من الفضيحة . . وسألت فى الملجأ أسئلة كثيرة عن بثينة . . أين وجدوها ؟ . . وهل يذكر ون اللفافة التي كانت تلتف بها . . ولم يكن وجدوها أمام جامع ولا أمام مركز بوليس ، لقد وجدوها قريباً من صور السفارة الأمريكية فى جاردن سيتى ، وكانت ملتفة بأغطية غالية مطرزة ولم يكن قد مضى على ولادتها أكثر من أسبوعين ، وكان من بختها أن الذى عثر عليها رجل محترم استدعى عسكرى البوليس وأرشده إلى بثينة وهى لا تزال ملقاة على الرصيف بجانب السور ، وحملها العسكرى إلى قسم البوليس ، وسلمها البوليس إلى الملجأ . . والحمدالة ، فقد كان يمكن أن يعثر عليها أحد المتشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشئوها بينهم وهو ما يحدث يعثر عليها أحد المتشردين ويسلمها إلى عصابة إجرامية لينشئوها بينهم وهو ما يحدث خرحة . . ودولت تسمع القصة وتجرى بعينها بحثاً عن بثينة وتضمها من بعيد في خيرة . .

وهرعت إلى محمد لتبلغه قرارها . إنها ستتبنى طفلة ، وقد وجدتها فى الملجأ . . ونظر إليها محمد كأنه ينظر إلى مجنونة ، ثم قلب شفتيه قرفاً وامتعاضاً ، ووافق . . إنه لا يريد ابنة ولا ابناً ، وكل ما يريده هو أن تهدأ زوجته وتريحه من عقدتها . . وذهب محمد معها إلى الملجأ ليتخذا إجراءات التبنى ، ولم يتعمد هناك أن ينظر إلى بثينة وبدأ فى توقيع الأوراق بلا أية عاطفة كأنه يوقع على شيك نبرع لإحدى الجمعيات الخيرية ، أو كأنه يوقع عقداً فى صفقة لا يهمه أن يخسرها ، ولكنه عندما رأى بئينة ابتسم كأنها نقلت إليه ابتسامات تقاطيع وجهها الطفل . . ابتسم ابتسامة كاملة شملت أحاسيسه كلها . .

وكان يمكن أن يكون التبني جزئياً أى أن يتولى أمرها دون أن ينسبها إلى نفسه ،

T TO SECOND

إنه يذكر الأيام الأولى التي أصبحت فيها بثينة شيئاً في البيت . . لم يكن يحس بهذا الشيء، ولم يكن يتعمد أن يعطيها شيئًا من الحنان ولا حتى من الاهتمام ، بل إنه لم يعود نفسه تقبيلها كطفلة صغيرة إنما كان يكتني كلما دخل أو خرج من البيت أن يمسح بيده على شعر رأسها مسحة سريعة وهو يبتسم لها نصف ابتسامة . وكان أحياناً يلمح في لحظات أنها فعلاً طفلة جميلة . . عيناها ، شفتاها ، لون بشرتها ، شعرها . . وأحيانا كان يضحك ضحكة كبيرة عندما تلفت نظره بحركة من حركات الطفولة . إنه لم يلحظ أبداً تتبعها له كلما كان في البيت . . إنها تسير وراءه في كل تحركاته ، وبجلس فيجدها جالسة أمامه ، وحتى عندما يخرج من حمام الصباح يجدها واقفة في انتظاره ، لم يكن شيء ببعدها عنه إلا دولت لتأخذها وتؤدى لها ما تتطلبه طفولتها . . ولم يلحظ أيضاً أنها كانت تكرر كثيراً كلمة وبابا ، كأنها الكلمة الضائعة التي كانت تبحث عنها . . بابا . . بابا . . يايا . . وكانت في البداية تنطقها في حياء وتردد ثم أصبحت تنطقها وترددها بكل إحساسها كأنها تزغرد بها . . كأنها الكلمة التي تثبت بها شخصيتها وتستكمل بها كل وجودها . . لم يكن يلحظ أو يحس بأى شيء تجاه بثينة أو ﴿ بوسي ﴾ وهو إسم التدليل الذي اختارته لها دولت ، كل ما كان يحس به نحوها أنها تحفة جميلة اشتراها هدية لزوجته كباقى التحف التي تملأ البيت ، وإن كان يحس بهذه التحفة أكثر لأنها شغلت زوجته عنه وأراحته من عقدتها . .

ولكن دولت أصرت على أن يكون التبنى كاملاً . . أى أن تكون ابنته وتحمل اسمه . . ولم يهتم أن تكون ربيبته أو ابنته . . إنها شيء سيوجد في البيت كعلاج لعقدة النقص التي تعانى منها زوجته هي التي اختارت لها اسم بثينة ، إنه الاسم الذي كان يمكن أن تسمى به ابنتها لو أنجبت لأنه اسم .أمها . .

وانشى توقيع الأوراق . .

وأسرع محمد خارجاً ، وترك زوجته تصحب بثينة إلى البيت دون أن يلتفت إليها . . ولم ير عيني بثينة وهما متعلقتان به تتبعانه في تعلق عجيب . .

وقد كانت العلاقة بينة وبين زوجته دولت تأخذ مع السنين في التباعد .. انباعد في إحساسه بها كامرأة .. بدأ يشعر بفارق السن بينهما .. إنها أكبر منه بثلاث سنوات .. وبدأ يشعر كلما هم أن يحتضنها في الفراش أنه يؤدى واجباً مفروضاً عليه .. واجباً أصبح ثقيلاً ليس فيه إغراء كأنه ينفذ أوامر الطبيب .. وبدأ بينهما ما يمكن أن ينتي إلى ما يسمى الانفصال الجسدى .. ولم تكن دولت تحاول أن تصد هذا الانفصال بل كانت مستسلمة له كأن بثينة قد أغنها عما كانت تريده من محمد .. أو ربما كان التحليل النفسي يصل إلى حد تصور أن دولت لم تحب محمد منذ البداية إلا بغريزة وإحساس الأمومة التي لم تستطع أن تصل إليها بالإنجاب .. وربما كان هذا هو سر عطائها الكثير له . كانت تعطيه كأم لا كعشيقة ولا كزوجة .. وقد وجدت في بثينة ما أشبع فيها غريزة الأمومة فلم تعد في حاجة إلى محمد .. بل إن فرحتها ببثينة دفعتها بعد عام واحد إلى أن تفكر في تبني طفل ثان .. ولد .. حتى يكون عندها ولد وبنت ، وصرخ محمد في وجهها :

- لا يمكن . . إن بنتاً غريبة تحمل اسمى أرحم من أن يحمله ولد . . ولا أدرى كيف جاء إلى الدنيا ولا ماذا ورث عن أبيه وأمه . . إن الوراثة تشمل الشخصية والأخلاق . فإذا كان أبوه لصا أو نصاباً أو صعلوكاً فيمكن أن يرث عن أبيه اللصوصية أو النصب أو الصعلكة ، ويفضحنى عندما يكبر ويخرب بيتى . . لا . . لا يمكن . .

وردت عليه دولت بهدوئها الناعم :

- ليست الوراثة التي تحدد الشخصية والأخلاق . . إنها البيئة . . تقاليد البيئة واحتياجات البيئة . . إنهم يقولون أن لا أحد بسرق إلا إذا كان في حاجة

إلى السرقة . . ونحن في بيئتنا . . في بيتنا لا يمكن أن ينشأ لص أو صعلوك . . وعاد يصرخ في وجهها :

اسمعى . . إنى لن أعطى اسمى ولن يدخل بيتى طفل آخر . . فاهمة . .
 يكفينا بوسى . .

ولم تلح عليه كثيراً فقد كانت بثينة تكفيها فعلاً وتغنيهاعن كل ما كانت تشعر به من نقص ، بل إنها أيضاً تغنيها عن الإحساس بهذا الانفصال الجسدى الذي بدأ يدب بينها وبين زوجها . .

وكان محمد قد بدأ يسافر كثيراً إلى الخارج . . ربما أكثر من نصف العام يقضيه في الخارج وهو ماكان يفرضه عليه عمله ومشروعاته الواسعة . وأيضاً لأنه كان يجد في الخارج حرية ممارسة حياة خاصة تعوضه عن إحساسه بالانفصال الجسدى بينه وبين زوجته . . مجرد نساء عابرات لم تستطع واحدة منهن أن يكون لها تأثير له قيمة في تغيير استمرار حياته مع دولت . . وربما كانت هذه الغيبة الطويلة في الخارج هي السبب في أنه لم يتعود أو لم يكتسب إحساس الأب نحو بثينة . . وهناك فرق بين الأمومة والأبوة ، فالأمومة غريزة أما الأبوة فاكتساب . . أى أن الأم تحب وليدها قبل أن تنجبه ، أما الأب فإنه في حاجة إلى وقت يمر بعد أن يولد ابنه حتى يكتسب ويستكمل الإحساس بالأبوة . . وهو في حاجة إلى وقت أطول إذا كانت ابنة متبناة كبثينة . . وكان يسافر إلى الخارج وينساها . . وكأن لا شيء يذكره بها إلا أن يراها بعينيه . . وكان يعود من الخارج حاملاً هدية إلى دولت وينسى أن يحمل شيئاً لبثينة . . وتصرخ دولت في وجهه وتجرى لتشتري شيئاً أو تخرج من دولابها شيئاً لتقدمه إلى بثينة كأنها هدية من محمد اشتراها لها من الخارج . . ولكن بثينة نفسها لم تكن تحس بأنه نسيها ، كانت فرحتها

بعودته تغطى كل شيء ، وتعود تتبعه وتلتصق به فى كل تحركاته وتفتعل الحجج لتردد : بابا . . بابا . . بابا . .

وبثينة تكبر ...

ومحمد يكبر ...

وبدأ إحساس محمد ببئينة يتطور تطورًا عجيباً . . إنه كلما عاد من الخارج والتنى بها أحس كأنه براها لأول مرة . جسدها ينمو فى روعة . . عنقها ، لدياها ، ردفاها ، ساقاها . . جمال يتناسق ويستكمل كل عناصره كأن الفنان الأكبر قد تفرغ ليرسمه هدية له . . ونظرتها تهدأ فى عينها . . ويلتى بهاتين المبينين فيحس فيها نداء عجيباً . . إنها تنظر إليه كأنها معجبة به . . كأنها تتمناه . . أو هكذا يخيل إليه . . ثم أنها لم تعد تردد كلمة بابا كثيراً . . وصبحت ملاحقتها له داخل البيت ملاحقة عاقلة كأنها أكبر من سنها . . فقد توجد فى البيت وهى واثقة أنه هو الذى سيبحث عنها . .

وبثينة وصلت إلى الرابعة عشرة من عمرها . .

وهو في الأربعين . .

وبدأ يستسلم لأحاسيس كثيرة تجذبه إليها . . لاشك أنها أحاسيس الأبوة . .

بدأ بعد وقت طويل يصبح أباً . . لا . إنه يخدع نفسه . . إنه لا يزال يحس بأنها فتاة جميلة . . ويجد حرجاً كبيراً إذا سقطت عيناه على ساقيها ، أو إذا ركر نظرته على شفتيها . وحدث أن دخل الغرفة مرة فوجدها شبه عارية مع دولت فقفز بسرعة كأنه ارتكب فضيحة ، كأنه اعتدى عليها . لا يمكن أن يكون هذا هو إحساس أب . . لا يمكن أن يحس أب بسيقان ابنته أو بجسدها كله كما يحس بحسد فتاة غريبة . . لا . . قد تكون بثينة إبنة دولت ولكنها ليست ابنته . . وبثينة في السابعة عشرة .

وبيه ي العابلة عسره . .

وهو في الثالثة والأربعين . .

إنه يجد فيها نواحى جديدة . . إنها تقرأ كثيراً وتستطيع أن تجلس إليه ساعات طويلة تحكى له عما قرآنه . . صحيح أن معظم قراءاتها في القصص ، والتاريخ ، والفن ، وأكثر المجلات التي تنشر أخبار الفنانين والفن ، وكثر المجلات التي تنشر أخبار الفنانين والفنانات ، وهو لم يكن يهتم يوماً بالأدب ولا بالفن ، ولكنه يحس وهي تروى له كأنه ينتقل إلى عالم جديد مثير مسل ، بل إنه كان أحياناً يروى لها بعض مشاكل عالمه . عالم رجال الأعمال . فتبدى له آراء تدهشه كأن لها ذكاء بنات الأعمال . ودون أن يتعمد بدأ نظام حياته يتغير . . بدأ يقضى ليالى كثيرة في البيت جالساً في غرقة مكتبه المخصصة له ومعه دولت وبثينة ، والراديو والتليفزيون ، وزجاجة في غرقة مكتبه المخصصة له ومعه دولت وبثينة ، والراديو والتليفزيون ، وزجاجة الويسكى الذي تعود أن يشرب منه كل مساء دون إفراط ، وكانت السهرة تنحصر عادة في مناقشة تثيرها بثينة ، أو في قصة ترويها ، أو في رقصة تقوم وتعرضها عليهما على آخر تطورات الرقص . . وهو سعيد . . مرح . . يضحك ويناقش . . وأحياناً يحتد . . ودائماً يتعمد الحذر من أن يركز عينيه على ساقى بثينة ، وأو على صديها . . لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب أو على صديها . . لقد أصبح أصعب عليه أن يفتعل أحاسيس الأب

ويعانى صعوبة أكبر إذا تركته دولت وحده معها . . وفى مرات كثيرة كانت دولت تعلن أنها ستتركهما لتنام فيلحق بها محمد فوراً . . (خديني معاكى) . . لا لأنه يريد أن ينام ولكن لأنه يخاف نفسه . . يخاف هذه الأحاسيس التي تعصف به . . .

وهى .. بثينة .. إنها تتعمد أن تبقى بجانبه كلما كان فى البيت .. وتتعمد أن تلتصق به كلما صحبها هى ودولت إلى دعوة أو إلى سهرة فى الخارج .. وتضع ذراعها فى ذراعه كأنها تتباهى به وتنسبه إلى نفسها .. وفى كل مناسبة تقول كلاماً كأنها تحرضه على نفسها :

تعرف صاحبتی میرفت . . ستجن علیك . . تقول إنك أجمل وأرشق رجل
 و إنها ستحاول أن تخطفك من ماما دولت . .

- إنها صغيرة مجنونة . .

- ليست صغيرة ولا مجنونة إنها في سنى وفي عقلي ...

وأحياناً تمد يدها وتلعب في شعره الأبيض وتصيح ضاحكة :

– شعرك يا بابا . . يهوسني . .

إنه شعر عجوز . , سأصبغه أسود حتى أسترد شبابى \cdots

- إياك . . أنتحر لو صبغته . .

وقد كانت تردد إعجابها بشعره الأبيض إلى حد أنه كان يهددها ضاحكاً :

ه انتي حانسكتي والا أقوم أصبغ شعوى إسود ه . .

وقد كان دائماً واثقاً بنفسه كرجل يجذب ويشد النساء . . ولكن تجاربه كلها كانت مع نساء من نفس جيله لم يجرب البنات المراهقات . . ربما وصل إلى السن التي يقال إن الرجل فيها يصبح مراهقاً عجوزاً . . سن الأربعين . .

وتشد إحساسه البنات المراهقات الصغيرات . . وربما كان صحيحاً أن البنات في سن المراهقة يضعفن أكثر أمام الشعر الأبيض . . أمام سن الأربعين وما بعده . . إن أول حب في حياة البنت هو حب الأب وعادة ينقلها هذا الحب إلى تجربتها الأولى مع رجل في سن أبيها . .

وحدث أن دعى إلى حقلة ساهرة فى فندق هيلتون مع زوجته وابنته . أى ينبة . وليلتها شرب كثيراً من كؤوس الويسكى ، ثم قام فجأة وشد بثينة من يدها وجذبها إلى حلبة الرقص ليراقصها . كانت رقصة هادئة . سلوفوكس . وقد بدأ يراقصها وهو يتكلم كثيراً ويضحك كثيراً . ولكن بعد بضع خطوات واقصة تركز إحساسه كله على صدرها الذى يلاصق صدره ، وأصابعه المحلقة على ظهرها ، ساقيه الملتصقتين بساقيها . ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكى على ظهرها ، ساقيه الملتصقتين بساقيها . ولم يستطع مع ثقل كؤوس الويسكى الني شربها أن يقاوم . وكف عن الكلام وعن الضحك . . وضغطها إليه بكل ذراعه . . ولصق شفتيه فوق عنقها . وتحركت فيه كل عناصر رجولته . . وهى . . ولستسلمة . . إنها تضغط نفسها هى الأخرى إليه وتزداد التصاقاً به . . وتتعمد أن تضع ساقيها بحيث تطلق بينهما ساقيه . . وكلاهما مختبى فى زحام الراقصين . . وسكنت الموسيق . . .

ناق . .

أفاق من كل شيء . .

أفاق حتى من كؤوس الويسكى التي كانت تملأ رأسه . .

ونظر إليها فى دهشة كأنه لا يصدق ما حدث ثم أسرع مبتعداً عن حلبة الرقص وهى تجرى خلفه . وجلس إلى المائدة وصب لنفسه كأساً ثقيلة وأخذ يشرب

- أقصد عندما نسيت نفسي وأنا أراقصك . .

- إنك لم تنس نفسك . .

لم أكن طبيعيًّا . . كنت قد شربت أكثر مما يجب . .

- كنت طبيعيًّا جدًّا ...

ونظر إليها في دهشة كأنه لا يصدق أنها لم تحس بكل ما جرى وهو يراقصها . .

واقتربت منه أكثر وقالت ;

- صدقني . . لقد كنت طبيعياً وأنا أيضاً كنت طبيعية . .

ثم انحنت تقبل خده وجرت من أمامه ...

وتركته حاثراً . .

ماذا تقصد . . هل ما جرى يمكن أن يكون طبيعيًّا بين أب وابنته . . أم تقصد أنه طبيعي بين رجل وامرأة . . أم لم تحس فعلاً بما جرى . .

وفي اليوم النالي قال إنه مسافر إلى الإسكندرية ، وقالت بثينة بسمعة وفرحة :

- خذنی معك . .

وصرخ في حدة :

لا . . إنى ذاهب في عمل . .

ومالت بثينة على دولت ترجوها :

 والنبى ياماما . . دعيه يأخذنى معه . . إنى لم أر الإسكندرية منذ الصيف . .
 أربد أن أطمئن على الكابينة وبيتنا هناك . وأقابل صديقتى تحية . . وغداً أجازة . . فيها دون أن ينظر إلى بثينة . ثم قام مستأذناً وخرج بزوجته وابنته بثينة . . وركب سيارته عائداً إلى بيته ، ودولت تسأله :

- هل أنت متعب ؟

..Y-

- إنك لست طبيعياً . .

– ربما أثقلت من الويسكي . .

ولم يحاول أن ينظر إلى بثينة حتى عندما هم أن يدخل إلى غرفة نومه ،

ولكن بثينة جرت وراءه صائحة :

- تصبح على خير يابابا . .

ثم انحنت وقبلته فوق خده . .

ولم يرفع عينيه إليها ولم يرد تحيتها . .

وذهب إلى مكتبه فى الصباح وقد تعمد ألا يلتقى ببئينة أو يقبلهاكما تعرد قبل خروجة واكتنى بأن قبل زوجته وفى المساء أعلن أنه سيخرج من البيت وحده ولكنه قبل أن يخرج جلس فى غرفة مكتبه وحده مدة طويلة ثم نادى بثينة وجاءته ورفع عبنيه إليها بعد أن تجاهلها طول هذه الفترة ، ورآها كأنها ازدادت نضارة وابتسامتها أكثر حيوية وشباباً ، وخيل إليه أنها هائمة فى إحساس جديد ، وقال وهو يحاول جهده أن يبدو هادئاً :

- أنا آسف لما حدث ليلة أمس . .

وقالت في براءة :

- ماذا حدث ؟

وقالت دولت في الحاح :

محمد ، , دع بوسی تسافر معك . . إن من حقها أن تقضی يوماً بعيداً
 عن البيت . .

ثم ضحكت دولت قائلة:

 أتغهد لك بأنها ستترك لك حريتك . . بوسى . . احلق أنك لن تضابقيه بطلباتك . .

وقالت بثينة في دلال :

- أنا باضايقك يابابا ؟ !

وكان الإلحاح عليه كأنه إغراء له ، وضعف أمام الإغراء . وأخذها معه . . وفي طريق الإسكندرية كان يقود السيارة وهو يحاول أن يبقى صامناً وأن يو بالنظر أمامه ، ولكن شنة لا تكف عن الكلام .. تروى له قصصاً وأنا

يكتنى بالنظر أمامه ، ولكن بثينة لا تكف عن الكلام ... تروى له قصصاً قرأتها وقصصاً سمعتها ، وأخبار الفنانات والفنانين ، وأخبار صديقاتها فى الجامعة والنادى ، ثم تدير راديو السيارة وتهتز على الأنفام وتغنى . . وهو يحاول أن يقاوم . . ولكن مقاومته تخف . . وتخف أكثر إلى أن نسى ما جرى وبدأ علا عبنيه منها ويضحك لضحكاتها ويغنى معها . .

ووصلا الإسكندرية في المساء . . ووقف في فندق فلسطين يسجل اسمه واسمها . . محمد عبد الله وابنته بثينة محمد عبد الله . . وقال لموظف الفندق :

نريد حجرتين من فضلك ...

وصرخت وهي بجانبه :

 یا خبر یابابا . . إنی أخاف موت إذا نمت فی حجرة وحدی . . من أجل خاطری یابابا لا تترکنی وحدی . .

ولم يستطع أن يجادلها طويلاً أمام موظف الفندق . .

وجمعتهما غرفة واحدة . .

وعندما بدأت تخلع ثيابها وتلبس ثوب النوم احتار أين يهرب بعينيه ، ثم

قال بحدة :

- بدلى ثيابك في الحمام . .

وقالت في دهشة :

- لاذا ؟

ولم يرد عليها ولكنه جمع ثياب نومه قائلاً :

- أنا سأدخل الحمام . .

وبدل ثيابه بعيداً عنها بينما فتحت بثينة الراديو الذي تحمله على نغمات راقصة ، وعندما خرج من الحمام وجدها في قميص النوم . . وقد تعود أن براها في ثياب النوم ولكنه أحس أنه لم يرها أبداً عارية كما يراها في هذا القميص . . وقالت وهي تهتز راقصة على نغمات الراديو :

- طلبت لك الويسكى . .

- قم راقصني . .

" - لا تكونى مجنونة . .

- من أجل خاطري . . لا تحرمني قبل أن أنام . .

وقام براقصها بجانب الفراش . . وحاول أن يحتفظ بها بعيدة عن جسده . .

وقالت ضاحكة :

- لا . . كما راقصتني آخر مرة . .

وألقت بنفسها فوق صدره . . وأحس بثديبها . . وساقيها . . وظهرها العارى . . وضيمها بكل ذراعه كأنه يريد أن يدخلها بين ضلوعه . . وتحركت كل حيوية رجولته . . ثم دفعها عنه بقسوة حتى وقعت فوق السرير ، وقال وأنفاسه تتهدج ;
- إذا كنت مجنونة فلن أجن معك . .

وابتعد وجلس على المقعد المواجه للسرير . . يحاول أن يشعل سيجارة . . وقامت من رقدتها واقتربت منه وفي عينيها نظرات جادة كأنها على وشك أن تصدر حكماً نهائياً وقالت في صوت حاسم كأنها قررت أن تتحرر من كل خداع ومن كل خجل :

- اسمع . . أتت لست أبى . . خذنى كما أنا . . وأنا لست ابنتك . . ونظر إليها بعينين ثائرتين خطيرتين كأنه قرر أن يشى من كل شىء . . ينتمى من هذه المقاومة التي أنهكته خلال سنوات . . وينتمى من هذا الضياع بين ابنة وعشيقة فى جسد واحد ، وأب ورجل يتصارعان داخل جسد آخر . . وشدها إليه وقبض على شفتيها بشفتيه ، وأصابعه تمزق عنها قميص النوم ، ثم قام وحملها عارية وألتى بها وألتى بنفسه معها . .

وحدث کل شيء . .

قالت له إنها هي أيضاً حاولت العمر كله أن تحس به كأب ولكن كان هناك دائماً إحساس يغلب إحساسها بأبوته . . ربما منذ اليوم الأول الذي وعته فيه وهي لا تستطيع أن تعيه كأب . . كان إنساناً بملأ خيالها وأحلامها ولا بمثل واقعها . . إنها تستطيع أن تتخيله بطلاً للقصص التي تقرأها والأفلام التي تشاهدها وتحلم به كمستقبل وهمي . . كأن يحبها ويخطفها على حصان ، ولكنها لم تكن تحس يه كواقع . . والإحساس بالأب هو الإحساس بالواقع . . وهو لم يكن أبداً واقعاً . كان خيالًا وحلماً . . وكلما تقدم بها العمر اقترب بها خيالها وأحلامها من الحب . . أصبحت تريده . . تشتهيه . . وتتعنى أن تتباهى به أمام صديقاتها كرجل لاكأبيها . . إنها تعلم أنه ليس أباها ولم يكن يجدى الإخفاء عنها فقد خرجت من الملجأ وهي في الرابعة وهو عمر يستطيع أن يحفظ الذكريات ، ولأنها تعلم فقد كان بخيل إليها أن الناس كلها تعلم ، وأنها تعيش في كذبة مستمرة ، ويخيل إليها أن كل من يقرأ اسمها منسوباً إليه يصبح . . كذابة . . وهي تتمني أن تحيل هذه الكذبة إلى حقيقة . , والحقيقة الوحيدة التي تستطيع أنْ تصل إليها هي أنْ تكون حبيبته لا ابنته . . وكانت تعلم أن لا أمل . . كانت تحاول أن ثيأس . . بل إنها حاولت أنْ تحب حباً يشغلها عنه . . تحب شابًّا من الجامعة أو من النادي يحملها إلى المستوى الطبيعي للحياة , . ولكنها لا تستطيع أن تيأس . . وعندما تقدم بها العمر أكثر بدأت تكتشف أنه هو الآخر يقاوم .. هو الآخر لا يحس بها كابنة بل كفتاة يريدها . . وكانت تحس بكل ما يعانيه وتكتشف كل الكذبات التي

واثقان أن أحداً لا يلحظ عليهما شيئاً أو بدأ يشك في أمرهما . .

ولكن محمداً بدأ يلتقط لمحات جديدة من على وجه دولت . . لقد عاش معها العمر كله ويستطيع أن يلتقط أي لمحة جديدة . . إنها لمحة في نظره عجيبة تصحبها ابتسامة . . كأنها اكتشفت السر . . ورغم ذلك فهي لا تقول شيئاً وتبالغ أكثر مما عودته في تدليله وفي تدليل بثينة . .

ربما لم تكتشف شيئاً . .

إلى أن كان يوم . . وكان في لقائه الخاص مع بثينة عندما قالت له ضاحكة ضحكتها الحلوة ؟.

- هل أقول أو لا أقول ؟ .
 - تقولين ماذا ؟
- أخبرنى أولاً . . هل أقول أو لا أقول ؟
 - قولى . .
- إذاً أنت الذي تأمرني بأن أقول . . لست أنا التي قررت القول . .
 - يا سنى قولى .. تكلمى ..
- أو الأفضل أن تقبلني الآن - عدنى أولا أن تقبلني بعد أن تسمعني . . فلست واثقة من وقع الخبر عليك .

وقبلها قبلة سريعة وأمسك بها من ذراعيها كأنه يتوى أن بهزها وينخلها حتى يسقط منها السر . . وصاح

- تكلمي . .
- إنى حامل . .

واتسعت عيناه من الدهشة ثم تحولت الدهشة إلى أَلَم كأنه طعنة وقال :

يضحك بها على نفسه . . فبدأت تشجعه . . إنها تعترف له بأنها كانت تشجعه . . تحاول أن تسهل له الطريق إليها . . إلى أن التقيا كما تمنيا أن يلتقيا . .

ولم يكن كلامها يكني ليخلصه مما يعانيه من حيرة في الحكم على نفسه . . هل هي من حقه أم أنه اعتدى عليها بعد أن إثتمنه المجتمع عليها ، وسجل في أوراق رسمية أنها ابنته . . وكان يستريح مما يعانيه عندما يلتقي بها وحدهما . . إنه ينتقل معها إلى الحب كله . . إنه يحبهابرغم فارق السن . . يحبها حبًّا أوسع بكثير من مجرد الاحتياج الجنسي . . أصبح يحب شخصيتها وعقليتها . . بل أصبح يتمثل المستقبل كله معها . . ولكنه ما يكاد يتركها حتى تعود إليه الحيرة والتأنيب ، والخوف . . والإحساس بالجريمة وبالكذب . . إنها ابنته كيف أباح لنفسه كل هذا مع ابنته . .

لا يدرى . . إنه أيضاً لا يستطيع أن يعيش بلا دولت . . كلتاهما لا تغنيه عن الأخرى . . كل منهما تكمل ما ينقصه من الأخرى . . كل منهما لها منه أحاسيس حب تختلف عن أحاسيسه بالأخرى . .

وبعد ما حدث في الإسكندرية كف عن المقاومة ، واستسلم لحبه لبثينة مع كل المعاناة التي يعيش فيها وكانا يحرصان أمام دولت في البيت على تأكيد أن لا شيء جد عليهما . وربما أصبحا يتباعدان أحدهما عن الآخر أكثر وهما في البيت ، ويقلل هو من سهرات المساء التي كانت تجمعه مع الاثنتين في غرفة مكتبه ربما لأنه أصبح يتعذب وهو يرى بثينة أمامه وهو محروم من الانطلاق معها وإليها . . وكان يلتقي ببثينة لقاءهما الخاص في شقته التي استأجرها منذ سنوات وخصصها لحياته الخاصة . . ثم تعود إلى البيت ويعود بعدها وهما

- ولكنك كنت حريصة دائماً..
- لا لم أكن حريصة . . كنت أتعمد أن أحمل منك . .
 - لماذا يامجنونة ؟
- لأعطيك ما أخذته منك . لقد أخذت منك ابنتك التي كانت أنا فأردت أن أعطيك ابنة أخرى . . أو على الأصح أريد أن أعطيك شيئاً لم تعطك إياه امرأة أخرى . . أن أجعل منك شيئاً لم تكنه وهو أن تكون أباً . .
 - وصرخ:
- من قال لك أنى أريد أن أكون أباً . . ستذهبين فوراً إلى طبيب لإسقاطك . .
 - لا يمكن . .
 - كيف . . ماذا تعنين ؟ .
- إنى الآن فى الشهر السادس . . وطبيعتى تساعدنى على إخفاء حملى . .
 ولا يمكن الآن إجراء أى عملية . . إنى متأكدة سألت الطبيب . .
- ستة أشهر . , كاذبة . . لا يمكن أن تعيشى معنا ستة أشهر وأنت حامل وأنا لا أدرى . . ثم دولت ؟
- إنك لا تدرى ماذا كنت أفعل حتى أخفى كل شيء عن ماما دولت ...
 - وماذا تتصورين أن يكون مصير هذا الطفل ؟ .
- مصيره هو نفس المصير الذي عشته . . أتركه للملجأ . . ثم نذهب مع
 ماما دولت ونتبناه . .
 - كيف يكون ابني وأتركه لملجأ . .
- كل من فى الملاجئ لهم آباء . . وهم غالباً أغنياء . . لأن حياة الفقراء لا تتسع لأولاد الحرام . . أمى لاشك كانت من عائلة كبيرة والا لما خشيت

الفضيحة وكذلك أبى . . لو كانا فقيرين لتزوجا حنى لو كان أبى متزوجاً عشر زوجات أو لقتلونى بدلاً من أن يضعونى فى ملجأ . .

وقال في سخط :

- انك لا تنسين أصلك . .
- أصلى هو الذي أوصلني إلى أجمل وأحلى ما في الدنيا . . إليك . .
 ونظر إليها كأنه يعتذر عن إسفافه وقال :
- بوسى . أرجوك . . دعينا نفكر فى هدوه . . لنبدأ أولاً باستشارة طبيب
 أعرفه . .
 - لا أمل . .
 - سَآخَذُكُ وَنَذَهِبِ إِلَى لَنَدُنُ وَنَحَاوِلُ إِجْرَاءُ الْعَمْلِيَةُ هَنَاكُ . .
 - _ لا يمكن ...
 - 9 ISU -
- لأنى أريده . . أريد ابنا منك وأريدك أبا لابنى . . أتمنى أن تكون بنتا . .
 ماذا نسميها يا محمد . .
 - وصرخ بأعلى صوته :
- لا تستهزئی بی إلی هذا الحد . . قدری أنی لم أخرج من ملجأ ولا أرید
 لابنی أن یخرج من ملجأ . . إنی منذ وجدتك وأنا أعیش فی فضیحة مستمرة
 لا أرید أن أجنی علی طفل لا ذنب له بفضیحة أكبر . .
 - ونظرت إليه في هدوء وقالت :
- محمد . . هل تحنى . . قل لى بصراحة . . إذا لم تكن تحنى فسأخرج
 من هنا أنا ويطنى ولن ترى أى مشكلة فى حياتك ولن ترانى . .

ظهرك على مسند المقعد . .

وشرب العصير وأراح ظهره وهدأ فعلاً . وبدأ يروى القصة كلها . . من وشرب العصير وأراح ظهره وهدأ فعلاً . . وكانت دولت هادئة طول القصة لم يوم أن تبنيا بثينة إلى أن حملت منه . . وكانت دولت هادئة طول القصة لم تنفعل ولم تقاطعه . وكان هو الذي يقطع الكلام وينظر إلبها في دهشة ويقول : - هل كنت تتصورين أن يحدث هذا ؟ . .

وترد عليه بهدوء :

– أكمل الحكاية . . وبعدها ستعرف ماكنت أتصوره . .

- ا حسل المحكاية . . وصل إلى أن اعترف لها بأن بثينة حامل منه . . ويرغم ذلك لم تفاجأ ، ولم تصرخ ، ولم تثر ، ولكنها . بدأت تتكلم في هدوه . .

- إنى أعرف كل شيء . وقد كنت فرحة عندما بدأت بوسى تجذبك إلى قضاء السهرة في البيت . . كنت أعرف أنى أصبحت بالنسبة لك مجرد إحساس بالوفاه والعشرة والمشاركة في البناء والاطمئنان ، وكل ذلك ليس فيه إغراء لرجل في عز رجولته . ولذلك فرحت بأن بوسى أصبحت هي الإغراء الذي يزيد من ارتباطك بالبيت ، وفي . . وكنت أحس بمدى المعاناة التي تبذلها حتى توقف هذا الإغراء عند حد معين . ولكنك لم تستطع أن تستعرق المقاومة التي تسبب لك هذه المعاناة . وعاشرتها . وأستطيع أن أحدد لك متى بدأت . إنها ليلة أن سمحت لها بالسفر معك إلى الإسكندرية . . كنت أعلم أنك ستبادى معها ولكني لم أكن أقدر أنك ستبادى إلى هذا الحد . . كنت أعتمد أنها ستبق عنى مغراء . . ولكني عرفت أنها لم تعد . إن المسكنة تحاول دائماً أن تختى عنى ولكنها لا تدرى أنى صنعت كل قطعة منها بيدى حتى أصبح من السهل على ولكنها لا تدرى أنى صنعت كل قطعة منها بيدى حتى أصبح من السهل على أن أكتشف كل ما يلم بها . . وقد قاسيت أيامها . . إن ابتي لم تعد عذراء ،

ونظر إليها طويلا ، ثم أسقط رأسه بين كفيه كأنه يهم بالبكاء ، وهمس ؛

- أحبك . . لن تكون لك مشكلة وحدك أبداً . . فقط أتركيني أفكر . .
وتركته وعادت إلى البيت . . وحاول هو أن يجد حلاً . . ليس هناك حل إلا أن يتزوجها . . ولكنه لا يستطيع ليس من حقه . . إن عقد التبني يجعل لها كل أوضاع الابنة ولا يستطيع قانوناً أن يتزوجها . . ياليته اكتني أن يكفلها كما عرضوا عليه في الملجأ . . ولكن دولت أصرت على أن تتبناها . . دولت . كيف يتزوجها والناس كلها تعلم أنها ابنته وابنة دولت حتى لو أجاز القانون زواجهما . . وماذا يكون وأى دولت ؟ أن رأى دولت هو الأهم . . وقام في عصبية مجنونة وذهب إلى البيت ودخل وهو يصرخ . . دولت . . ودولت تهرع إليه في هلع ، وبيئة تحرج إليه من غرقتها فيصرخ فيها :

– دعينا وحدثا . .

ويأخذ دولت إلى غرفتهما ويغلق وراءهما الباب ويلتى بنفسه على مقعد ويتكلم بين أنفاسه المتهدجة :

سأروى لك كل شيء.. وأرجوك أن تحتملي .. إنى أحبك ولولا حبك لما اضطرت أن أقول لك كل شيء .. ولا أستطيع أن أعيش بغيرك وإلا لما كانت هناك مشكلة .. اسمعي ..

وابتسمت دولت في هدوء وحنان وقالت :

– انتظر ثانية واحدة . .

ثم قامت فى عجلة وخرجت من الغرفة وعادت بعد لحظة تحمل كوباً من شراب البرتقال :

- لا تتكلم قبل أن تشرب هذا الكوب . . واجلس مستريحاً . . أرح

عن مصر . . نسافر نحن الثلاثة إلى باريس أوأى عاصمة أخرى وتنزوجها هناك . .

وقاطعها :

- هل سنتز وجها أنا وأنت . .

وقالت مبتسمة :

 آسفة . . أقصد طبعاً أن تتزوجها أنت ويبقى الزواج سراً . . ثم تضع مولودها هناك . . ونبقى في الخارج ستة شهور أوأكثر ونعود وأنا أحمل الطفل على أنى تبنيته من أحد الملاجئ هناك ، وكل الناس هنا يعلمون أنى أريد أن أتبنى طفلاً آخر بعد أن كبرت بوسى . . ومنذ شهور وأنا أذيع بين كل الأصدقاء أنى أريد أن أتبني مولوداً جديداً بل إن أم عطيه الغسالة عرضت على من أيام تبنى طفلة أنجبتها شقيقتها . . المهم سنعود وأنا أحمل طفلك على أنى تبنيته ولن يغير ذلك شيئًا في واقعه فأمه الحقيقية ستبقى معه وأبيو معه ويحمل اسمه . . أما بالنسبة لى فلاشيء تغير أيضاً ، فقد كنت أتبني من الملاجئ ، والآن يمكن أن أتصور أنه أصبح لى ملجأ خاص . . وهو بوسى نفسها . . بوسي أصبحت ملجأى الخاص . . وحتى يكون أولاد هذا الملجأ أقرب إلى قلبي فإنى أتصور أَنَّى أَنَّا الَّتِي كَلَفْتُكُ بِإَنَّجَابِهِم لَى . . إنَّهَا مجرد عملية تلقيح صناعي بشكل خاص . . بما أن التلقيح لا يصلح لى فقد جربناه في بوسي ونجح . . ومن يدري . . ربما بعد سنة أو سنتين نتفق على إجراء تلقيح آخر وأتلني من ملجأي الخاص . . من بطن يوسى . . طفلاً آخر . . اعمل حسابك . . إنى أريده ولدأ . .

وكان يستمع إليها في دهشة . . دهشة لا يدري كيف يفسرها . . ولا كيف

وزوجي هو المسئول . ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل . . إنها تحبك لوكنت قد قاومت حبها فربما أثرت فيها إحساسها بأنها متبناة وليست ابنتي . . وتصورت أنى أضطهدها أو أغار منها فتهرب مني . . وأنت أيضاً تحبها ولو أثرت مشادة معك وحاولتٍ أن أحرمك منها ، فربما زاد إحساسك بأنى لم أعد امرأة بالنسبة لك وأنى أحرمك من حقك في متعة رجولتك فتثور على وتهجرني . . كان كار ما يشغل بالى دائماً هو أن أحتفظ بك وبها . . وماذا يهم ، إنى أعلم أنك كنت تذهب إلى نساء أخريات قبل أن تذهب مع بوسى ، فما الفرق ؟ -بل إنى أحياناً كنت أتصورها كأنها زوجتك الثانية . . إن جدى كان متزوجاً من أربع نساء بجمعهن الأربع في بيت واحد . . لأفترض أني أعيش في أيام حمدى . . ثم حملت منك . . إنى لم أكتشف في الشهور الأولى . . ولم تحاول طبعاً أن تستعين بي . . وليس صحيحاً أنها احتفظت بالحمل متعمدة كما أخبرتك . . ولكنها اعتمدت على صديقاتها في إسقاطه . ولم يكن لديها الجرأة لتذهب إلى طبيب . . وقد اكتشفت حالتها بعد مدة . . وربما اضطرت أن تذهب إلى الطبيب بعد أن وصلت إلى حالة اليأس . . إنها ساذجة في هذه المواضيع النسائية برغم ذكائها المعروف عنها . .

وقاطعها وهو يستمع إليها في دهشة :

– المهم . . ما رأيك . . ماذا تعمل؟.

وابتسمت كأنها واثقة بأنها أعدت كل شيء :

أقول لك الحق . . إنها ابنتى . . برغم كل شيء إنى أحس بها ابنة لى . .
 ولا أريد لابنتى أن تنجب فى الحرام . . ويجب أن تتزوجها . . إنك لن تستطيع أن تتزوجها بعيداً
 أن تتزوجها فى مصر لأن قانون التبنى يمنعك ولكنك تستطيع أن تتزوجها بعيداً

يحكم عليها . . وكيف يحكم على دولت . . إنه لم يكن ينتظر منها كل هذا . . وقال في وجوم :

- إنك نسبت أن تقدرى أنى أحبها . . أنت تحبينها كابنة ولكنى أحبها كامرأة . . إنى أحبها فعلاً . . .

قالت من خلال ابتسامتها الهادثة :

- ما هو الحب . إنه العطاء . وقد أعطتك مالا أستطيع أن أعطيه لك . . أعطتك متعة الجسد وقد انفصلت أنا عنك جسديًّا منذ سنين . . وها هي تعطيك الخلف الذي عجزت أن أعطيه لك . . ولهذا لا أغار منها ، بل أحس كأنها تكمل ما ينقصني . . لو كنت أعطيتك متعتك كرجل وانجت لك لما دخلت بوسي بيتي ولما تركتها تعطيك شيئًا . .

- إذا كان الحب عطاء . . فعاذا أعطيها أنا . . ماذا أعطى بوسي . .

- تعطیها کل ما لا تستطیع أن تعطیه لی . . وأنت لا تستطیع أن تمارس الجنس معی ولا أن تنجب منی . .

مستحيل . . هذا لا يكنى . . إن الحب ليس صفقة تجارية وليس مجرد عملية حسابية يقوم بها العقل وحده . . إن الحب عاطفة . . إحساس . . والعاطفة تعطى أكثر مما يعطى العقل ، أو أن العقل يصبح فى خدمة العاطفة . .

- إنك تحبنى أنا أيضاً يا محمد . . وهم يقولون أن ليس من حق الإنسان أن يحب اثنتين ولكن هذا كلام فارغ . . فإن من حق الإنسان أن يستكمل ما تحتاج إليه طبيعته . . ويأخذ من كل واحدة ما ينقصه من الأخرى . . ويجب أن تعطيما ولكن ليس على حساب ما تعطيم لى . .

- إنك إنسانة مجردة من العاطفة . . ليس لك قلب ولكن لك عقلان ،

عقل فى رأسك وعقل فى صدرك . . وأستطيع أن أكشف الآن أنك منذ اليوم الأول الذى التقينا فيه وأنت تأخذيننى بعقلك . . أخذتنى على أمل أن تحمل وتنجى لأنك لم تنجى من زوجك الأول ولو كنت قد أنجبت منه لما التقينا أبداً . . ثم بعد أن جربت معى ولم تنجى أيضاً بدأ عقلك الذى ينظم ويحدد احتياجاتك يقعك بأن تأخذينى كابن بالتبنى . . إن عواطفك نحوى هى نفس عواطفك نحو بوسى . . عواطف التبنى التى تكنفى بالإحساس بالملكية . . لذلك لم تغار أبداً على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة . . كأى أم ، على رغم أنك كنت تعلمين بكل ما يجرى فى حياتى الخاصة . . كأى أم ، وإلى الأن لا تغارين منها حتى بعد أن حملت منى ، كل ما يهمك هو الحرص على ملكيتك لى وظا . .

وردت محتدة :

- إنك تظلمنى . . إنى أحبك إلى حد أنى أضحى بما يسعدنى الأحتفظ لك
 بما يسعدك . . ماذا كنت تريدنى أن أفعل وأنا أحس بعجزى ونقصى . .
- کنت أرید أن یکون حبك أقوی من عجزك . . ألا تقبل أی وضع بمس
 حبك . . کنت أریدك أن تغاری دائماً وأن تثوری علی . . أن تحفظی باحترام
 حبك كاملاً حتى لو ضحیت بی . . كنت تستطیعین أن تنقذینی من حب بوسی ،
 وتنقذی بوسی من حبها لی منذ بدأت تلاحظین ضعف كل منا نحو الآخر . .
 ولكنك لم تحاولى . . لأنك ضامنة ملكيتك لنا نحن الاثنین . .
 - ماذا كنت تنتظر مني ؟
- لا أدرى . . إن كل ما يهمنى الآن هو مستقبل بوسى . . إن الحب عطاء
 كما تقولين ، والعطاء الذى تحتاج إليه بوسى الآن هو أن تواجه المجتمع بصراحة

وأن يكون مولودها لها وتتباهى به أمام الناس . . لا أريد أن أظلمها وأظلم ابنى معها . . كيف . . كيف . . لا أدرى . .

واقتربت منه ومدت يدها تربت على كتفه وتمسح بأصابعها على شعره الأبيض ، وقالت في حنان :

دعني أفكر لك . . اطمئن . . كل شيء له حل . .

🎉 إنه يرى بأذنيه 🎇

إن محمود شخصية معروفة مشهورة . . إنه مشهور شهرة التابعي بائع الفول ، أو شهرة حامد محمود بائع الأحذية ، أو بنترومولى بائع قطع الأثاث ، أو فلفلة بائعة الطعمية ، أو الشوربجي بائع الملابس الداخلية ، أو شهرة زكى السماك . . شهرة البائع المتخصص الفنان الذي يستطيع أن يخدم الزبون حتى يكسبه ويحتفظ به ، ويستطيع أن يجعل من كل ذبون طعماً يرميه في السوق ليصطاد به عشرة ربائن آخرين . .

ومحمود متخصص في بيع الكأس . .

إنه بارمان . . أو ساق ، بلغة قاموس مختار الصحاح . .

وهو لم يرث هذا التخصص عن أحد من عائلته ، ولم تدفعه إليه هوايته للكأس ، فهو إلى الآن وبعد أن أصبح أشهر « بارمان » فى مصر ، لا يشرب الخمر إنما فقط يذوقها بطرف لسانه كلما أراد أن يتأكد من سلامة زجاجة منها ، أو كلما أرد أن يختبر تركيباً جديداً من تراكيب كؤوس الكوكتيال التي تضم خليطاً من أنواع الخمر . . ومنذ أن كان في بلدته كفر نعيمه مركز طلخا وهو يتخيل لمستقبله مختلف الصور . . يتخيل نفسه ضابط بوليس ، فوطيباً ، أو مدرسا ، أو زعيا سياسياً ، ولم يخطر على باله أبدا أن يتصور نفسه

ساقيا يقدم الخمر، ولم تكن كل دنيا خياله تتسع لمجرد أن يرى نفسه فيها واقفاً في حانة . وحصل على الشهادة الابتدائية ثم بدأ رحلة كل يوم إلى البندر ليصل إلى المدرسة الثانوية . . ولا تزال أحلامه تصور له مستقبله كما كان يراه منذ كان طفلا . . ضابطا . . طبيبا . . مدرسا . . زعيما . . إلى أن وجد نفســـه يعيش المشكلة العادية التي تمر بملايين العائلات . . مات الوالد ولم يترك شيئاً سوى أم وخمسة أخوة ومعاش قيمته خمسيائة وتمانون قرشاً في الشهر . تتسلم منه العائلة خمسانة قرش فقط والباق يذهب إلى الدولة ممثلة في شخص الصراف. . وأصبح مضطرًا أن يعمل ويكسب ثمن وجوده بعرق جبينه ، وكان له قريب لأمه يعمل جرسونا في فندق كبير من فنادق القاهرة ، فذهب إليه لا ليعمل معه في نفس الفندق إنما ليبحث له عن أى عمل في القاهرة التي كانت تمثل له ولكل أهل قريته غابة في الجنة يكفي أن تمد يدك لأي شجرة منها لتقطف ما تشاء . . وهو يريد أن يقطف عملا يكفل له أن يستمر في الحياة إلى أن يصبح ضابطاً أو طبيباً أو مدرساً أو زعماً . . وكل ما كان يتمناه في هذا العمل ألا يستغرق كل يومه حتى يترك له الفرصة ليستمر في دراسته الثانوية . .

واستطاع محمود أن يكسب نجاحاً كمساعد سفرجي أو كسفرجي صغير . . الحال بين رؤسانه ونجاحاً بين الزبائن . . ولكنه وجد نفسه مشدوداً دائماً إلى عالم البار الذي يتولى زعامته الرئيس مهداوي محمدين . . الرجل النوبي الذي سعي عليه وهو يقود البار أكثر من ثلاثين سنة . . منذ أيام الإنجليز . . كان محمود ينظر إلى البار من بعيد كأنه ينظر إلى عالم خارج مصر . . كأنه بمجرد أن عطو داخل صالون البار قد عبر البحر المتوسط وأصبح في أوربا . لا لأن معطم زبائن البار من الأجانب فهم نفس الزبائن في كل مكان من الفندق ، معطم زبائن كل ما في البار يتقلك إلى عالم أجنبي . . الزجاجات الملونة . . الأسماء المحبية . أسلوب المخدمة . . كل شيء ليس فيه شيء من مصر ولا من الشرق . . المحبية ، أسلوب المخدمة الأوربي . . حتى التمثال الفرعوني . الكبير الذي سمه مهداوي في جانب من صالة البار ، واللوحات التي رسم عليها النخيل سمه مهداوي في جانب من صالة البار ، واللوحات التي رسم عليها النخيل المد

جو البار إلى عالم الشرق ، إنها تبدو كتحف معلقة في بيت أجنبي . .

ومحمود يريد أن ينتقل إلى أوربا . . يريد أن يخطو فوق عتبة البار ليصل الى هذا العالم الآخر . . واستطاع بذكائه الربق الذي يخفيه وراء قناع من السذاجة البريئة ويقدمه في كل كأس من خفة الدم المهذبة . . استطاع أن يلفت نظر المبريئة ويقدمه في كل كأس من خفة الدم المهذبة . . استطاع أن يلفت نظر إلما المربئة ويقدمه في البار . لم يكن مساعداً إنما كان مجرد سفرجي يغسل الكؤوس وينقل الزجاجات ويطيع الأوامر . . ولكنه كان دائماً يحصر كل اهتامه في اكتشاف أسرار و المتر و مهداوي . . اكتشاف سر المهنة . . وعرف أسرار الويسكي . . وأسرار الكونياك . . والشمبانيا . . والفود كا . . والجين . . ثم اكتشف أسرار علم الكوكتيل . . اكتشف سر و بلودي ماري والمنطق والفلفل والليمون . . وسر و الأمريكانو و وهو كوكتيل آخر يجمع بين والشطة والفلفل والليمون . . وسر و الأمريكانو و وهو كوكتيل آخر يجمع بين عصير الكمباري والمارتيني والصودا . . و . . و عشرات من أنواع الكوكتيل . . وانه علم كامل صدرت عنه عشرات من الكتب والفهارس ، والأبحاث . .

ومهداوى يعتمد أكثر وأكثر على محمود ، ومحمود يكتشف أكثر وأكثر من أسرار البار ، إلى أن تعب مهداوى وذهب إلى رحمة الله وتولى ولى العهد – أى محمود – مملكة البار فى الفندق الكبير ، وكان قد عرف أن مهمة البارمان ليست مجدد أن يملأ الكأس ويقدمها ، ولكن يجب أن يكتشف الزبون قبل أن يملأ له الكأس . . إن البارمان كسائق التاكسى الذى يركب معه كل ساعة زبون لا يعرفه ، وسائق التاكسى ينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من مكان إلى مكان ، أما البارمان فينقل الزبون من حالة إلى حالة ، فيجب أن يعرف الحالة التي هو فيها والحالة التي يويد أن ينقله إليها . .

وأكثر من ذلك . . لقد بدأ محمود مع الأيام يكتشف أن كل ما كان يحلم • ل صغره ليحققه كمستقبل له أصبح يحققه وهو يعمل بارمانا . . كان يحلم أن بكون ضابطاً للبوليس ، أو طبيبا ، أو زعيا وقد وجد أن كل ذلك يجب أن • ف ق شخصية البارمان وأن يمارس فعلاً اختصاصات الضابط والطبيب والزعم • د بائنه . .

وهو يذكر هذا الرجل الأمريكي الذي جلس أمامه وبدأ يطلب ويشرب ، مبدأ يغني أغانى بذيتة بصوت عال ، ثم قام ووقف أمام محمود وقال في تحد : لن أدفع . . إن خمرك كلها مغشوشة . .

وكان من حق محمود أن يدعو فورا رجال الأمن المتفرقين في الفندق ويقبض مل الرجل ولكنه بذلك يسيئ إلى بقية الزبائن ويفسد جو البار ، والأفضل أن هم من نفسه ضابط بوليس ويتصرف ، فابتسم ابتسامته الجذابة التي تختي خبثه ودال في مرح :

لا يهم . . خذ كأسا أخيرة على حسانى . . انها ليست على حسابى ولكن
 أعالط ق تمنها أصحاب الفندق . . لا أنا ولا أنت سندفع لهم شيئاً . .

وضحك الرجل السكران ورفع كأسه صائحاً :

- يسقط أصحاب الفندق . .

وقال له محمود والرجل يهم بالانصراف بعد أن شرب الكأس :

- هل معك سيارة . .

وقال الرجل ضاحكاً ضحكة مخمور:

نعم . . إنها قريبة . . تركتها في شارع برودواي . . ألسنا الآن في نيويورك . .
 وقال محمود :

انتظر . . سنخرج سوياً . . سأصحبك بسيارتى إلى نيوبورك . . إنها
 قريبة من هنا . .

وقال الرجل :

لا على الفندق لنصلى الله الله الله الفندق النصلى الفندق النصلى السامات . . . إنى أدفع باللكمات . . .

وضحك محمود قائلا:

- وأنا أدفع بالشلاليت . .

ووضع محمود ذراعه فى ذراع السكران وخرج به من البار وظل يضاحكه حتى وصل به إلى قرب الباب الخارجى وأشار إلى اثنين من حرس الفندق فتقدما وقبضا على الرجل قبل أن يقاوم ، وبقيامعه حتى أفاق ودفع الحساب واعتذر .

وهكذا كان محمود يمارس مهمة ضابط البوليس التي كان يحلم بها في سغره . .

ثم بدأ محمود يحس بنفسه كطبيب مستول ، فهو ينقل الزبون بفعل الخمر من حالة إلى حالة . . سواء حالته الصحية أو حالته النفسية . . فيجب أن يتحمل مستولية العلبيب النفساني . . وكان مستولية العلبيب النفساني . . وكان يعتمد في علاج مرضاه على نوع وكمية الكحول الذي يقدمه في الكأس . . وهو لا يستطيع أن يرفض تقديم كأس يطلبها الزبون حتى لو وصل هذا الزبون إلى حالة أقرب إلى فقدان الوعي ، ومع ذلك يصر على طلب كأس أخرى . . والمهم دائماً هو تحديد ما في الكأس من نسبة الكحول . . ومعظم الزبائن لا يستطيعون عصوصا بعد الكأس الأولى تحديد نوع ما يشربونه ، إنما يصبح الأمر كله في يدمحمود ، ولذلك فهو يتعمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول في يدمحمود ، ولذلك فهو يتعمد دراسة نسبة قدرة الزبون على تحمل تأثير الكحول

هاال | بون لا يتحمل أكثر من كأسين ، وزبون يستطيع أن يبتلع عشر كؤوس الهال أن يهزر . وبناء على هذه الدراسة قد تحتلف الكأس الثالثة التي يقدمها محمود م الكأس الأولى . . قد تحمل الكأس الأولى قيراطين من الويسكي ولا تحمل الكأس النالثة سوى قيراط واحد ، ويغطى هذا الفرق بكمية الثلج أو الصودا الى بريدها على الويسكى دون أن يشعر الزبون بأى شيء . . ولم يكن محمود 🦟 نفسه بذلك أنه غشاش أو أنه يسرق الويسكى من أفواه الزبائن ولكنه الحب حريص على حالة مرضاه الصحية . . مرضى الخمر . . وكان يحس بقدرة أكه على التحكم في حالة الزبائن عند تقديم كؤوس الكوكتيل ، بل إنه أصبح ان هواة إعداد الكوكتيل . . إنه يحس بنفسه كأنه صيدلي يعد الدواء المركب لكل الريض . . كوكتيل ا جين فيس ا أي ا الابنة الصغيرة ا المكون من خمر الجين مضاماً إليه الليمون والسكر والصودا . . والكوكتل الفرنسي المترافع الغالي الذي لا يقدم إلا في المناسبات العزيزة . . كوكتيل « رويال مالبيشير ب» المكون من الكونباك وعصير البرتقال وعصير المشمش ثم يخلط مع شمبانيا من النوع القوى الطازح وتزين الكأس من حوله بقطع من فاكهة الموسم . . و . . وصل محمود هـ أن أصبح ملك البار إلى أن أصبح يبتكر أنواعاً جديدة من الكوكتيل تنسب له وبحمد أن يطلق عليها أسماء مصرية وكان أولها كوكتبل نفرتيتي الذي يعتمد في الكوينه على الجين والكوانترو والكمبارى وعصير الأناناس ، وأصبح نفرتيتي منه وبأ عالمياً مسجلاً في كل بارات العالم ومنسوباً إلى اسم محمود . .

وقد اضطر محمود أن يعتمد على نفرتيتي عندما وجد نفسه يوما مضطراً لأن خول بين زبائن البار مسئولية القاضى أو الزعيم الذي يصدر أحكامه تحقيقاً للعدالة ...

كان مصطفى عبد العزيز من بين زبائنه الدائمين ، وهو رجل فى حوالى الأربعين من عمره يبدو وسياً ولكنه يعتبر نفسه أكثر وسامة من حقيقته ، ويهتم بشاربه الرفيع الملتصق فوق شفتيه اهتمامه باختيار رباط عنقه وتلميع حذائه . . وقد يكون ذكياً ولكنه أيضاً يعتبر نفسه أكثر ذكاة من حقيقته ، ويلتى كلماته التافهة كأن كل كلمة تعبر عن حكمة أو اكتشاف جديد . . كان إنساناً مغروراً بنفسه وكان يستمد وقود غروره من اصطياد عجائز السائحات . فهو دائما في البار مع سائحة عجوز قد تسافر بعد بضعة أيام فيظهر مصطفى في اليوم التالى مع سائحة عجوز أخرى يكرر معها نفس التمثيلية » . .

ولم يكن محمود يستريح له أو يستخف دمه وكان يعامله كزبون من الدرجة الثانية ، وقد عرف عنه الكثير . . عرف أنه متزوج ويسكن فى حى شبرا ، وأنه تنقل كموظف بين مجموعة من الشركات ، وأحيانا يعمل كسمسار أو كوسيط فى عمليات تجارية تافهة ، وأنه يعتمد اعتماداً كاملا فى اكتساب دخله على اصطياد السائحات العجائز واستنزافهن . . إنه محترف بيع المتعة للعجائز . .

ولم يكن مصطفى عبد العزيز من مدمنى الخمر . ربما اختار البار كمجال للعمل ، يسهل عليه فيه التأثير على صيده . . وكان لا يطلب لنفسه عادة سوى كأس واحدة يتناولها فى مدة طويلة وبأسلوب معين يتيح له أن يترك المرأة التى معه تشرب فى نفس المدة عدة كؤوس حتى تسكر ويسهل عليه استنزافها. . ورغم ذلك فإن محمود كمادته مع كل الزبائن تعمد أن يختبر قوة مصطفى عبد العزيز على تحمل الخمر ، فقدم له ذات مرة ما يوازى كمية ثلاث كؤوس داخل الكأس الواحدة التى تعود عليها ، فلاحظ أنه بدأ يهتز وقدر بذلك مدى قوة تحمله . .

وفى ليلة دخلت البار فتاة قد لا تتجاوز الناسعة عشرة من عمرها . . جمالها

هادئ .. شعرها ينساب برفق حول وجهها كأنه وجد هكذا دون حاجة إلى من سفقه ، والألوان فوق وجهها كلها ألوان نائمة فى حلم سعيد لا يوقظها منه لون دخيل كأنه وجه مغسول من كل الألوان المزيفة ... وقد خطت إلى داخل المار بعد تردد طويل وأخذت تتلفت حولها فى حيرة وارتباك ، ومحمود يتطلع إليها الملمه إلى أى زبون جديد ، إلى أن اقتربت منه وقالت فى صوت خجول يتكسر بين شفتها :

من فضلك . . هل تعرف مصطفى بيه عبد العزيز . . .

ونظر إليها محمود فى دهشة . . إنها ليست من النوع الذى يمكن أن يسأل من مصطفى عبد العزيز . . كان يمكن أن تسأل عن أى زبون إلا هذا الزبون . . وأحاب وهو يقيسها بين عينيه ليكتشف من تكون لمصطفى عبد العزيز . . ربما كانت أخته . . لا يمكن أن تكون على علاقة عاطفية معه فهى تبدو أنظف من أن تكون على علاقة مع مثله . . أجاب :

- نعم . . أعرفه . .

قالت وهي أكثر تردداً وحياء :

مل یأتی هنا

ولم يكن من طبيعة محمود أن يقبل الإجابة على أى سؤال خاص بأحد من وبالنه . . إنه يحترم دائماً سر المهنة . . ولكنه أجابها كأنه يضع نفسه فى خدمتها : - إنه دائما هنا . .

وعادت الفتاة تتلفت حولها فى حيرة . . وفى هذه اللحظة دخل مصطفى السد العزيز ولمحه محمود من بعيد وهو يبدو مرتبكا عندما وجد الفتاة فى البار وإسندار كأنه يحاول الهرب ، فأشار محمود إلى الفتاة بسرعة فلمحت رجلها

ماذا أعددت . . أعددت فضيحة أم جريمة . .

وبكت وتساقطت دموع صامتة على وجنتي الفتاة وقالت :

- ارحمنی یا مصطفی واسمع لی . .

وتفدم محمود بسرعة بعد أن رأى دموع الفتاة قائلا :

- أستاذ مصطفى . . اسمح لى أن أقدم لك نفرتيتى . . إنى أحتفل اليوم البلادها . . فى مثل هذا اليوم ولدتها وجعلت منها أجمل كوكتيل فى العالم . . الله الزبائن يجب أن يحتفلوا بنفرتيتى . .

وقال مصطفى وقد بدأت كأس الويسكى تهز لسانه :

- عجيبة . . لم أوك أبدأ كريماً إلى هذا الحد . .

وُجَاهِلُهُ محمودُ وَالْتَفْتُ إِلَى الْفَتَاةُ قَائِلًا :

والآنسة أيضا . . يجب أن تحيى معنا نفرتيتي . .

ونظرت إليه الفتاة في ارتباك كأنَّها لا تفهم ماذا يقول وأطلق مصطفى ضحكة صاحبة قائلا :

اشربي . . لقد أصبحت أنت أيضا من زبائن البار . .

وغاب محمود لحظات وأعد الكؤوس كما أرادها . . الصيدلى الذي قرر أن بكشف دواء للكذب . .

وشرب مصطني . .

لم مد يده وغصب الفتاة على أن تشرب . . لم تكن هذه هي عادة مصطني ولا كانت من عاداته أن يتصرف تصرفا مفضوحاً . . ولكنه تأثير نفرتيتي . . وقالت الهناة وهي تبلع الكأس :

- إسمعني . . لقد كنت تقول إنك تنتظر حتى تجمع من المال ما يكفينا . .

الهارب وجرت إليه . .

وعاد مصطنى عبد العزيز مع الفتاة إلى البار وسمعه محمود وهو يقول لها :

- لا شك أنك جننت . . منذ متى تعودت دخول البارات . .

وقالت الفتاة وصوتها كأنه تأهب للبكاء :

- جنت أبحث عنك . . يجب أن ننتهى إلى حل . .

وقال لها :

لا يمكن أن نجد الحل هنا في البار . . إنى في انتظار بعض الأصدقاء
 الآن لنتحدث في عمل . . اذهبي الآن . . ونلتى غدا . .

ومحمود يستمع له وهو بعيد عنهما . . لقد عود أذنيه على الاستاع من بعيد ويستطيع أن يوجهها في أى اتجاه ليسمع ما يريد . . كأنهما عيناه . . إنه يرى بأذنيه . . ومنذ تفرغ للبار انقطع عن دراسته الثانوية وأخذ يتردد على المعاهد الخاصة ليدرس الإنجليزية والفرنسية والألمانية أيضاً حتى يفهم كل ما يدور حوله من أحاديث الزبائن . . ومن خلال أذنيه رأى الكثير . . رأى صفقات تعقد ، ورأى حوادث حب ، ورأى سرقات . . ورأى . . ورأى . . وهو يرى الآن بأذنيه هذا الرجل وهذه الفتاة . . والرجل يكذب عليها . . إنه ليس هنا للقاء أصدقائه . . إنه هنا ليزاول مهنة بيع المتعة لعجائز النساء . . وهو يستطيع أن يقدم لهذا الزبون الكاذب كأسا تدفعه إلى الصدق . لا تكذب . . كاسا تدفعه إلى الصدق . لا تكذب . . ورفع من كمية الويسكى التي تعود أن يقدمها لمصطفى ثم أضاف إليهانقطتين من مشروب الجين وقدم الكأس والفتاة تقول :

- لم أعد أحتمل الغد . . لقد أعددت كل شيء . .

وشرب مصطنى الكأس وقال ساخراً :

لقد جمعته أنا . . أخذته من البيت وجئت به إليك . .

وقال مصطفى وقد التوى لسانه :

 إن كل ما في بيتكم لا يكني خطوة واحدة نحو المأذون . . ولو كان مأذون كلاب . .

ثم شد حقیبتها وفتحها والتقط ما فیها ثم صرخ ضاحکاً ضحکة سکری اثلا :

خمسون جنيها . . ها . . ها . . هل تعرفين كم أخرج في الليلة الواحدة من أي سائحة . . مائة . . مائتين . . أكثر . . .

وقامت الفتاة وقد بـــدأ لسانها هي الأخرى يرتج :

لا أعلم يا مصطفى . . ماذا تقصد . . هذا كل ما وجدته فى البيت . .
 وقال السكران :

 البيت الذي ليس فيه إلا خمسون جنبها . . خرابة . . وأنا لن أنز وج ولو كان في بيتك ألف . . كفانى زواج . . الولية في بيت شبرا مطلعة ديني . .

وصرخت الفتاة : – هل أنت متزوج . . متزوج يا مصطفى . . خدعتنى . . ماذا أفعل الآن . . وقام مصطفى مترنحا من فوق مقعد البار ، ووضع الخمسين جنبها فى جيبه وقال مترنحا :

عودى إلى بيتك إلى أن تجدى شيئاً آخر ثم نعود ونفكر . .
 وانطلقت الفتاة وهي تصرخ :

خدعتني . . يا مجرم . . يا لص . .
 ثم رفعت كفها وصفعته بكل قواها . .

وابتسم محمود وهو خلف البار لهذه الصفعة ، ثم قفز نحو الفتاة والرجل وأمسك بهما فى رفق وقاءهما إلى خارج البار ، وقال هامسا لمصطفى :

كن هادثا . . رجال الأمن وراءنا . .

واحتقن وجه مصطنى بالذعر وانقاد إلى محمود ومعه الفتاة ، وفى زاوية معبدة خارج البار استطاع أن يحقق العدالة . . وكانت العدالة التي أرادها عن طريق نفرتيتي هي أن تكتشف الفتاة حقيقة مصطنى . . وقد اكتشفتها . .

هكذا كان محمود . البارمان المشهور . . ساق الخمر . . عيناه في أذنيه . . المقدم إلى أن بدأت أذنا محمود تتجهان إلى زبونه رفعت عبد اللطيف . . المقدم رفعت عبد اللطيف . . وهو زبون قديم وإن كان يعتبر من زبائن الثورة ، أى الزبائن الذين لم يظهروا إلا بعد الثورة وتقاس قيمة كل منهم بقيمة مركزه بالنسبة للثورة . . . وهو زبون للبار طالما ظل محتفظا بمنصبه ، فإذا ترك المنصب نرك البار . .

وقد لاحظ محمود أن المقدم رفعت أصبح يلتني كل ليلة داخل البار مع صديق لم يكن أبدا من زبائن البار . وعرف أن هذا الصديق هو أيضا ضابط . . ومع الوقت سمع اسمه . . سعيد المر . . وكانا يجتمعان مستندين على حافة البار ناحية الركن البعيد . . وكان حديثهما غالبا أقرب إلى الهمس حتى كان محمود سطر أن يبدل مجهوداً كبيراً ليلتقطه بأذنيه ، وبدأ يتعمد أن يرفع من نسبة الكحول أو يضيف إليه عناصر أخرى حتى يرفعا صوتيهما فيسهل سماعهما . . ولم يبدأ اهتمامه بتوجيه أذنيه إليهما لمجرد أنهما من رجال الجيش ، ولكن لأنه سمع مهما بالصدفة كلمتين أثارتا حيرته وأثارتا مع الحيرة شهوة الاستماع واكتشاف الأسرار .

- لازم نخلص . . ونخلص بسرعة . .

وأجاب الرائد سعيد المر :

- السرعة ليست في صالحنا . . كل الدواهي سببها التسراع . . وفي ليلة أخرى قال المقدم رفعت :

– الراجل بتاعنا اقتنع . . لم يبق إلا تحديد الموعد . .

وسمع الرأئد سعيد يقول : – الجماعة بتوع سوريا مستعدين . . كنت معهم منذ ساعات . .

وبدأ محمود يقتنع بأن هناك مؤامرة تدبر . . ربما انقلاب . . ربما عملية اغتيال . . وليس غريباً أن تتم لقاءات المتآمرين فى بار . . بالعكس . . إن حوادث خطيرة وهامة ترسم داخل البارات . . فهنا – فى البار – يأمن المتآمرون من عدم إثارة الشبهة . . لا أحد يمكن أن يتصور أن اجتماعاً خطيراً يمكن أن يعقد فى بار ، ولا حتى رجال البوليس . . فقط رجال المخابرات الذين يمكن أن يكتشفوا أسرار البارات . . ومحمود ليس من رجال المخابرات . . ولا يدرى إذا كان بين زبائته مخابرات ، أم لا . . وإذا كان هناك رجال مخابرات فهل تنبهوا إلى هذه المؤامرة أم لا . . وأذناه لا تكفان عن تتبع المقدم رفعت عبداللطيف والرائد سعيد المر وتلتقطان تفاصيل كثيرة خطيرة لا يدرى كيف يتصرف فيها . . إلى أن سعم الرائد سعيد المر يقول ذات ليلة للمقدم رفعت عبد اللطيف :

- غدا سننشر فى الصحف حكاية الجاسوس الإسرائيلي الذى اكتشفناه . . من باب التغطية . . وسيستمر النشر . . وقد تتم العملية يوم الرابع أو الخامس من الشهر القادم . .

وأجاب المقدم رفعت :

التحركات كلها حددت . . وعلى بركة الله . . .

والدماء تغلى فى عروق محمود . . إنه لا يدرى ماذا يفعل بكل هذا الذى يسمعه . . برى بأذنيه . . برى مصر تنقلب أمام عينيه . . ربحا كان من الخير له أن يتجاهل كل هذا الذى يسمعه . . ماله ومال البلاوى . . وأعد لنفسه كأساً من عصير النعناع المركز حتى يهدئ أعصابه . . وبال البلاوى . . وأعد لنفسه كأساً من عصير النعناع المركز حتى يهدئ أعصابه . . بجب أن يقنع نفسه بأن كل هذا لا يهمه ، وليس من اختصاصه أن يهمه . . إله ليس مخابرات . . وهو يسمع أن البلد كلها غارقة فى بحر من المخابرات . وبكنى الاتكال على المخابرات . .

ولكنه فى صباح اليوم التالى فتح الصحف إنها كلها تنشر حكاية الجاسوس الإسرائيلى . . إن الخطة تأكدت . . كل ما سمعه يحدث . . لم يبق إلا أيام وتم العملية . . حاذا يفعل . . كيف يتصرف . . إنه لا يريد أن يقوم انقلاب فى مصر . إن مصيبة جديدة لن تحل المصيبة القائمة . . والبلاوى لا تحلها البلاوى . . ونعرة الفلاح الشهم تملأ كل إحساسه وتقرص كل أعصابه . . ورعم ذلك كله لا يدرى ماذا يفعل . .

إلى أن دخل إلى صالة البار بهجت شكرى. إنه ليس من زبائن البار ولكنه بردد عليه في فترات متباعدة كلما جاء إلى الفندق في إحدى المناسبات . . وهو يعلم أنه يحتل مركزًا هاما في مكتب الرئاسة . . ربما كان مدير مكتب . . أو سكرتيرًا خاصًا . . أو مستشارًا . . المهم أنه في أحد أركان الرئاسة العليا . . وهمس محمود في أذنه وهو يقدم له الكأس :

أرجو أن تسمح لى بلقاء . . إنه موضوع هام . .
 ورد بهجت ضاحكاً :

إنك هكذا ملك الدنيا يا محمود . . فماذا تريد أكثر . .
 وقال محمود وهو يتطلع حوله حتى يتأكد أن المقدم رفعت لم يصل بعد :
 إنه موضوع لا يتعلق بى . . يتعلق بالبلد . . بالمصير . . وأفضل أن أراك فى مكتبك . .

ونظر إليه بهجت شكرى نظرة جادة كأنه قدر أن يكون الأمر خطيرًا فعلا ، ثم قال وهو يحتفظ بابتسامته :

- هل يهون عليك البار تتركه بعد نصف ساعة . .

وقال محمود كأنه فوجئ بسرعة تلبية طلبه :

- ألا يمكن أن أتركه غدًا صباحًا . .

وقال بهجت وقد اتسعت ابتسامته أكثر :

- إذا كان الموضوع متعلقا بالمصير فلا يحتمل التأجيل إلى الغد . . سأكون في انتظارك في مكتبي بعد نصف ساعة وسأترك تعليات بإدخالك فورًا . . أمثالك ميا محمود لا يؤجل لهم طلب . .

ثم قام بهجت شكرى وانصرف بسرعة خارجاً من البار ..

واستقبله حارس من جنود الجيش . . صحبه إلى مكتب ضابط من ضباط الحبش . . وصحبه الضابط إلى غرفة صغيرة ليس فيها أحد وليس فيها مكتب . . للها غرفة انتظار . . وتركه الضابط وحيدًا وخرج وأغلق الباب وراءه . . ومصت أكثر من نصف ساعة ومحمود لا يزال وحيدًا ، وأعصابه تتمزق ، وأنفاسه نصيق وأوهام كثيرة تملأ رأسه . . وفجأة فتح الباب ودخل بهجت شكرى . . دخل مرحبًا مبتسماً وهلل في مرح :

آسف . . تأخرت عليك . . ألم يقدموا لك شيئا . . هل تريد كأساً من
 الوبسكى . . إنك الآن الزبون وأنا البارمان . . اطلب ما شئت . . وإن كنت
 لي أستطيع أن أخدمك قدر خدماتك لنا . .

وقال محمود وهو يبتلع توتر أعصابه ويحاول أن يتجاوب مع ابتسامة بهجت : - ألف شكر . . أريد أن أقول ما عندى وأعود إلى البار . . تأخرت كثيرًا . . وقال بهجت فى تواضع :

- آسف یا متر محمود لأنی أخرت عودتك . . احك لی . .

وبدأ محمود يحكى ، وربما كان قد قرر أن يكون حربصًا فى كل كلمة يقولها .. ألا يقول كل شيء .. وألا ينهم أحدا .. ولكنه ما كاد ينطق حنى غلبه حماسه ، وسيطرت عليه فكرة محاولة إنقاذ مصر من انقلاب آخر ، وانطلق بروى كل شيء .. يصف كل ما رآه بأذنيه ...

وظل شكرى يستمع إليه صامتًا دون أن يرفع إليه عينيه . . ثم بدأ يسأله أسئلة كثيرة قصيرة :

منذ متى بدأت تسمع هذا الكلام .
 وبجيب محمود فى حماس :

- منذ أكثر من شهرين . .

ويُسأل بهجت : __

- ألم تر أحدًا ينضم إليهما في هذه الأحاديث . . ؟

ويرد محمود :

 لا . ولكن الرائد سعيد المر كان دائماً يبقى قليلاً ثم ينصرف فى خطوات سريعة كأنه على موعد آخر . وتتوالى أسئلة بهجت شكرى وترتفع درجة حماس محمود فى إجاباته . . إلى أن استأذن بهجت :

عن إذنك يا محمود . . سأعود إليك ..

وتركه وحيدًا والباب مغلق عليه . .

وَمَضَتْ نَصِفْ سَاعَةً . وبدأ محمود يتململ . ونصف ساعة أخرى وبدأ ينهار . لعلهم سيتركونه هنا إلى الأبد . لعله مسجون . لعلهم نسوه . وحاول أن يفتح الباب فاكتشف أنه مغلق بمفتاح أو ترباس . . ودق بيده على الباب . . وفتحه . ضابط من ضباط الجيش . . لقد وضعوا عليه حارسًا . . وقال الضابط في رفق :

– هل تريد شيئاً . .

وقال محمود في رعشة :

– أريد أن أخرج من هنا . .

وقال الضابط في رفق :

بعد قليل بإذن الله . . السيد بهجت مشغول قليلا . .

ثم عاد وأغلق عليه الباب . .

والساعة قد وصلت إلى الثالثة صباحاً . . ووصل محمود إلى حد الانهيار . . إنه جالس على المقعد ورأسه بين يديه كأنه يودعها قبل أن تقطع . . إنه يعلم

الله والاه الناس . . إنهم يذبحون كل من يعلم شيئًا عن دنياهم حتى لو كان الله القاد هذه الدنيا . . آخر خدمة الغز علقة . . وهو الآن في انتظار العلقة . .

الع اللهي . .

وفحأة فتح الباب

ودحل بهجت شكرى . . وقفز محمود كأنما لسعته النار عندما رأى اثنين العملان معه . . المقدم رفعت عبد اللطيف والرائد سعيد المر . . وارتعش . . لم يعد العمليم الوقوف على قدميه فسقط على مقعدة كأنه انتهى . .

وقال بهجت شكرى في هدوه :

- أرجوك يا محمود أن تعيد ما سمعته منك . . لا تخف . . إنه فقط أسلوب المواحهة في التحقيق . .

وقال محمود ولسانه يتلعثم مع تمزق أنفاسه :

- أنا لم أتهم أحدا . . إنى فقط قلت كلاماً سمعته . . لم أقصد شيئاً . . لم أقصد شيئاً . .

وعاد بهجت يكرر أمامه بعض ما قاله . . وهو يهز رأسه أحياناً . . وأحياناً يعود ويقسم أنه لا ينهم أحدا . . وغيناه زائغتان . . تتنقلان فى فزع بين المقدم رفعت والرائد سعيد . .

ثم بدأ الرائد سعيد المر يتكلم ويسأل محمود :

- ألا تذكر الرجل الأمريكي الذي كان يدخل البار كل مساء . .

وقال محمود وهو يطوى نفسه في مقعده :

– أى أمريكى . . إنهم كثيرون وقال سعيد المر . . الحربي ... هكذا بلا محاكمة ، ولا حتى مجرد تحقيق داخل السجن . كلهم

وفجأة ظهر محمود داخل البار . .

وهو يقبل على الزجاجات والكؤوس في لهفة كأنه فنان يعود إلى فرشاته وألوانه العد غيبة طويلة . .

واستقبله الزبائن بالتهليل ، ولكنه يتلقى تهليلهم بابتسامة باردة كأنه لا يسمعهم .. in Y 2 may balk . .

إنه يضع في كل أذن من أذنيه قطعة ثقيلة من القطن فوق قطعة من الصمغ كأنه كان يضع فوق عينيه غمامة سوداء...

لم يعد يرى بأذنيه . .

وبدأ يعود زبائنه على أن يقدموا طلباتهم بالإشارة أو يفهم ما يطلبونه من حركات

وجاء بهجت شكرى ذات ليلة إلى البار وأخذ يبحلق في محمود طويلا ثم أشار إليه ليتقدم نحوه وبدأ يتكلم . . قال له :

 أعترف أننا ظلمناك يا محمود . ولكن الرئاسات أحيانا تضطر إلى الظلم . . وقد كانت المعلومات التي قدمتها لنا صحيحة . . وكان يجب أن نكافئك على شهامتك ووطنيتك ، ولكن الخطةالتي وضعناها كانت تفرض أن نظلمك وأن نَقَدُفَ بِكَ فِي عَمْلِيةِ انتخارية كأبطال الحروب . . فلو أننا تحركنا للقضاء على المتآمرين فربما وقعت مصيبة فى الجيش لأنهم كلهم من الشخصيات الهامة التي كانت مسيطرة . . وفي الوقت نفسه كنا نريد أن نتركهم يعلمون أننا اكتشفنا

- اسمه بيتر برسون . . لاشك أنك تعرف اسمه . .

وقال محمود : - أول أمس على ما أعتقد . .

وقال سعيد المر :

وقال محمود :

- نعم أعرفه . . وعاد سعيد المر يقول

متى أسافر بيتر هذا؟

- ألم تلتق معه في حديقة الفندق مساء الثلاثاء الماضي . .

- إنه زبون صديق كبقية الزبائن . .

والتفت سعيد المر إلى بهجت قائلاً :

- كما قلت لك . . إنه تخطيط أمريكي . . والهدف واضح . . إثارة الانقسام في الجيش . .

> وهز بهجت رأسه موافقاً ، ثم خرج الثلاثة من الغرفة . . وفي الصباح وجد محمود نفسه في السجن الحربي . .

ومضت أربع سنوات ومحمود مختف عن البار ، وكل الزبائن يعتقدون أنه سافر للعمل في الخارج . . وتتعدد القصص والحكايات . . إنه في باريس . . إنه في أسبانيا . . إنه في أستراليا . . لقد تزوج من أمريكية . . لقد أصبح مليونيراً وافتتح بارا في هونولولو . . ولم يخطر على بال أحد من الزبائن أنه ملتى في السجن

مؤامرتهم لأننا لا نصدق ما اكتشفناه . . لذلك تركناهم يواجهونك ثم قبضنا عليك حتى نؤكد أننا لا نصدقك . . وقد نجحت الخطة . . فإنهم اضطروا أن يؤجلوا المؤامرة وأن يبدأوا فى وضع تخطيط جديد وهذا ترك لنا الوقت الكافى حتى نصفى المتآمرين واحداً بعد الآخر فى هدوه دون أن نعرض للجيش لأى ضجة أو انقسام . . أتدرى أين الرائد سعيد المر والمقدم عبد اللطيف . . إنهما حيث كنت . . فى السجن الحربى . .

وانتظر بهجت شكرى أن يتكلم محمود . .

لم يلاحظ بهجت شكرى أن محمود يسد أذنيه . . لم يعد يسمع شيئاً . . لم يعد يسمع شيئاً . . لم يعد يرى بأذنيه . . لقد اكتشف طريق السلامه . . ألا يسمع حتى لا يرى . .

🎉 الصيد في بحر الأسرار 🎇

عزيزى الأستاذ . .

أنا أحد أعضاء السلك الدبلوماسي . . وفي صيغة أكثر تواضعاً ، أنا موظف احدى السفارات العربية . . ولا يهم أن أحدد لك الدولة التي تنتمي إليها هذه السفارة ، ولا في أي عاصمة من عواصم العالم تقع ، فأنا لا أكتب لك لأدلعك إلى إثارة قضية عامة أو قضية سياسية ، كما أني لا أكتب لأشهر ببلدي أو بأحد من الناس . . إنما أكتب لأني تعودت أن أقرأ لك منذ كنت طالبًا عند كم مر ، وكنت أقدر أنك فيا تكتب تعرض الواقع كما هو دون أن تفرق بين ما يمكن أن يقال علناً ويشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده . . أي ربما كنت ويشر على الناس . . وربما كنت تقصد ذلك أو لا تقصده . . أي ربما كنت مرور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك . . لا لأستعين بك على مور الواقع أعتقد أنها لم تطرأ على بالك ولا مرت بخيالك . . لا لأستعين بك على مور الواقع ، أو على الأصع – أريد أن أخفف عن نفسي بعض ما أحمله من هذا الواقع ، أو لعلى أكتب لأجرب نفسي ككاتب قصة . .

سمعنی یا سیدی .

إن منصبي الرسمي في السلك الدبلوماسي عو منصب وزير مفوض . .

فى خلال عامين ائنين ارتقيت من سكرتير ثان إلى وزير مفوض . . و يمكن أن تفدر ذلك على أنه اعتراف بثقافتى وكفاءتى ، فإنى أعتبر واحدا من قسم الطبقة المثيقة الضيقة التى يضمها مجتمع بلدى . . كما أنى لا شك أمتاز بمستوى عال من الكفاءة ، وأنا لست واحداً من أفراد الطبقة الحاكمة . . وهى طبقة أترك لك الخيال فى أن تتصورها فى شكل عائلة حاكمة ، أو فى شكل مجلس قيادة ثورة . . ورغم أن أبى مجرد تاجر عادى يعيش حياته فى دكان صغير داخل السوق ، لا أنى منذ صباى استطعت أن أثبت وجودى بين أبناء الطبقة التى تحكم ، ثم استطعت أن أستمر فى تعليم نفسى حتى تخرجت فى كلية الآداب ، قسم للم استطعت أن أستمر فى تعليم نفسى حتى تخرجت فى كلية الآداب ، قسم الفلسفة ، جامعة القاهرة . . فأنا أعتبر نفسى الفيلسوف الوحيد فى بلدى . . ورغم ذلك وحتى أكون واقعياً فإنى لا أعتبر نفسى الفيلسوف الوحيد فى بلدى . . ورغم فى هدده القفزات السريعة التى قفزتها فوق مناصب السلك الدبلوماسى . . السبب فى تقديرى هو الخدمات التى أؤديها . . وحنى أكون أكثر صراحة معك فيمكنك أن تسميها خدمات شخصية . .

إن مهمتى الرئيسية داخل السفارة بجانب المهام الرسمية الأخرى هى ما يسمى « العلاقات العامة » ولكنى تخصصت فى جانب خاص من هذه العلاقات ، وهى العلاقات النسائية . . علاقات مع نوع معين من النساء . .

هل فوجئت ؟

هل دهشت ؟

ياً صديقي إن العلاقات النسائية تمثل جانباً هاماً رئيسياً من نشاط أى سفارة من سفارات العالم ، وهي – ولا شك أنك تعلم – علاقات تستغل إما لتجنيد بعض النساء للتجسس لحساب الدولة ، وإما لتوفير المتعة لبعض الشخصيات

الكبيرة من أهل البلد الذين يزورن السفارة أثناء أداء مهامهم الرسمية في الخارج . . . فقط من باب إكرام الضيف . . ومهمة العلاقات النسائية إما أن تتولاها مكاتب المخابرات الملحقة بالسفارة ، وإما أن تتولاها السفارة نفسها عندما لا يكون بها مكتب مخابرات ، كسفارتنا . .

هل تذكر الضجة التي قامت في القاهرة عندما أعجب المرحوم الرئيس سوكارنو بإحدى فتيات فندق هيلتون ، وطلب أن تلحق به بعد سفره ، ورفضت الحكومة المصرية الساح لها بالسفر . . هذه القصة منذ بدايتها كانت لا يمكن أن تتم إلا تحت إشراف الجهاز الدبلوماسي الذي يتبع الرئيس سوكارنو ، والخطأ الذي وقع فيه هذا الجهاز هو أنه ترك القصة تعرف بين الناس ، وهو نفس السبب الذي جعل الحكومة المصرية ترفض السهاح للفتاة بالسفر ، مداراة وتغطية للفضيحة حتى لا تصبح قصة دولية ، وإلا فلا أعتقد أن أي دبلوماسية كانت تضحى بصداقة زعيم عالمي كالمرحوم سوكارنو من أجل فتاة عاملة في فندق ، وأن سوكارنو كان مشهورًا عالميًا بأنه زير نساء . . وأكثر من ذلك . . ألا تذكر القصص الكثيرة التي عرفت ونشرت عندكم عن النساء اللاتي كن يقدمن إلى بعض الشخصيات العربية الزائرة ، وقيل إنه كان من بينهن بعض الفنانات المشهورات وكانت تعد لهن آلات تصوير سرية تلتقط مواقف خاصة جارحة لهذه الشخصيات وهم في حالات شاذة مع هاتيك النساء . . إن ما أعرفه أن هذه العمليات لم تكن مقصورة على الشخصيات العربية فحسب ، هناك شخصيات غير عربية أيضاً . . شخصيات عالمية تضم الغرب والشرق . . المهم . . إن ما يشغل فكرى كلما تذكرت هذه القصص هو أن أتساءل : أين ذهبت الصور الفوتوغرافية التي التقطت . . إن صورة واحدة منها يمكن أن تكون أداة ابتزاز لملايين من

العملات الصعبة .. ولكنى أقدر أن هذه الصور إن لم تكن قد أعدمت فإنه يحتفظ بها في أعماق بثر الأسرار حرصاً على العلاقات الدبلوماسية .. المهم أن كل هذا كان يحدث نتيجة عجز السفارة التي تتبعها الشخصية العربية أو غير العربية ، فإن أى شخصية لما قيمتها عندما تسافر إلى الخارج تصبح في جماية السفارة .. ليست الحماية السياسية فحسب بل أيضاً الحماية الاجتماعية والحماية من النزوات الخاصة ، أى أن من حق السفارة أن تتدخل في اختيار الزائر لمجال محارسة خياته الخاصة ، فإن الحياة الخاصة هي الباب السهل الذي تتدخل منه أجهزة التجسس والمخابرات الأجنبية ..

أريد أن أقول لك إن تخصصى فى العلاقات العامة الخاصة بالتعامل مع النساء ، ليس عملاً مشيئاً ولا ينطبق عليه اللقب الذى تستعملونه فى مصر وهو لقب وقواد و . . لا . . ابصقها من فعك . . فإنه تخصص تفرضه المصلحة الوطنية التى تتطلب حماية الشخصيات الهامة فى بلدك رغم أن دوافع تصرفات هذه الشخصيات التى تتطلب الحماية كلها دوافع شخصية رخيصة لا علاقة لها بالوطن ولا بالوطنية . .

وصدقنى عندما أقول لك إنى لم أبدأ باختيار هذا التخصص ولا كان يخطر ببالى ولكنى وجدت نفسى فيه . . وعندما عينت فى السفارة كسكرتير ثالث كنت أصغر أعضاء السفارة سناً ، ولا أبالغ إذا قلت إلى كنت الصورة الأكثر وسامة وانطلاقاً بينهم ، فإن حياتى الطويلة فى مصر ورحلانى إلى الخارج جعلت منى شاباً يتميز بقبول اجتماعى أكثر من أى شاب فى بلدى . . أنا لست مغرورًا ، وأنت لا تعرفنى ولن أفصح لك عن اسمى أو شخصيتى حتى أتباهى أمامك بالغرور . . ولكن هذا هو الواقع . . وقد فوجئت منذ وصلت إلى العاصمة التى تضم السفارة

بالحياة الجنسية المفضوحة التي تعيشها هذه العاصمة . . وهي حياة مخصصة ليعيشها السياح والأجانب . . إن أحد العناصر الرئيسية في عملية التنشيط والدعامة السياحية التي تتبعها كل بلاد العالم السياحية هو عنصر الجنس . . ولذلك فإتى أنصح وزارة السياحة في مصر أن تقاوم الدعوة التي نسمع عنها والتي تدعو إلى إغلاق ملاهي شارع الهرم ، كما أنصح بوليس الآداب المصرى ألا يفرض تدخله في هذا المجال و أن يتبع اللوائح الخاصة بنوادي القمار . . فالقمار في مصر وفي كثير من الدول السياحية لا يسمح بممارسته إلا للأجانب ، أي للسياس ، المماذا لا يطبق على ممارسة الجنس ما يطبق على ممارسة القمار ، وكلاهما حرام ، وكلاهما رجس من عمل الشيطان . . أعرف أنك تلوى شفتيك امتعاضاً وأنت نقرأ هذا الكلام ، ولكني أعتبرك كاتباً واقعياً وأحاول أن أشدك إلى مزيد من الواقعية . . إلى منتهى الواقعية . . على كل حال فقد فوجئت بهذه الصراحة التي يعرضون بها الجنس في هذا البلد . . في الحانة رأيت عشرات البنات يقفن عاريات فوق البار الذي يجلس حوله الزبائن ويرقصن رقصات أشبه بالدعوات البذيئة . . وعندما دخلت نادياً ليليًّا أى اكباريه ؛ وجدتهم يضعون النساء خلف نافذة زجاجية كأنها وفترينة وكان لبيع الأحذية تقع فى جانب وراء صالة العرض وكل زبون يدخل وينتني الحذاءالذي يعجبه أقصدالمرأة الني تعجبه ليأخذها ونجلس معه على مائدته ، وفي الحمامات الساخنة المخصصة للتدليك نفس الشيُّ . . نساء خلف فترينة زجاجية تنتقي من بينهن من تريد أن تدلك عضلاتك. محلات تجارية تعرض بضاعتها في فترينات زجاجية كما تعرض الأحذية واللحوم في دكاكين بلادنا . . وعلى قدر ما فوجئت إلا أنى اكتشفت فيا بعدأن هذه الوسيلة من وسائل العرض تنكر ر في أكثر من بلد سياحي ، بل إني رأيت الوسيلة نفسها تتكرر في ميناء هامبورج بألمانيا

وبعدها بأيام استدعائي السفير وقال لي ضاحكاً :

- يبدو أن البلد أعجبتك جداً . .

قلت :

جداً يا سيادة السفير ، ولكنى مازلت في مرحلة الاستكشاف . .

وقال وضحكته تعلو :

إنك على الأقل اكتشفت حتى الآن أجمل نسائها ، لقد رأوك أمس
 مع فناة قالوا إنها رائعة . . حلوة . . نجنن . .

قلتِ وأنا أرد على ضحكته بابتسامة :

– عرفتها مصادفة و . .

وقاطعني قائلا:

- دع الصدف تشملنا . . ادعها الليلة . . ونسهر معاً . .

قالها بساطة كأنه بلقى على أمراً إدارياً . . وقد دعوت الفتاة بالفعل وخرج معى للقائها السفير وحده بعد أن كانت الشخصية الكبيرة الزائرة قد سافرت . . وعرفت خلال هذه الليلة أن كل ما هنالك أن السفير يريد أن يرفع الكلفة بينى وبينه ، وأنه يريد أن يشركنى فى هذا الجانب من أعمال السفارة الذى كان هو نفسه يعانى منه من طول ما تحمل من مسئولياته ولعجز باقى موظنى السفارة عن مزاولة العلاقات النسائية بمستوى راق . . كان السفير يريد أن يمنحنى فرصة التجربة ليختبرنى . . وهى ليست فرصة سهلة ، إنما فرصة تعطيك الحق فى أن تسميل وتحتفظ بكثير من الأسرار الشخصية الجارحة التى تشمل أكبر شخصيات الطبقة الحاكمة فى بلدك . .

الغربية . وصدقنى أنها وسيلة قرزتنى ولم أترك نفسى أبداً تنجذب إليها . كنت أحس أنى لو أخدت واحدة من هاتيك النساء فكأنى وقفت معها أمام الناس داخل الفترينة . . ولكنى كما قلت لك درست الفلسفة وهوايتى اكتشاف أعماق الشخصية الإنسانية وهو ما دفعنى إلى التعرف إلى كثيرات من هذا الصنف من النساء ، وهذا الصنف قادنى إلى صنف أرق لا يعرض فى الفترينات . . وكنت قادراً على أن أجمع بينى وبين كل واحدة منهن بنوع من الصداقة أرق من الجنس ، بل إنى أعطيت نفسى حق الظهور معهن بعيداً عن مجال عملهن فى دعوة إلى الغداء أو فى رحلة خارج العاصمة . .

. . ولما

وكان هذا الحادث هو أول ما فتح ذهني إلى مجال تخصصي . .

ونجحت في التجربة .

واكتسبت ثقة السفير واعتماده على ، بل إن السفير أصبح فى يدى لأنه هو الآخو له أسرار شخصية جارحة حصلت عليها من خلال العمليات التي كنت أقدمها له واحتفظت له بها فى بثر الأسرار ، والذى يملك بثر الأسرار يملك كل من له سر...

وكانت الشخصيات الزائرة التي تفد من بلدي تنقسم إلى أنواع :

نوع سهل بسيط يعتبر دخيلا أو مبتدئاً في حياة الليل ، ولا يزال جائماً الله كل امرأة دون أن يقدر قيمة الوصول إليها ، وهو نوع كنت أكتني بأن أصحبه إلى الحانات والكباريهات والحمامات فيهر ويسيل لعابه بالأجساد العارية ويلتي نفسه فوقها بشراهة دون أن يطلب أى إعداد خاص . كالحوص على التستر ، أو إحاطته بجو ومزاج معين . . وهو نوع يشمل صغار وكبار الموظفين ، ويشمل هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم كباراً فجأة . . ولم أكن أبذل المتماماً كبيراً بهذا النوع من الزوار ، بل في الغالب كنت أترك الاهتمام به إلى سكرتيرى المخاص . وسكرتيرى المخاص ليس من بلدي ولكنه من بلد عربي سكرتيرى المخاص . وسكرتيرى المخاص ليس من بلدي ولكنه من بلد عربي اخر ، وقد اخترته غربياً حتى لا أترك لأحد من موظني الوزارة فرصة التنلمذ على يدى في علم العلاقات العامة ثم ينتهز الفرصة ليقضى على ويحل محلي كما يحدث غالباً . .

أما النوع الثانى من الشخصيات فهو النوع الأكثر تجربة والذى شبع من حياة الليل السهلة ، ولم تعد تغريه الحانات ولا الحمامات ، وهو ما يجعل الإهمام به يتطلب إعداد جلسات خاصة فى بيوت خاصة ، وهو ما يكلف ميزانية العلاقات العامة أكثر ، لأن هذه البيوت ، أو على الأصح البيوت التى كنت أختارها

لمده الشخصيات الهامة ليست بيوتاً مفتوحة لأى زائر . إنها أقرب إلى بيوت الجيشا في اليابان ، عندما كان للجيشا تقاليد واحترام وقبل أن تنقلب إلى مجرد بيوت سباحية أقرب إلى دكاكين خان الخليلي عندكم . . وفي مثل هذا البيت تعد سهرة كاملة للزائر . . موسيقي ، رقص ، غناء ، عشاء . . وهو وحده أو بصحبة صديق من أصدقائه ، ويستطيع أن يطلب أى شيء وكأنه صاحب البت . . يملكه و بملك من فيه . . ولذلك قلت إن الزائر من هذا النوع يكلف ميزانية العلاقات العامة كثيراً . .

والنوع الثالث هو النوع الأخطر والأهم . . النوع الذي يشمل الشخصيات الرئيسية في بلدنا . . وهو نوع يمتاز بأنه لا يسمح لنفسه أن يطلب ليلة من هذه الليالي . . لا يُكلف السفارة بأن تحقق له متعة خاصة ، احتراما لمركزه وحرصاً على مظاهر تقاليد الحكم . . كما أن أحدًا لا يمكن أن يعرض عليه حتى على سبيل النكته أن يوفر له هذه المتعة . . ليس من حتى كمسئول عن العلاقات العامة أن أغرى شخصية من هذه الشخصيات بقضاء ليلة خاصة حتى لو كنت أعلم أيَّه يتمنى مثل هذه الليلة الخاصة ، بل حتى لو تأكدت أنه لم يأت إلينا زائراً إلا بعدأن سمع من أحد أصدقائه عن الخدمات الممتعة التي أقدمها . . وعلم العلاقات العامة ينصحك في مثل هذه الحالة أن لا تعرض شيئاً ولكنك فقط تحيط هذه الشخصية بالجو والمجال الاجتماعي الذي يتيح له فرصة الاختيار .. اختيار ما إذا كان يريد أو لا يريد . . وتحقيق هذا البند من علم العلاقات العامة يعتمد على قدرتك في اكتساب صداقة نوع معين من العائلات . . إنه نوع من العائلات المحترمة قد يمثلها رجال لهم مراكز لها قيمتها ، أو مراكز ليست رسمية ، ولكنها عائلات تعيش حياة التساهل الاجتماعي ، ونساؤها على استعداد للاشتراك

في كثير من العمليات التي تعود على العائلة بنفع كبير ... كتحقيق عملية تجارية يقوم بها الزوج مثلاً ، أو المساهمة بالوساطة في صفقة ضخمة . وتدعى مثل هذه العائلة إلى حفل عائل يقيمه البيفير تكريماً للضيف الكبير .. حفل خاص لا يدعى إليه أحد بصفته الرسمية ولكن المدعوين كلهم أصدقاء خصوصيون . . وتتولى سيدات العائلة إحاطة الضيف بالجو الاجتماعي المرح المفتوح الذي يشجعه على أن يطلب . . أن يطلب هذه السيدة أو الأخرى إذا أراد أن يطلبها . . وغالباً ما ينتمي الحفل الخاص بتحديد موعد بين الضيف والسيدة المحترمة وهو معتقد أنه وصل إليها بسحره ووسامته وذكائه وأنه فتاك نساء ، وإن كان يضطر بعد ذلك إلى أن يستدعيني في لقاء خاص ويهمس في أذني بما وصل إليه وكأنه يطلعني على سر خطير لا علم لى به ، حتى أعد له المكان الخاص الذي سيلتق فيه مع هذه السيدة . .

ومثل هذه العمليات التي تنم عن طريق صداقة العائلات المحلية لا تتحمل ميزانية العلاقات العامة تكاليفها . ولكن قد ينم مقابلها تحقيق صفقة تجارية أو عملية سمسرة يقوم بها رجل العائلة ، وفي الغالب تنتهى العملية بهدية شمينة تساوى آلاف الدولارات يقدمها الضيف إلى السيدة المحترمة . . .

هذه هي الأنواع الثلاثة من الشخصيات التي كنت مسئولا عنها .

وقد حققت لحسابى أرباحاً كثيرة عن طريق هذه الشخصيات بعد أن أسقطتها فى بتر الأسرار وأصبحت أقبض بكل سر على عنق واحد منهم مما يضطره إلى أن يكسبنى ويتقينى . . ولم يكن كل ما حققته هو هذه القفزات السريعة فوق السلك الدبلوماسي والتي وصلت بي في خلال عامين إلى رتبة الوزير المفوض ، ولكنى استفدت كثيراً من الوساطة في تحقيق صفقات متعددة . . وأستطيع أن

أَمُولَ الآَنَ إِنَى وَصَلَتَ إِلَى مُسْتَوَى الطَّبَقَةَ الحَاكِمَةَ حَتَى وَلُو كَنْتُ لَا أَعْتَبَر سياسيًا من ينها . .

وفي داخل السفارة كانت هناك شخصية مضت فترة طويلة وأنا حاثر فيها. . وهي شخصية زوجة السفير . . إنها تعرف كل شيء . . وفي بيتها وفي حضورها كانت تتم كل هذه العمليات التي حدثتك عنها . . وكانت تستقبل أنواعاً من النساء تعلم أنهن من المحترفات بل كان من بينهن أدنى أنواع المحترفات من فتيات الحانات والحمامات إلى أن تحملت أنا المسئولية ومنعت دعوة هذا النوع من المحترفات إلى داخل السفارة سواء في الحفلات العامة أو الخاصة والاقتصار على المحترفات الرافيات . . وقد قدرت أولا أن الزوجة التي تقبل كل ذلك في بيتها لابد أنها زوجة سهلة ، بل إنى قدرت أنها لا شك أن لديها الاستعداد لتزاول نفس ما تسمح به . . إن زوجها السفير له هذا النوع من حياة الليل فلماذا لا يكون من حقها هي الأخرى نفس الحياة . . وحاولت كثيراً أن أكشف عن حياة خاصة تعيشها . أن ألقي بها في بئر الأسرار مع بافي الرجال والنساء . ـ ولكني لم أكتشف ولم أعرف لها سراً . . وأكثر من ذلك ، حاولت أنا نفسي أن أصل إليها . . إنى كما قلت لك أتمتع بجاذبية الوجود . . مجرد وجودى يشيد أى امرأة . . ومع هذه الجاذبية استعملت كل مواهبي حتى أشد إلى السيدة زوجة السفير ، ولكني فشلت . . وقد كانت متنبهة إلى محاولاتي وكانت تقابلها بابتسامة هادئة صامتة تثير الاحترام لا التشجيع . وأخيراً خرجت من حيرتي إلى الاقتناع بأنها سيدة محترمة . . سيدة كاملة . . وأن سكوتها على ما يجرى في بيتها هو استسلام لحكم الوظيفة كزوجة سفير ، كماوأن سكوتها على تصرفات زوجها هو استسلام لعقد الزواج الذي ارتبط به أهلها . . وقد استطاعت بدوتها واستسلامها

للمواقع أن تكتسب صداقة كل هؤلاء النساء المحترفات ونصف المحترفات والهواة ... صداقة قائمة على مجرد الاحترام . . وكانت عندما يقام حفل فى السفارة تتعمد تجاهل نشاط وتحركات هؤلاء النساء ، ثم عندما تقدر أن الحفل وصل إلى مرحلة يتغلب فيها تأثير الخمر تنسحب إلى الداخل فى هدوه ، وتصحو فى اليوم التالى دون أن تسأل أحداً أو تحاسب أحداً عما تم . . وأصبحت هى الشخصية الوحيدة التي أحترمها فعلا داخل السفارة بل ربما فى البلدكله الذى أقيم فيه .. . أختى . . وكانت هى وحدها التى تعلم علاقتى مع بهاناى . .

وصدقنى عندما أقول لك أنه رغم كل هذا الذى يحيط بى وأعيشه لم تكن لى أى علاقة خاصة مع أى امرأة ، حتى ولا علاقة ليلة واحدة ، . ربحا لأنى أغار على جسدى وأبخل به تكملة لغرورى بنفسى وكأن هذا الجسد شيء غال لا يبتذل ، . إلى أن قابلت بهاناى . . إنها امرأة من تايلاند . . فيها الجمال الأسمر البوذى الذى تشهر به بنات جنوب شرق آسيا . . الشعر الأسود الناعم الذى ينساب فى غزارة كشلال الليل . . والقوام الممشوق الصغير كأنه تحفة صاغها ينساب فى غزارة كشلال الليل . . والقوام الممشوق الصغير كأنه تحفة صاغها كأنها تضيئ لك الطريق إليها . . وبهاناى من عائلة كبيرة معروفة فى تايلاند ، وأمها تمتلك أكبر محل أزياء هناك ، وأبوها يملك مصانع للغزل ، وقد سافرت بهاناى إلى أمريكا لتتعلم إدارة الأعمال فى جامعة بوسطن ، ولكنهاكانت تقاوم منذ صغرها إلحاح الفن عليها . إنها فنانة . تغنى وتعزف على البيانو . . وهى تقاوم هذا الفن حتى تستمر فى الطريق الذى نجح فيه أبوها وأمها . . طريق إدارة المصانع وبيوت حتى تستمر فى الطريق الذى نجح فيه أبوها وأمها . . طريق إدارة المصانع وبيوت الأزياء . . . ووصل من مقاومتها لفنها أنها وهى فى الجامعة ، فى أمريكا ، تزوجت

إمالاً لها من نفس بلدها وأنجبت منه ولدين ، حتى تجذبها المسئوليات العائلية بعيداً من فنها وتربطها أكثر بواقعها .. ولكنها عجرت عن الاستمرار .. وقبل أن تحصل مل الشهادة الجامعية في إدارة الأعمال قررت فجأة التوقف عن هذه الدراسة وبدأت في دراسة الموسيق . فنها . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيق ، ونها . ثم قررت أن تحترف الغناء والموسيق ، ورفض زوجها فتركته . إنه لا يساوى شيئاً بجانب إحساسها بفنها . وولهداها تركنها في بيت العائلة . وهي نجوب عواصم جنوب شرق آسيا وتغني ، وقد قابلتها وهي تغني في صالة صغيرة في أحد الفنادق الكبرى وشدتني إليها . شعرها . وابنسامنها التي تشرق في لونها الأسمر . ورغم ذلك فعندما بدأت أتحدث إليها كانت لا تزال تغلبي مسئوليتي عن العلاقات العامة في السفارة فدعوتها إلى حفل خاص كنت قد قررت إقامته لضيف كبير ممتاز :

وقالت بهاناي من خلال ابتسامتها:

هل يفهم الضيف هذا النوع من الغناء الذي أغنيه ؟

وتعجبت للسؤال وقلت في وقاحة :

لا أعتقد . . ولكن لا يهم الغناء . . يكفيه أنك جميلة ومن هذا النوع
 من النساء ! ! .

وقالت بهانای ضاحکة :

- إذن تستطيع أن تدعـو صديقتى دانولى فهى تصلـح أكثر لهـذه الدعوات . . إنى حتى لو اعتبرتنى جميلة فأنا مملة عندما أكون مع من لا يفهمنى . . والشيء الجديد الذى طرأ على أنى لم أحاول استعمال مواهبى لإقناعها بقبول الدعوة واكتفيت بأن دعوت صديقتها فعلا ، وبدأت من يومها أتردد كل ليلة على الصالة التى تغنى فيها وأحاول أن أفهمها . . وفهمتها وفهمتنى . . وارتبطنا بعلاقة

لا أريد أن أقول إنها علاقة حب . . ولكنها علاقة زاحة . . كل منا يرتاح إلى الآخر ويتمتع بصحبته ، بكل ما تطلبه المتعة . . وأكثر ما يريح هو الفهم المتبادل . . ولم تكن بهاناى امرأة شريفة بالمعنى المفهوم للشرف في بلادنا . . إن الجنس في جنوب شرق آسيا ليس موضوعاً يستحق كل هذا الاهتمام ، وليس علاقة تفرق بين الشريف وغير الشريف ، وقد تكون بهاناى تعطى نفسها لرجال آخرين مع ارتباطها بى . . هذا لا يهم . . ولكن المهم أنها امرأة غالية . . ليست محتاجة . . إنها قد يغريها بالعطاء الثمن الكبير جداً ، أو الصدفة التي لا تستطيع أن تفاومها . . وقد عرف أعضاء السفارة ، علاقتي ببهناى ولكني لم أكن أسمح لأحد بأن يحدثني عنها إلا لصديقتي زوجة السفير ، وكانت هي التي تختار لى الهدايا التي أهديها لبهاناى . . وقال لى السفير يوما :

- ألن تدعو المرأة التي تعرفها في إحدى جلساتنا . .

وقلت في برود :

- إنها عملة لا تصلح لأى جلسة . .

قال وهو ينظر إلى فى غيظ :

- لعلك تغار عليها . .

قلت ضاحكاً:

الغيرة غير معروفة في هذه البلاد . . المرأة هنا لا تستحق الغيرة . .

وأنهى السفير الموضوع ربما لأنه راعى ألا ندخل فى نقاش قد يفسد علاقتنا خصوصًا بعد أن أصبحت أنا الأقوى، واكتنى بأن ذهب معى مرة ليستمع إلى غناء بهاناى، ولم يعلق بشيء، لم يبد إعجاباً حتى بجمالها وطبعاً لم يتأثر بشيء من غنائها.. إلى أن حدث وجاءنا ضيف كبير مهم..

وتعبت فى وضع كل مواهبى فى خدمته . . قدمت له نساء أكثر من عائلة مسترمة فى أكثر من حافلة مسترمة فى أكثر من حفل خاص . . لا شىء . . وبحرأت ودعوته إلى البيوت الخاصة ، وقبل الدعوة . . ولكن لا شىء . . وخيل إلى أنه قد يكون لا يزال محتفظاً برعونة الشباب فدعوته إلى حمامات التدليك ، وقبل الدعوة أيضاً وأبدى دهشته وانبهاره عا يراه . . ولكن لا شىء . . وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لا يريد أكثر من هذه المجتمعات والمشاهدات البريئة فاسترحت من محاولة إرضائه وتكريمه . . .

وكان الضيف المهم يقيم في نفس الفندق الكبير الذي تغنى فيه بهاناى ، وفي الليلة الأخيرة قبل سفره كان الضيف ومعه انسفير عائدين إلى الفندق وأنا معهما وافترح عليه السفير أن يدخل به إلى الصالة الصغيرة التي تغنى فيها بهاناى ، وقبل الضيف المهم ، وما كادت عيناه تقعان على بهاناى وهي تغنى حتى استقرتا عليها. لا يجولهما عنها . لا يريد أن ينظر إلى أي شيء آخر من حوله . وإذا تحدث إليه السفير استمع إليه دون أن يحول نظره عن بهاناى . وحاولت أن أبرا أسرد عليه مجموعة من النكات لعل الضحك يشده بعيداً عن بهاناى ، وإذا ضحك لا يحول عينيه . . ثم قال وهو يجفف لعابه من فوق شفتيه بلسانه كأنه انقلب إلى وحش جائع :

- هذه امرأة حلوة . .

وقال السفير ضاحكا

اتفضل سيادتك . . بالحنا والشفا . .

وقال الضيف من فوق لسانه المدلى :

هل يمكن . .

وقال السفير :

إلينا بينها بهاناى لا تزال تغنى وقد بدا عليها التعب من طول ما تغنى . . وقلت للضيف الكبير وأنا أقدم له دانولى :

هذه ملكة جمال الدولة وقد جاءت خصيصاً عندما علمت أن سيادتك هنا . . ولم يحول الضيف عينيه عن بهاناى وقال السفير ساخطاً :

- إننا لا نريد هذه . .

قلت في يأس : ،

- إنها فقط تؤنسنا إلى أن تنتهى بهاناى من الغناء . .

واضطرت بهاناى أن تنتبى ، على الأقل لتستريح ، واضطرت إلى أن تجئ إلى مائدتنا بعد كل هذا السخاء المجنون الذى أحاطها به السفير ، ونظرت إلى كأنها تسألنى ماذا تفعل ، وأدرت عنها ناظرى بسرعة حتى لا يتهمنى السفير بشىء أو يلحظ الضيف الكبير شيئاً . ولم يكن هناك حديث يمكن أن يتم بين بهاناى والضيف الكبير فهو لا يعرف أى لغة يمكن أن يتحدث بها إليها ، وتولى الحديث كله السفير ، وقال لها إن الضيف الكبير يهمه أن يختلى بها لأمر هام . وضحك . . وقالت بهاناى وهى تبتسم :

هذا يشرفني . . ولكن الساعة الآن الثالثة صباحا . . ويجب أن أجتمع
 مع أفراد الأوركسترا لمراجعة الأغاني الجديدة . . لنجعل لقاءنا غداً . .

وقال السفير وهو يبدو كمفاوض مبتدئ :

إنه يسافر غداً . . تعالى . . وأفراد الفرقة يمكن أن ينتظروك . . وسنعوضك وتعوضهم بما تريدين . .

ثم قام واقفاً وشد بهاناي من يدها ، واستسلمت له كعادة أفراد هذا الشعب ، وحتى لا تثير أي مشكلة مع ضيف كبير من نزلاء الفندق. وقال السفير للضيف الكبير :

طبعاً يمكن . .
 ثم نظر إلى وقال كأنه يصدر أمراً سلطانياً :

– أدعها إلى المائدة . .

قلت كأنى أتوسل إليه :

- إنها مملة . . وسيقرف منها سيادته .

وقال السفير كأنه يصرخ :

– إدعها . . لا تكن مجنونا . .

وقلت في استسلام :

- حاضر . بعد أن تنتهى من الغناء . .

وناديت المشرف على الصالة وهمست فى أذنه . أن يذهب إلى بهاناى ويطلب منها ألا تكف عن الغناء ، ولم تكف فعلا عن الغناء ، ولكن السفير بدأ يتصرف بالطريقة الساذجة المعروفة التى يتبعها أثرياء العرب فى الكباربهات فأمر بإرسال صندوق من زجاجات الشمبانيا إلى أعضاء الفرقة الموسيقية . . ثم قام وأخرج من جيبه ورقة نقدية تساوى ما قيمته ماثة جنيه وحاول أن يلصقها على صدر بهاناى وعندما تراجعت عنه وهى تضحك أخرج ولاعته وأحرق الورقة النقدية تحية لها ثم أمر بإرسال أقفاص الورد لتوضع حولها ، وكل من فى الصالة أصبح يتفرج علينا لا على بهاناى ، وانطلق حولناكثير من الضحك والتصفيق لحركات السفير ، فأمر بدعوة كل من فى الصالة على حسابه . . كل ذلك وأنا حائر ماذا أفعل ، ثم قمت بسرعة وطلبت من الجرسون أن يدعو دانولى صديقة بهاناى إلى المائدة لعلها تستطيع أن تجذب اهتمام الضيف الكبير وتنقذ بهاناى من هذا الاهتمام . . ولكن دانولى لم تكن فى الصالة واستطاع الجرسون أن يجدها فى مكان آخر وجاءت

- اتفضل سيادتك .

ثم صحبها والضيف بجانبهما وأنا أتبعهم سائراً خلفهم في صمت ضعيف كأنى قد انهرت وانتهيت إلى أن وصلنا إلى المصعد ودخل الضيف ، ودفع السفير بهاناي إلى جانبه . وقال ضاحكا :

للدور التاسع . . لا تنس سيادتك . . غرفتك فى الدور التاسع . .
 ووقف ت أنا والسفير وبهاناى تبتسم لى من بعيد ابتسامة ضعيفة كأنها تشفق بها على ، وباب المصعد يغلق فى وجهينا – أنا والسفير – ويرتفع بالضيف ومعه

ونظر إلى السفير في شماتة كأنه انتصر على . . وسار خارجاً من الفندق وركب سيارته دون أن يدعوني كعادته للركوب معه . .

ولم أنم ليلتها ، لا لأنى كنت أعانى أمراً عاطفياً من أجل بهاناى . . قلت لك أنه لم يكن ما يبنى وبينها حب . . ولكنى كنت أعانى الإحساس بأنى فقدت مركزى . . فقدت سيطرتى على مثل هذه المواقف التى تدخل فى صميم اختصاصى لست أنا الذى حقق رغبات الضيف الكبير . . لست أنا الذى حمل بهاناى إليه . . إنه السفير . . كأن السفير طردنى من وظيفتى واستولى على اختصاصى لنفسه . . والد النه أنى خيبة . . أنى فاشل لا أستطيع أن أقدر وأتصرف وفقاً لتقدير صحيح . . والواقع أنى أخطأت فى تقدير موقف بهاناى ، فقد كنت أعتقد أنها سترفض دعوة الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التى وجهتها إليها لحضور حفلات الضيف الكبير فقد سبق أن رفضت كل الدعوات التى وجهتها إليها لحضور حفلات وصحيح أنى كنت أستسلم ببساطة لهذا الرفض مفضلاً أن احتفظ بها لاستعمالى الخاص ، ولكنى لم أكن أعتقد أنها يمكن أن تستجيب لإلحاح أو محاولة أحد

البرى . . وقد استجابت لإلحاح السفير . . أى أنى فى الواقع لم أكن أحاول أن أحرم الضيف من بهاناى ولكنى كنت أحاول أن أحميه من رفضها . . ولكن . . أنا غبى . . ولأنى غبى انتصر تقدير السفير للموقف على تقديرى . .

إلى أن كان الصباح . .

وعندما وصلت إلى السفارة أحسست بجو غريب من التوتر ، وعرفت أن السفير وزع سخطه ولعنائه على كل الموظفين منذ وصل ، وعندما دخلت إليه في مكتبه وجدته واقفا يستعد للخروج ، ولم يمد يده لمصافحتي ، بل لم يرد على تحيى ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وكنت أعلم أنه في طريقه إلى الفندق الذي بقيم فيه الضيف الكبير ، فقلت له :

- هل ألحق بك ؟

وقال كأنه يصرخ في وجهبي :

- لا . . انتظر هنا إلى أن أدعوك إلى هناك . .

وأسرع خارجاً كأنه يرفض أن يناقشني ، وانتظرت طويلا وأنا حاثر فيا يمكن أن يكون قد حدث ، ثم لم أعد أحتمل الانتظار وذهبت لألتني بالضيف الكبير . . وكان في الجناح المخصص له مجتمعا مع السفير ، ودخلت إليهما بلا استئذان فإن مركزي يعفيني من الاستئذان ، وبمجرد أن دخلت رفع إلى الضيف عينيه كأنه دهش لوقاحتي ، وقال بسرعة :

من فضلك . . انتظرنا في الخارج . .

وانتظرت ولم يدعنى أحد للدخول إلى أن خرج الضيف ومعه السفير فى طريقهما إلى المطار دون أن يلتفت أحد منهما إلى . . ركبت سيارتى وليس معى إلا سكرتيرى الخاص جالساً بجانب السائق وذهبت إلى المطار . . وعندما اصطففنا بجانب

الطائرة مع المودعين الرسميين ومع بقية أعضاء السفارة ليمر بنا الضيف ويصافحنا قبل ركوبه ، لمس يدى الممدودة لمسة سريعة دون أن ينظر في وجهي . .

وسافر الضيف الكبير عائداً إلى بلدنا . .

وعرفت بعدها كل شيء . .

لقد هربت بهاناي من الضيف قبل أن يدخل بها إلى جناحه الخاص . .

وقد استقبلت الخبر يفرحة . . فرحة استعادت ثقنى بنفسى ، وثقتى فى بهاناى . .
إن تقديرى لم يكن خاطئاً ، وبهاناى لم تتخل عنى . . ولكن هذه القرحة طارت بسرعة وحل محلها الخوف . . الخوف على مستقبلى كله . . ترى ماذا قال السفير للضيف الكبير حتى يبرر له ما حدث . . وقد أسرعت أولا إلى بهاناى أسألها ، فضحكت ضحكة كبيرة وقالت كأنها تروى نكته :

لقد تركته يضغط على مفتاح الدور التاسع من مفاتيح المصعد ثم غافلته في نفس اللحظة وضغط على مفتاح الدور الخامس . وعندما وقف المصعد حادثته باللغة التايلاندية وأنا أخرج وبقيت أحادثه وأنا واقفة أمامه خارج المصعد وأنا واثقة أنه لا يفهم كلمة واحدة مما أقول إلى أن انغلق باب المصعد وصعد به وحده إلى جناحه في الدور التاسع .. ولم أنزل أنا في المصعد الآخر ولا على السلم العمومي خوفاً من ألتي بك أو بالسقير في بهو الفندق ولكني نزلت من سلم الحريق . .

: قلت

أنت مجنونة . .

قالت

إنى لم أوافق أصلا على الذهاب معه ولكن سفيركم هو الذي دفعا
 إلى المصعد . . ثم ماذا يهم . . إن ما يريده منى يستطيع أن يناله من أى امرأة .

لم أشعر أنى حرمته من شئ مهم . . هل تعرف ماذا كنت أقول له باللغة التى لا يفهمها . . لم أكن أسبه أو أهينه أو أجرحه . . كنت أقول له إنى آسفه لألى متعبة وأننا نستطيع أن نلتقى فى موعد آخر وأنى أعتز بإعجابه بى . . كنت أقول له مثل هذه الكلام . . و . . .

وقاطعتها :

 الكلام الذى لا يفهمه . . إنك لا تقدرين ماذا يمكن أن يحدث لى لو أطلق مثل هذا الرجل غضبه على . .

وقامت وجلست فوق ساق وأسقطت صدرها على صدرى وقالت وشفتاها تقتر بان من شفتى :

لا تهتم . . أنا المسئولة عن كل ما يحدث . .

وقد احترت فعلا كيف أتصرف ، فقد عرفت أن السفير أبلغ الضيف الكبير أبى أعتبر هذه المرأة - بهاناى - ملكاً خاصًا لى ، وأنى أرفض حتى دعوتها لإحياء الحفلات الرسمية فى السفارة لمجرد إلقاء أغانيها ، وأنه - أى السفير - واثق أنى أنا الذى حرضتها على أن تهرب منه . .

وكان معنى هذا أن أنتظر طردى من السلك الدبلوماسى أو على الأقل نقلى إلى بلد مقطوع الصلات من بلدان أفريقيا مثلا ، وقد تصب على لعنة أكبر من ذلك. وفكرت أن أكتب تقريراً خاصًا أرسله إلى الشخصية الهامة التي عجزت عن أوفيها حقها من تقاليد السلك الدبلوماسي .

وفكرت أن أعود بنفسى إلى بلدى وأحاول أن ألتنى به وأشرح له كل الظروف التى أحاطت بالموقف وأثبت عدم تقصيرى فى ممارسة العلاقات العامة أو تدخلها أى تدخل مضاد . .

إلى أن استشرت صديقتي زوجة السفير التي أحترمها وأعتز برضائها عني . .

فقالت لى فى بساطة :

- ارسلها إليه . .

9

-. كيف

قالتْ وهي تنظر إلى كأنى طفل صغير لم يتعلم بعد :

 لا أدرى كيف . . ولكن اقنعها بأن تذهب إلى بلدنا وحاول أن تجد وسيلة تقنع بها صاحبنا بأنها جاءت خصيصا للقائه بعد أن وقعت في غرامه . .

و بهرت بالفكرة ، وقبلت يد السيدة المحترمة شكراً وامتناناً ، وأسرعت أجرى إلى بهاناى ، وقلت لها وكأنى ألهث من ضغط حيرتى وخوقى :

لقد قلت لى أنك المسئولة . . وإنى مهدد بالطرد من وظيفتى بسببك . .
 قالت من خلال ابتسامتها :

ماذا يهم . . إن وظيفتك تحيطك بقيود ثقيلة الدم . . إبحث عن عمل
 خر . .

إنها لا تعلم أن وظيفتى ليست مجرد منصبى فى السلك الدبلوماسى ، إن هذه الوظيفة هى التى أحقق عن طريقها كل الصفقات الأخرى التى أصبحت بها واحداً من كبار الأثرياء . . وهى لا تعلم أن طردى معناه أنى أصبحت مبعداً عن أصحاب الحكم والمبعدون فى بلادنا لا يستطيعون الحياة إلا اعتباداً على أموالم المهربة ، فيإذا لم تكن لهم أموال مهربة عاشوا على الاستجداء . . إن المبعد فى بلادنا معناه أنه وصل إلى قيمة الصفر ، حتى أنى أحياناً تعلبنى هوايتى للفلسفة الاجتماعية وأفكر فى أن أطالب الدولة بافتتاح ملجاً للمبعدين كملاجئ الأيتام .

وقد قلت كل ذلك لبهاناى حتى أفنعتها بأن كل حياتى أصبحت فى خطر إلى أنْ اقتنعت قائلة :

- ماذا تريدني أن أفعل . .

قلت في حماس :

تسافرين إلى بلدى وتلتقين به هناك . .

قالت في تردد :

ولكن إن . .

وقاطعتها :

سندفع لك ضعف قيمة دخلك الذى تحصلين عليه من هنا . . ليس فقط قيمة مرتبك من إدارة الفندق ولكن قيمة دخلك من المعجبين . . وهناك في بلادنا إذا يُجحت في الوصول إلى صاحبنا فئي أنك ستعودين مليونيرة

ووافقت بهاناى ، وأقنعت نفسى أنها وافقت لا طمعا فيا وعدتها به ولكن حباً في شخصى الضعيف . وبدأت أضع معها تفاصيل الخطة . . إنها سترسل خطاباً إلى الشخصية الهامة الكبيرة – ولاحظ أنى أتعمد عدم ذكر لقبها حتى لا أفضح نفسى – تعتذر له فيه عما حدث ، وتضمنه كلمات الإعجاب والتأثر بشخصه ، وتقول إنها حتى تؤكد إعتذارها فقد قررت أن تزوره فى بلده . . ولا يهم بعد ذلك أن تنظر رداً . . يكنى أن تنتظر مدة كافية حتى تطمئن إلى وصول الخطاب وبعدها تسافر ، ويكون سكرتيرى الخاص قد سافر قبلها ليمهد لوصولها ويدرس الموقف ويتصل بى لنحدد هل تسافر بهاناى وتقدم نفسها كفنانــة أجنبيــة وتتفق على إحياء بضع حفلات فى الفندق الكبير هناك ، أم تصل كمجرد سائحة دون أن ينتبه أحد إلى وصولها بحيث يبقى اتصافا بالشخصية الكبيرة سراً . . ثم بعدان

با عزى الأستاذ .

ي طرى النصل عليك فعندى ما هو أهم أو ما هو أمتع لأقوله لك ، وقد بحب الخطة التي وضعتها مع مهاباى ، واعتبرتها من أروع خطط العلاقات العامة التي حققتها . وقد التقت مهاباى هناك – في بلدى بصاحب الشخصية الرسمية الكبيرة الهامة وأعطته كل ما أراد ، وأعطاها أكثر مما أرادت وبما كانت تحلم به ، واستطاعت أن تبدد كل شكوكه التي ثارت حولى ، وأن تمحو الصورة التي رسمها لى السفير ، وعاد سكرتيرى الخاص وروى لى كل التفاصيل التي كانت تبلغها له مهاباى أولا بأول ، وأصبحت مطمئناً إلى مستقبلي ومطمئناً إلى أن الشخصية الكبيرة قد عادت وهدأت داخل بثر الأسرار التي أمتلكها . . أما مهاباى نفسها فإنها لم تعد . . سافرت إلى أوربا بعد أن انتهت زيارتها لبلدى ، وقطعت اتصالاتها في . . لم أعد أعرف عنها شيئاً ولا أهتم بأن أعرف شيئاً . .

وكانت علاقتي بالسفير مستمرة في توترها إلى أن بدأ بيأس من صدور فرار بنقلي من السفارة أو بإحالتي إلى ملجأ المبعدين ، فبدأ يلبن معي وبعود إلى نعمد إزالة الكلفة بيننا وربما كان قد سمع عن سفر مهاباي إلى البلد ولقائها بالشخصية الكبيرة وقدر أنى دائماً أقوى منه وأذكى منه في التخطيط الدبلوماسي ، فلم يحاول أن يسألني أو يناقشني أو يحاسبني على إعطاء و فيزا ، للدخول دون علمه أو علم أحد من موظني السفارة ، حتى لا يثير بيني وبيته أزمة جديدة ، وعاد إلى أضعف عما كان ، وكنت أشفق عليه لأنى كنت واثقاً أنى أنا الذي أستطيع أن

تقرر كل ذلك وبعد أن تنجع فى لقاء صاحبنا فقد إنفقت معها على تفاصيل الكلام الذى يجب أن تقوله له . . يجب أن تؤكد له أنها لم تأت إليه إلا عن طريق . . طريقي أنا . . أنا الذى أعددت كل شيء . . أما السفير فهى ترفض دائماً الاتصال به لأنه حاول معها كثيراً وكانت تصده . . وكلام كثير قدرت أنه يخدمني ويبعد عنى شر السفير . .

وسافرت بهانای فعلا إلى بلدی . .

سافرت دون أن يعلم السفير وأعطيتها « الفيزا » دون إذنه ودون أن يعلم بهذه الفيزا أي واحد من السفارة . .

مل تعلم كم كلفتنا عملية سفر أو تسفير بهاناى ؟ كلفتنا حوالى ستين ألف دولار . . لا يهم . . وأنى أعلم أنها لو نجحت فى مهمتها مع صاحبنا فستحصل منه – أى من أموال الدولة – على أكثر من ذلك بكثير . .

المهم أنى كنت أعيش منذ سفرها في انتظار الأخبار . .

أعيش كأني في انتظار كلمة القدر . .

وعلاقتى مع السفير تتوتر يوماً بعد يوم ، ولولا أنه واحد ممن أحتفظ بهم فى بئر الأسرار لما حاول أن يراعى معى حتى مجرد مظاهر التقاليد الرسمية التى تجمع بين السفير والوزير المفوض . . إنه أيضاً فى انتظار أخبار .. أخبار نقلى أو إحالتى إلى ملجأ المبعدين . .

إنى في عذاب . .

عذاب الانتظار لنتائج أدق خطة دبلوماسية وضعتها في حياتي . .

أنقله أو أحيله إلى ملجأ المبعدين فإنى أملك أسراره وأسرار الذين يملكون حق الإطاحة بأى موظف فى البلد . . أنا صاحب بتر الأسرار . . ولم يعف السفير من غضبي إلا تقديرى واحترامي للسيدة زوجته . . لولاها لأطحت به . .

صدقني أنى بدأت في هذه الأيام أزهق وأقرف من نفسي ومن كلما يحيط بي أزهق وأقرف من عملي . . بدأ إحساسي بأنه عمل قذر يؤرقني ويعذبني . . ومع اعتبار أنه عمل وطني ، إلا أن كثيراً من الأعمال الوطنية تفرض الإلتجاء إلى القذارة . . كالجاسوسية مثلا . . إن التجسس سواء في المجال الخارجي أو المجال الداخلي لاشك أنه يعتبر عملاً وطنياً رئيسيًا ولكنه لا شك أيضاً أنه عمل يعتمد على عمليات قذرة ، وأخطر ما يهدد الجاسوس في عمله وفي مصيره هو إحساسه بأنه يقوم بعمل قذر .. إن الجاسوس الناجع القوى هو الذي لا يتأثر بأي إحساس بالقذارة ، بل يؤدى أقذر مهمة وهو ملى بالإحساس بأنه فقط يؤدي مهمة وطنية ،كالمقاتل الذي لا يحس بأنه يقتل بل يحس بأنه يؤدى خدمة لبلده . . كذلك مهمة العلاقات العامة خصوصاً الجانب النسائي منها ، لاشك أنها عمليات وطنية كماسبق أن شرحت لك ، رغم كل ما فيها من قذارة ، المهم ألا تحس بهذه القذارة ، ولكني بدأت أحس بها . . بدأت أفقد منعة الاهتمام بالعمليات التي أقوم بها ، وبدأت أهر ب من كثير من هذه العمليات ، وأدعى المرض حتى لا أشترك في استقبال كبار الوافدين من بلدنا . . وبدأت أتمنى الراحة . . الراحة النفسية والراحة الذهنية . . أريد أن أحاول تحقيق حلمي القديم عندما كنت لا أزال طالباً في الجامعة عندكم ، وهو أن أستمر في دراسة الفلسفة إلى أن أحصل على الدكتوراة وأصدر عدة كتب ، لا تزال تنقصنا تشمل فلسفة المجتمع العربي . . على الأقل أريد أن أرفع نفسي عن مستوى القذارة . .

ولم يكن هذا سهلا . . إن الحياة التي تعودتها استولت على ، والنجاح الذي حققته وما جمعته من ورائه من أموال أصبح أقوى منى . . إن الإنسان الناجح لا يشبع أبداً من النجاح ، ولا يكنني أبداً بثرائه . . لبس هناك حد أعلى للنجاح ولا للثراء ، ولذلك لم أستطع أن أنحذ قراراً بتغيير شخصيتي الرسمية والبحث عن شخصية جديدة وعمل جديد بعيداً عن القذارة والقرف ، كل ما استطعته هو أن أمنح منسى أجازة ، وحتى هذا لم يكن سهلا ، فخلال السنوات الخمس منذ التحقت بالعمل الدبلوماسي لم أمنح نفسي أجازة بل أني كنت أتنازل عن الأجازات السمة

وقررت أن أقضى الأجازة فى اليابان . . أقرب بلد إلى مركز عملى . . وكنت قد ذهبت إلى اليابان قبل ذلك عدة مرات فى عمليات سريعة خاطفة ، ولكنى أذهب هذه المرة فى اجازة . .

وقررت أن أخنى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أخنى وجودى فى طوكيو عن كل أصدقائى من رجال السفارات العربية . . أريد أن أكون وحدى بعيداً عن جو الرسميات وبعيداً عن كل ما يذكرنى بعيل ، وقضيت الأيام الأولى وأنا أطوف بالمكتبات وأجمع الكتب التى أرى أنها الليل وأنا أحاول أن أقرأ . . وصدقنى . . لم أعد أستطيع القراءة . . ليس فقط لأن لغنى الإنجليزية إزدادت ضعفاً ، ولكن لأنى فقدت التعود على القراءة . . فقدت قدرتى على تركيز عقلى فيا أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أفرض على نفسى القراءة قدرتى على تركيز عقلى فيا أقرأ . . ورغم ذلك فقد كنت أفرض على نفسى القراءة كان في داخلى طفلاً صغيراً يشده أبوه إلى المدرسة غصباً عنه . . وكنت خلال النهار أتردد أحياناً على دكان داخل الفندق الكبير الذى أقيم فيه مخصص لبيع آلات التصوير والأفلام . . كان من بين ما أحاوله بجانب القراءة هو محاولة اكتساب

هواية التصوير . . وعرفني صاحب الدكان وعرفته من طول الوقت الذي كنت

أقضيه معه وهو يطلعني على آخر الآلات وآخر تطورات فن التصوير . . وكنت يوماً في دكان الصور الفوتوغرافية . .

ودخلت فتاة راثعة ليست يابانية وقدرت فوراً من لهجة حديثها أنها أمريكية . .

لم تكن مجرد فتاة جميلة ، ولكن كان فيها نوع من جمال الترفع والتعالى . . نظرات عينيها تحيط بكل ما حولها في ثقة وغرور كأنها موكب رسمي يتقدمها . . وأصابع يديها رفيعة طويلة تحمل بينها خاتماً ماسياً لا يقل حجمه عن ثلاثة قواريط تحركها كأنها تعزف بها على رؤوس كل الذين يقفون أمامها اللحن الذي تريده . . وكان معها فتاة أخرى جميلة أيضاً وتسير خلفها وقدرت أنها لا شك سكرتيرتها

وتحدثت الفتاة الأمريكية الرائعة إلى صاحب الدكان في لهجة آمرة رغم نعومها ، وكانت تلومه على آلة سبق أن باعها لها ، وقالت في بساطة كأن من حقها أن تهين شعب اليابان كله :

 انكم هنا تنقلون كل جديد يظهر في أي مكان من العالم ، ولكن عيبكم أنَّكم تنتظرون أكثر من أسبوع حتى تصلوا إلى الجديد الذي يظهر بعده في حين أنَّ ما بعده يظهر بعد يوم واحد . .

وقال صاحب الدكان في احترام كبير وهو ينحني برأسه وظهره عدة مرات على الطريقة اليابانية :

– هذه آخر آلة وصلتنا . . وصلتنا أمس . .

وبسرعة كان ذكائي كله قد تجمع وتركز حول هذا الجمال المتعالى ، فتدخلت وقلت وأنا أشير إلى الآلة التي أحملها وكان يعرضها على منذ دقائق :

ولكنك قلت لى إن هذه الآلة وصلت اليوم لا أمس ... ثم التفت إلى الفتاة الرائعة قائلا وأنا أقدم لها آلتي :

أعتقد أنها تختلف . .

ونظرت إلى نظرة سريعة أحسست أنها طوقتني بها كلي كأنها التقطت كل مقاساتي ، ثم مدت يدها وأخذت مني الآلة وبدأت تفحصها كأنها عالمة متخصصة في علم التصوير ، ثم قالت :

فعلاً إن فيها شيئاً جديداً مختلفاً . .

واستمر بيننا الحديث . . أنا وهي وصاحب الدكان ، بينما الفتاة الأخرى صامتة لا تتكلم كأنها في انتظار أوامر سيدتها . . وفي خلال الحديث قال لها صاحب الدكان مشيراً إلى :

وتفتحت عيناها في ومضة سريعة واتسعت ابتسامتها قليلا وقالت :

- هل صحيح . . أنت عربي ؟ .

قلت ضاحكاً :

– نعم . . ولكنى من بلد ليس فيه بنرول . .

قالت من خلال ابتسامتها كأنها لا تصدقني :

هل هناك بلد عربي لا يملك البترول . . .

ولا أدرى ما الذي دفع ذكائي إلى الكذب عليها ، ربما لأني كنت أريد أن أقنعها بأنى أرقى من أبناءً دول البترول العربي ، أو أنى أردت أن أقدم لها نفسي

على أنى أعتمد على ثقافتى وعملى لا على دخلى من البترول ، أو ربما أردت أن أختبرها لأكتشف ما إذا كانت إحدى النساء اللاتى يندفعن وراء إغراء رجال البترول ، أقصد ، فلوس البترول ، أم أنها ليست من هذا النوع . . امرأة شبعانة . . ومن يدرى ربما كانت هي نفسها ابنة أحد أصحاب شركات إنتاج البترول . . وقلت متدداً :

ألم تذهبي إلى إحدى الدول العربية . .

قالت:

. . Y -

: قلت

- يشرفني أن أدعوك .

قالت ضاحكة وهي تهم بمغادرة الدكان :

إنها دعوة تحتاج إلى تفكير طويل . .

- هل أستطيع أن ألقاك حتى أساعدك على التفكير . .

من استعليم أن العاد حتى المناطقة على المتعاور . . ونظرت إلى نظرة احترت فيها ، هل هي نظرة فرحة أم نظرة ساخرة ، وقالت :

إنك تقم في نفس الفندق . . أليس كذلك . . ما هو رقم غرفتك
 تصل بك . . .

وأعطينها رقم الغرفة ، وتركتنى بعد أن لفتنى بابتسامتها . . وأحسست فعلا أى ملفوف فى هذه الابتسامة حتى خيالى لفته معها ، وبدأت أنحيل بها كلمستقبلى . . إنها لا شك ابنة عائلة أمريكية غنية . . إنها مليونيرة أو ابنة مليونير . . وهى

فرصة لأفتح لنفسي مجتمعاً جديداً ومستقبلا جديداً . . قد أنزوجها . . لماذا لا أتزوج . . إن هذا النوع من النساء الذي كنت أتعامل معه كان ينفرني من التفكير في الزواج ، كان يدفعني إلى تصور أن كل نساء الأرض من هذا النوع ، ولكن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من هذا النوع . . وحتى لو كان لها ماض فلا يمكن أن تكون محترفة ، والنساء في المجتمعات المتقدمة لا يحاسبهن أحد على الماضي ولكنهن يحاسبن على المستقبل . . فلنفرض أن لها ماضياً . . لا يهم . . أنزوجها . .وبعد أن أنزوجها يصبح من حتى بحكم القانون الأمريكي أن أحصل على الجنسية الأمريكية . . أى أنى لا أنزوج هذه وحدها ولكنى أنزوج أمريكا كلها . . وأحست بفرحة تملأ صدري كله وأنا أنخيل نفسي وقد أصبحت أمريكياً ، وربما تلومني على هذه الفرحة لأتى أعلم أنك متزمت في وطنيتك ، ولكن التجنس لم يعدله اليوم علاقة بالوطنية ، أصبح أشبه بعقد عمل.. تعطيك الدولة التي تحمل جنسيتها كذا نظير أن تدفع لها كذا ، وتستطيع في الوقت نفسه أن تحتفظ لوطنك الأصلى بكل عواطفك وأن تتبرع له بكل ما تريد التبرع به حنى لو تبرعت له بروحك في قتال . . هذا هو الآن واقع الإنسانية الدولية . .

وكل هذا الفكر يسيطر على خواطرى وأنا جالس فى غرفتى بالفندق فى انتظار دقات جرس التليفون لأسمع صوتها. لا أستطيع القراءة طبعاً.. ولا أستطيع أن أشغل فكرى بأى شيء آخر . . إن كل فكرى مركز فى مشروعى الجديد . . والساعة وصلت التاسعة مساء وجرس التليفون لم يدق . . وبدأت ثقتى فى نفسى تهزر . . . ثقتى فى وسامتى وقوة الجذب التى يفرضها دائماً وجودى . . ربما كانت هذه الفتاة أقوى من قوة جذبى . . لا يمكن أن تطلبنى بعد الساعة التاسعة . . فترجت من غرفتى وذهبت

قلت :

- موافق . . وسعيد . .

قالت :

- ولكن . . هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجاراج . .

ولم أفهم شيئاً وقلت في سذاجة :

آسف . . ماذا تقولین ؟

وكررت نفس الكلام :

- هل أمرت السائق بأن يضع سيارتي في الجاراج

وعدت أقول:

لا أفهم . . أي سائق وأي سيارة ؟ !

وضحكت ضحكة خافته وقالت في صوت هادئ :

- نسيت أنك غريب وقد لا تفهم هذا التعبير . . إنى أريد أن أقول لك

إنى سأكلفك كثيراً . .

قلت وأنا أحاول أن أنكر ما سمعته :

- ماذا تقصدين ؟

نالت :

– الجناح الذي نلتتي فيه له ثمن . . والطلبات لها ثمن . . وأنا لى ثمن . .

وأحسست كأن زلزالا ثار في داخلي وهدم كل خيالي وكل خواطري وقلت

والصدمة تترك في لساني طعم الخيبة والقرف:

آسف . . وقد سبق أن قلت لك إنى رغم أنى عربى فإنى من دولة ليس فيها
 بترول . . لست غنياً . . وقد جثت إلى طوكيو مدعواً وأقيم على حساب الدعوة .

إلى و بار ، الفندق وأنا أتلفت حولى فى كل خطوة أبحث عنها وكأنه يمكن أن تجمعنا المصادفة مرة ثانية . . ووجدت نفسى أستسلم لكؤوس الويسكى على غير ما تعودت . . سكرت وعدت إلى فراشى وألقيت نفسى عليه كأنى أصبحت

وفى اليوم التالى ، وبعد أن تغلبت على الصداع الذى تركته فى رأسى كؤوس الويسكى ، عدت أفكر فى هذه الفتاة الأمريكية . . هل أتصل بها . . إنى أعطيم أن أعرف رقم غرفتها لو أردت . . ولكن هل أتصل بها . . لا . . إن اتصالى بها

يضعفني أمامها . . لأنتظر اليوم أيضاً . .

ونجحت بانتظاری . .

دق جرس التليفون في الساعة السابعة مساء وقالت كأننا أصدقاء قدماء :

أنا جوانا . . أين كنت ليلة أمس . . اتصلت بك في الساعة العاشرة

ولم أجدك . .

. . 15

- انتظرتك حتى التاسعة ثم يئست . .

: قالت

– آسفة . . تأخرت عليك . . كنت مشغولة . .

قلت:

- سأراك الليلة . . أين ؟

قالت:

في جناحي الخاص . . هنا ستجد كل شيء . . ونستطيع أن نتعرف أسرع . .

وليس في جيبي إلا ما يكني مصروفي الخاص . .

قالت والأسف يقطر فعلا من كلماتها :

- خسارة ... لقد أعجبت بك فعلاً منذ رأيتك .. اسمع .. إن أقل ما أستطبع أن أقبلة هو خمسهائة دولار . . هل تستطيع ؟

وقلت وأنا أكبت غيظي من خيبتي :

أرجوك ، دعيني أفكر . .

قالت في بساطة :

سأنتظر منك تليفوناً حتى الساعة الثامنة . . وأنا آسفة , . ويجب أن تقدر
 أن الحياة مكلفة . .

وتركتني أقاوم آثار هذا الزلزال الذي أطلقته في صدرى . . ويبدو أن كل نصيبي في الحياة هو هذا النوع من النساء . . يبدو أن قوة الوجود التي أدعيها لنفسي لا تؤثر إلا في هذا النوع ، فلم تنجذب إلى أبداً فناة ليست محترفة أو ليست على استعداد للاحتراف . . ولكني لم أكن أعتقد أن هذا يمكن أن يكون نصيبي حتى مع فناة أمريكية ألتتي بها في طوكيو . . والحضارة الأمريكية مسيطرة كاملة على اليابان . . كل الحياة في اليابان تأمركت . . ولكني لم أكن أعتقد أن الأمريكان استولوا على كل شيء حتى على أسواق الدعارة . . ور بما كانت جوانا ليست سوى إحدى الفتيات اللاتي يسمونهن في أمريكا و فتيات التليفون وقد مدت نشاطها ومعاملتها كما تفعل الشركات الأمريكية حتى وصلت بنفسها إلى اليابان وربما مدت سيطرتها هنا حتى تصل إلى بيوت الجيشا حتى تصل إلى بيوت الجيشا حتى تصل إلى بيوت الجيشا في فومركها هي الأخرى . .

ولكن لماذا أقاوم نصيبي في الحياة . . لماذا أعود بنفسى إلى أيام الطفولة

الاجتماعية عندما كنا نؤمن أن الحياة كلها هي مجموعة من المبادئ العامة . . الشرف . الأمانة . . الوطنية . . الحرية . . و . . و . . وأترك هذه المبادئ العامة تشعرني بأني أقوم بأعمال قذرة . . إن الدعارة ليست أكثر قذارة من القذارة السياسية أو القذارة الاقتصادية التي تعيشها المجتمعات الرسمية والراقية في كل أنحاء العالم . . المرأة الداعر أنظف وأصرح لأنها لا تكذب على أحد ولا تخدع أحداً ، إنها تمارس الخطيئة وهي متحملة كل مسئولياتها حتى أمام الله ، أما السياسي الداعر أو الاقتصادي الداعر فهو يكذب حتى على الله . . يكذب ، ويؤذي . . وحتى بالنسبة لنفسي . . ما هو أشرف لي كعمل أتحمل مسئوليته . . أن أعد ليلة يقضيها أحد المسئولين من ضيوفنا بصحبة امرأة حتى أحميه من امرأة أخرى قد تكون جاسوسة أو عميلة مسلطة عليه أو على بلدى ، أم أشترك في عملية اقتصادية أحصل منها على عمولة وأستنزف بها أموال ومصالح شعبي . . إنى ف العملية الأولى يسمونني ، قواداً ، وفي العملية الثانية أسمى ، إقتصادى ، أو رجل أعمال . . أيهما أشرف لى لأكونه . . قواداً أم رجل أعمال إذن لماذا أتقزز من جوانا بعد أن أكتشفت أنها تحترف الدعارة . . لماذا لا اعتبرها مجرد سيدة أعمال وأصطادها لألتي بها طعماً في بحر الأسرار . لقد كنت أريد أن أعتبر نفسي في أجازة . . لا لست في أجازة .

والثورة على نفسى تستبد بى إلى أن رفعت سماعة التليفون واتصلت بجوانا وقلت في لهجة جادة سريعة كأنى أصدر قراراً خاصاً بصفقة هامة :

أعددت ما تطلبين . . متى ألقاك :

قالت كأنها تزغرد :

رائع . . أعفيتني من حيرة البحث عن آخر . . أنتظرك التاسعة . . .

وذهبت إليها . .

إنها هي حتى بعد أن عرقها على حقيقها . . الجمال الرائع المتعالى الرافع المتعفف . وكأن كل ما تحدثنا فيه ليس سوى صفقة تجارية شريفة لا تؤثر في هذا "التعالى والتعفف . . وأصابعها الرفيعة الطويلة تمتد وتتحرك فوق يدبها كأنها تعزف بها على رؤوس كل من يقف أمامها اللحن الذي تريده ، وكأنها رغم اجترافها لا تعزف إلا اللحن الذي تريده . والجناح الذي تمكن أن يقيم فيه حاكم من الحكام أو أميرة من الأميرات كأنها تتعمد أن تضع نفسها في نفس المستوى وهي واثقة دائماً بأنها تستطيع أن تحصل على تكاليف هذا المستوى . . إنها من نفس نوع نساء العائلات اللاتي سبق أن حدثتك عنهن . نفس مستوى الخطيئة الغالية . .

وأخرجت من جيبي بمجرد أن جلست مظروفاً يحمل الدولارات وقلت :

– حتى أطمئنك .

والتقطت المظروف بأطراف أصابعها الطويلة الرفيعة وقالت في تأفف متعال :

ثم أُلقت المظروف على مائدة بعيدة ، وقلت :

- أرجو أن تفتحيه وتعدى ما فيه ، فقد أعطيت أكثر حتى تعطيني أكثر . .

وكنت قد وضعت فى المظروف ألف دولار بدلا من الخمسمائة التى طلبتها ، ولكنها لم تفتح المظروف وتركته بعيداً وقالت وهى تقترب منى وجسدها العارى يبدو من خلف الثوب الشفاف كشعاع من النور :

لا يهم ما تعطيني وما أعطيك . . الذي يهم هو إحساسك وأنت تعطى
 إن الفنان يستطيع أن يرسم صورة فتبدو عادية ويرسم نفس الصورة فتبدو رائعة ،

لأنه رسم الأولى بناء على طلب زبون ورسم الثانية بناء على إلحاح إحساسه . . كل شيء في الحياة فن . . والفن|حساس\لا يمكن أن تقدر له ثمناً . .

واستدارت تعد لي كأس الويسكي ، وقلت :

– وهل أنا زبون أم إحساس . . .

قالت وهي تقدم لي الكأس ثم تجلس بعيداً على المقعد المقابل :

أنت أعجبتني وأثرتني منذ رأيتك . . تركتني أحس كأني أريد أن أكتشف عالمًا جديداً . . ولا أدرى إلى ماذا سيقودني هذا الإحساس في الساعات التي نعيشها الآن . . . ربما اكتفيت بك كربون تشرفت به و ربما أثرتني كإحساس يتعلق بك . .

هكذا كانت تتكلم . . فلسفة صريحة رائعة لا تعتمد على كلمات مزيفة ولا آراء عامة . . إنها تقول في صدق كل ما تحس به فعلاً .

واستمر حديثنا طويلا وكأننا في جلسة عائلية تضم زوجاً وزوجة في إحدى ليالي شهر العسل ، إلى أن قالت خلال الحديث :

– هل تعرف فهمان اليارجي . .

و بهرت كأني أقفز بصوتي من فوق مقعدي :

هل تعرفینه ؟

قالت في هدوء : -

عرفته بعض الوقت فی بوسطن . . إنه ذکی وکریم . .

واستعدت صورة اليارجي في خيالى . . إن كل الناس تعرف فهمان اليارجي ، إنه أنجح رجل أعمال عربي بل إن نجاحه أصبح يقارن بنجاح رجال الأعمال العالمين . . وقد بدأ نجاحه معتمداً على نفس العلم الذي أعتمد أنا عليه ، علم أو فن العلاقات العامة ، والاتصالات الشخصية . . ورغم أنى لا أعرفه شخصيًّا إلا أنى كنت أعتبره من

ولاذا كذبت ؟
 وقلت ضاحكاً :

- كنت أريد أن تقعي في حبي لا في ثراثي . .

نالت :

- وهل الحب لا يكون إلا مع الفقر . .

1 -1

لا . . ولكنه لا يشترى . . والرجل الغنى كالفتاة الغنية كل منهما يعانى
 من عقدة الإحساس بأن لا أحد يحبه ولكن كل الناس تحب أمواله . .

قالت :

 إن الحب يفرض أن يعيش الرجل والمرأة في مستوى واحد ، فإذا كان فقيراً جمعهما الفقر ، وإذا كان مليونيراً فيجب أن يرفعها إلى مستوى المليونيرات . .
 مل أنت مليونير ؟

: قلت

– على وشك أن أكون . .

قالت :

- ولماذا قررت أن تصارحني بالحقيقة . . حقيقتك ؟

قلت وأنا أنظر إليها كأنى أغريها :

- لأنى فى حاجة إليك ، وقد استطعت بسرعة أن تقنعينى بنفسك . . وأنت تعلمين أن كل رجل أعمال فى حاجة إلى من تساهم معه فى مسئولياته الاجتماعية . . وأريد أن أعرض عليك أن تتفرغى لى . . أقصد للعمل معى . . ونظرت إلى كأنها تحاول أن تعرفنى أكثر وقد نسيت هى الأخرى جسدها العارى

بعيد أستاذى ، وأعتبره الأمل الذى أتمنى تحقيقه ، وكنت أغار منه وأحقد عليه أحياناً ولكنه كان أضخم وأكبر من أن تصل إليه غيرتى أو حقدى . . وربما كان بمكن بالعمليات التى أقوم بها أن أصل إلى مستواه ، لولا أنه يقوم بعمليات لم أستطع أن أحق مثلها حتى اليوم . . عمليات الأسلحة . . إنك لا تدرى كم تستطيع أن تكسب من عملية واحدة للسلاح . . ربما أكثر من عشرة ملايين دولار . . إن هناك صحفياً شاباً في إحدى البلاد العربية أستطاع أن يحقق بعملية سلاح واحدة أضعاف ماكسته صحافة بلده - كصحافة - في عشر سنوات . . وآه لواستطعت أن أصل إلى عملية سلاح واحدة . . تكفيني عملية واحدة وبعدها أتوب إلى الله . .

وجوانا كانت تعرف فهمان اليارجى ، ولابد أنه استخدمها فى بعض عملياته .. أى أنها مرت بتجارب وأصبحت خبيرة فى فن العلاقات العامة ، وفهمان اليارجى لا يمكن أن يستخدم أحداً سواء كان رجلا أو إمرأة إلا وهو واثق أنه يستطيع أن يحقق ما يريده منه . .

وبسرعة انقلب تفكيرى كله وانحصر فى موضوع واحد حتى أنى لم أعد أرى جسد جوانا العارى من خلف ثوبها الشفاف إنما عيناى مركزتان فوق جبينها كأنى أحاول أن أقيس ذكاءها وأحاول أن أقنع نفسى بالاطمئنان ، ثم قلت لها :

- جوانا . لقد كذبت عليك . . فإنى لست هنا في طوكيو بناء على دعوة . .

إنى فى جولة حرة . . وأنا وزير مفوض فى السلك الدبلوماسى فى بلدى . . والأهم من ذلك إنى رجل أعمال . .

ولم تدهش جوانا وهي تسمع اسم بلدى رغم أنى كنت قد ادعيت أمامها أنى مصرى حتى لا تعتبرنى من أبناء البترول ، وكأنها كانت تعرف الحقيقة ، وقالت وكأنها تربت على خدى بابتسامتها الحلوة المترفعة : المهم أن أكون معك فى بلد واحد . .

 الأفضل أن ألحق بك في أى بلد تكون فيه . . ولن أغيب في هونولولو أكثر من ثلاثة أيام . .

ونظرت إليها كأني أشك فيها حاثراً في نواياها ثم قلت :

وأقنعت نفسي بأنه لا يهم أن تغيب وحدها بعيداً عني في هونولولو فالخطة كلها لا تزال مجرد تجربة بالنسبة لي كما أنها تجربة بالنسبة لها . .

وقلت وأنا أترك مقعدي وأقترب منها وأشدها إلى صدري وأصل بكفي إلى جسدها العارى من تحت ثوبها الشفاف :

– دعينا نوقع عقد الإتفاق . .

وأخذت شفتيها . أول شفاه أمريكية أنذوقها . . إن الشفاه الأمريكية لها طعم مغر جذاب يتغلب على طعم الاحتراف . . وأعطتني جوانا ليلتها أضعاف الأحاسيس التي كانت تعطيها لي مهاباي . .

إن ما تعطيه تايلاند شيء وما تعطيه أمريكاً شيء آخر . .

وفي صباح اليوم التالي ونحن لا نزال في الفراش قالت لي جوانا :

 لقد تذكرت شيئاً ربما يهمك ، فقد كنت جالسة منذ أيام مع بعض الرجال الأمريكان وأعتقد أنهم يمثلون شركات لا أدرى ما هي ، وكانوا يتحدثون عن مشاكل يواجهونها في بلدك بخصوص إحدى العمليات.

قلت وأنا مازلت أتمطى :

تحت ثوبها الشفاف ، وقالت :

- كيف . . كيف أنفرغ لك . . لعلك تقصد ألا أكون لرجل آخر . وأجبتها كأنى أنني تهمة :

– لا . . قلت إنى أريدك أن تتفرغي لى فى العمل لا أن تتفرغي لى فى الفراش. . وعادت تنظر إلى صامتة نظرة طويلة ثم قالت :

- موافقة . . إنها فكرة تستحق التجربة . .

- والتجربة تبدأ بأن تعتبري كل تكاليف إقامتك في طوكيو على حسابي الخاص ، أقصد على حساب مكتبي . .

قالت وهي أيضاً فرحة :

- هذا يعفيني من البحث عن أي رجل آخر. . أستطيع أن أتفرغ لك فعلاً . .

 و بعد يومين سأعود إلى مقر عملى ، وتعودين معى لتقيمى هناك . . قالت:

- ولكني كنت قد قررت أن أسافر إلى هونولولو. .

: قلت

- أسافر معك . .

قالت :

لا . . إنى مرتبطة هناك بمواعيد سبق أن حددتها قبل أن نتعارف . .

وقالوا فوراً :

- طبعاً . . طبعاً . . هذا حقك . .

وقد قلت هذا الكلام لأن العادة جرت على الاحتفاظ بالعمولة الكاملة لوكلاء الشركة بينما يعتبر أصحاب المناصب من الوزراء وكبار رجال الدولة من العناصر المساعدة فلا ينالهم إلا جزء من العمولة .

وقد تفرغت لى جوانا فعلاً خلال الأبام التي قضيناها في طوكيو ، وكنت في كل يوم أكتشف أنها ليست مجرد امرأة تحترف ليالى الجسد ، إن في داخل رأسها ثقافة كاملة ومعرفة واسعة بفن العلاقات العامة ، وبلغت فرحتى بها إلى حد أن أقنعت نفسى بأنى لست بالنسبة لها مجرد رجل بل إنها تحبني ، أو على الأقل تميزني عن باق الرجال الذين تستطيع أن تحصل منهم على أكثر مما تعطيهم . . ولم يكن يبدو عليها أبلاً افتعال أي شيء . . إنها حتى وهي تحدثني في مجالات العمل لا تتباهي بمعلوماتها ولا تبدو كأنها تلقى على درساً بل نبدو كأنها مجرد امرأة عادية تقول رأياً عادياً ، ثم وهي تعطيني . . إنها لا تفتعل . . إنى لا أحس بها أبدا كإمرأة مأجورة ، كما أنها لا تفتعل التظاهر بحبي . . ولكن البساطة التي تعطى بها هي التي تجعلني أحس بأنها تريدني كما أريدها . . إلى أن سافرت إلى هونولولو في هذه الرحلة الغامضة التي فضلت أن تقوم بها وحدها . . ربما خطر على بالك أنها قد تكون جاسوسة أو إحدى بنات المخابرات الأمريكية «لا يهم» فإنى لا أملك من أسرار بلدى السياسية أو الإقتصادية أكثر مما يملكه أى شخص فى الشارع ولا أكثر مما ينشر ق الصحف . . لا يمكن أن يكون لبلدمثل بلدى أسرار ، إن الأسلوب الذي نتعامل به لا يترك مجالاً للأسرار . . لاأسرار داخلية إنما فقط الأسرار الشخصية . . أسرار الفراش .

- أى نوع من العمليات ؟

قالت وقد اكتشفت أنها من النوع الذي يشتعل نشاطاً بمجرد أن يفتح عينيه :

 لا أدرى . . ولكنى أستطيع أن أدعوهم الليلة هذا على كأس شراب وأقدمهم لك ونفهم مشكلتهم .

إنها تبدأ العمل منذ اليوم الأول ، لا شك أنها تلميذة ناجحة من تلاميذ حان اليارجي . .

وقد تركتها فى الصباح وعدت إليها بهدية عبارة عن طاقم كامل من اللؤلؤ. . عقد وسوار وخاتم وحلق . . كلفتنى حوالى عشرة آلاف دولار . . كان بجب أن أجذبها بأقوى خيوط الإغراء . . وفى المساء عرفتنى فى جناحها الخاص بالذين حدثتنى عنهم من رجال الأعمال الأمريكان ، وقدمتنى إليهم كأنى أملك كل مصير بلدى . . وكانت مشكلتهم خاصة بعملية توريد مجموعة أنابيب ومعدات خاصة بآبار البترول تكاد شركة أخرى تفوز بها عليهم ، برغم أن شركتهم معروفة عالميًا بارتفاع مستوى إنتاجها ورغم أنهم قدموا عرضاً أقل تكلفة و . . و . إنها عملية تسلوى ثلاثة ملايين دولار ، وعمولتها تصل على الأقل إلى مائتين وخمسين ألف دولار . . .

واتفقت معهم على أن أتحمل مسئولية إتمام هذه العملية لحسابهم ، وأن يلتقوا بي بعد خمسة عشر يوماً في مقر السفارة ، وقلت ضاحكاً كأني ألتي مجرد نكتة :

لقد ظلمت نفسى عندما قبلت منصب وزير مفوض ، فإن عملى فى
 الواقع هو تحقيق مثل هذه العمليات ولذلك فإنى أعتبر أن حتى يضيع عندما
 لا أحصل على العمولة كاملة . .

لذلك ، فإنى لست مستعداً أن أتمخلى عن جوانا حتى لوكانت جاسوسة . .

وقد تركت طوكيو وعدَّت إلى السفارة وكان أول ما فعلته أن استأجرت شقة فاخرة في أفخر أحياء البلد لتقبم فيهاجوانا عندما تصل وساهمت ميزانية العلاقات العامة في تحمل تكاليف إستنجار هذه الشقة . . وقد تلوى شفتيك إمتعاضاً وأنت تسمع مني أني أنفق أموال الدولة على مشاريع خاصة . . يا أستاذى العزيز إن ميزانية العلاقات العامة ليس لها مقاييس ولا يمكن أن تحدد فيها ما يجب وما لا يجب ، وهذا في كل بلاد العالم حتى عندكم . . قد يأتى إليكم زائر أجنبي صغير . . وكيل وزارة مثلا . . وتضطر الحكومة أن تقيم له حفل عشاء ، فمن تدعو إلى هذا الحفل ؟ إنها تدعو على الأقل مائة من الموظفين والصحفيين لا علاقة لهم بالضيف ولا يهمهم شيء من زيارته ، ولا يجد فيهم الضيف نفسه شيئاً يهمه ، إن كل ما يهمهم هو مظهر الدعوة وأنواع الأطعمة والمشروبات التي تقدم لهم مجاناً ، وكل ذلك تتحمل تكاليفه الدولة من أجل لا شيء عملي سوى صورة فوتوغرافية تؤخذ لهذا الحفل وتنشر في الصحف وترسل إلى حكومة الضيف كمجرد مظهر للتكريم وحسن العلاقة بين البلدين . . إن المظاهر لها تأثير كبير حتى لو كانت مظاهر كاذبة كمظاهر الاستقبالات الرسمية والشعبية التي تعد لرؤساء الدول . . المظهر له تأثيره وتكاليفه حتى في تصرفات الفرد بالنسبة لنفسه « إنه قد يذهب إلى مطعم راق ليأكل طبق لحم يكلفه عشرة جنيهات في حين أن نفس الطبق ونفس اللحم يستطيع أن يأكله في مطعم آخر ويكلفه خمسين قرشاً . . المظاهر لها ثمن . . وميزانية العلاقات العامة هي كلها ميزانية المظاهر الكاذبة والتودد المفتعل . . إنك لو ذهبت في زيارة رسمية إلى اليابان فإن الحكومة ستدعوك إلى بيت من بيوت الجيشا وسينتهز عشرة على الأقل من رجال وزارة الخارجية اليابانية فرصة زيارتك ويدعون أنفسهم معك إلى هذا

البت . . ليست الحكومات فقط . . حتى الشركات الكبيرة تخصص ميزانيات واسعة لهذه المظاهر ، وأنا لا آخذ شيئاً من مشروعات هامة تخص بلدى ولكنى آخذ من ميزانية المظاهر لأنفقه فيما أعتقد أنها مظاهر هامة . .

وجاءت جوانا . . واتفقنا على أن تعيش كسيدة أمريكية ثرية جاءت سائحة وتمد إقامتها يحكم أن البلد أعجبها . . وكانت أول عملية بدأنا الاهتمام بها هي عملية مشروع معدات آبار البترول ، واستطعت بسرعة أن أغرى المسئول في بلدى عن هذه العملية إلى ريارتنا زيارة رسمية ، وفي خلال ليالى الزيارة الرسمية قدمته لجوانا على أنها السيدة النَّرية التي التقيت بها مصادفة وأصبحت صديقة محترمة . . وأنت قد لا تدرى مدى الإنبيار الذي يصيب مسئولاً عربياً عندما يجد نفسه مع إمرأة أمريكية حميلة وبخيل إليه أنه يستطبع أن يصل إليها في الفراش . . إنه يحس كأنه يحاول أن ينتصر على أمريكا . . كأنه يهتك عرض العلم الأمريكي . . كأنه اعتدى على شرف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . . إنه الإحساس الشرقي القديم الذي بعطى جسد المرأة قيمة وأهمية لا وجود لها . . كأن في هذا الجسد يتجمع كل كبان الأمة . . وكأن الاستعمار هو مجرد أن تستولى على جسد امرأة من بلد آخر . . وربما كانت جوانا قد درست هذا الإحساس للرجل العربي . . أو الرجل الذي ينتمي . . لدولة صغيرة بالنسبة لامرأة من دولة كبيرة ، فقد ظلت تبخل علبه مع الاحتفاظ له بأحلامه حتى اضطر أن يمد فترة زيارته أسبوعاً . . وعندما أعطته كنت أنا قد حصلت على موافقته على مشروع معدات الآبار . . إن الشركات كما تعرف تعطى للمسئولين دائماً عمولات - أو سمها رشاوى - في شكل هدايا تُمِيَّة غالية قد تشمل فصوصاً من الماس ، وأنا أعطيت هذا المسئول رشوة من نوع

آخر . . أعطيته جسد جوانا . . .

وتسلمت فعلاً عمولة الصفقة . . أى أخذت ما ثنين وخمسة وعشرين ألف دولار . . واشتريت لجوانا خاتم سولتير ، فصا واحداً من الماس حجمه ثلاثة قراريط كلفنى عشرين ألف دولار ، وتعمدت ألا أعطيها هديتها نقداً بالدولارات حتى لا تعتبر نفسها شريكة معى فى الصفقة وتتعود أن تطالبنى بنصيب محدد . . والدنيا تتفتح أمامى ومعى جوانا . . والجديد أن شخصيات أمريكية كثيرة بدأت تسعى إلى وبدأت أكتسب صداقتها ، وكنت أجتمع بهم فى شقة جوانا كأنهم أصدقاؤها لا أصدقائى حتى لا أكشف نفسى أمام السفير . . زوجة السفير وحدها . . السيدة التي أقدرها وأحترمها هى التي تعرف كل شيء . . إنها تعرف حتى قصة موظف السفارة الأمريكية الذي كنا نعتبره موظفاً صغيراً إلى أن كشف لى عن حقيقته عندما اجتمعت به فى ليلة من ليالى جوانا . . واعذرنى . . لن أحكى عن حقيقته عندما اجتمعت به فى ليلة من ليالى جوانا . . واعذرنى . . لن أحكى لك هذه القصة . .

. . للهم . .

إنى الآن لم أصل إلى تحقيق صفقة سلاح . . .

وأعتقد أنه يجب أن أستقيل من وظيفتى حتى أستطيع أن أتفرغ وتكون لى حرية أكبر للوصول إلى صفقة سلاح . . ولو استطعت فربما استطعت وخصوصاً وأنا معتمد على أصدقائى الأمريكان أن أكون وزيراً أو رئيس وزراء أو أن أقوم بانقلاب لصالحى ، ولكنى أفضل أن أصل إلى صفقة سلاح . .

إذا وصلت فسأكتب لك مرة أخرى . .

مقدمة القصة:

عندما يكون الأب رئيساً . . هل يظلم ابناءه أو يظلمه أبناؤه ؟

هذه القصة خطرت لى عندما كنت منذ شهور فى زيارة الهند . فوجئت هناك بحملة عنيفه ضد سنجاى غاندى ابن السيدة أنديرا غاندى رئيسة الوزراء . وكان سنجاى متهماً بأنه يستغل مركز ونفوذ أمه فى تحقيق مصالح خاصة ،منها ابنهاء مصنع للسيارات ، كما أن الأم تفرض ابنها على المجتمع السياسى الهندى بدليل ، أنه أصبح رئيس وقائد حركة الشباب . وقد كتبت أيامها فى جريدة الأهرام " تفاصيل كل ما يقال هناك كما نشرت حديثاً جرى مع سنجاى يدافع فيه عن نفسه ويعلن أنه ليس فى حاجة لاستغلال مركز والدته بل إنه يعارضها فى كثير من آرائها ، وإنما هو يعتمد على حريته وجهده الخاص كأى واحد من أبناء الشعب بدليل أنه له أخ هو ابن أنديرا غاندى أيضاً ولكنه مبتعد ابتعاداً كاملاً عن المجتمع السياسى الهندى . . . ورغم هذا فقد قيل إن سبب سقوط أنديرا غاندى وحزب المؤتمر فى الانتخابات هو تصرفات ابنها سنجاى وإنه هو الذى دفعها إلى إعلان حالة الطوارئ التى أدت إلى سقوطها . .

ومشكلة أبناء الرؤساء أو أبناء أصحاب السلطة مشكلة في كل بلد من بلاد العالم ، وقد كان طوني فرنجية ابن الرئيس اللبناني السابق سليمان فرنجيه الاءر حتى لا يتهم باستثنائهم أو بمحاباتهم . .

وقد تعرضت أنا شخصياً لهذا الوضع المنعب ، فإنى ابن صاحبة المجلة الني الدأت العمل بها .. ابن السيدة روزاليوسف . وفضت فترة كنت لا أعرف هها بين الناس إلا بأنى ابن روزاليوسف وكان كل مجهود صحفي أبذله ينسب إلى أمى . وكانت مشكلتي الرئيسية هي أن أثبت لنفسي شخصية قائمة بذاتها بعيداً من شخصية أمى . وكنت أتعمد أن أثرك مجلة روزاليوسف وأعمل في صحف أحرى ، رغم حاجة العمل إلى ملجود أن أحرر نفسي من اسم أمي ، وفي الوقت أمى كانت أمي تعاملني بحزم لا تعامل به بقبة المحررين وتحدد لى دائماً أقل أجرحتي لا يعرف عنها أنها تحابيني أو تستثنيني من بين بقية الزملاء لمجرد أني أبل . وهكذا ظلمت أمي وظلمتني أمي . .

وبعد ذلك أصبحت أنا أباً لابن يصر على أن يكون صحفياً . . وقد كنت أنسى ألا يكون صحفياً فأى أب يخيل إليه أن عمله هو العمل الوحيد الذى يجلب المناعب والمخاطر ويتدى أن يبعد أولاده عن مثل هذا العمل . . ولكن ابنى محمداً أصر على أن يكون صحفياً ، فأصررت على ألا يعمل فى أى جريدة أعمل بما وخصوصاً إذا كنت أتولى فيها منصباً رئيسياً سواء كرئيس تحرير أو كرئيس مجلس إدارة . . وجاءت فترة كنت أنا أعمل فى مؤسسة أخبار اليوم وابنى محمد يعمل فى مؤسسة الأهرام بعاملونه ويحدرونه فى مؤسسة الأهرام بعاملونه ويحدرونه كأنه جاسوس لى . . فاضطررت أن أسمح له بأن يعمل معى فى أخبار اليوم ، وعهدت به إلى مدير التحرير الأستاذ سعيد سنبل دون أن أسمح له بالاتصال فى فى كل ما يخص العمل ولم أكن أوافق على أى إجراء به إلا إذا وافق سعيد سنبل . .

متهماً بأنه يحكم لبنان باسم ابنه ، وأنه هو - لا أبيه - سبب كل ما حدث للبنان . . كما أن كارتر الرئيس المنتخب للولايات المتحدة الأمريكية كان قد أعلن بعد انتخابه أنه سيستعين باثنين من أولاده فى تحمل مسئوليات البيت الأبيض ، فثارت ضده حملة من معارضيه وكانت حملة خفيفة تعتمد على إطلاق النكات ، ظل كارتر بعدها مستمراً فى الاستعانه بأولاده فى تحمل مسئولية الحكم . .

وفى مصر قامت حملة ضد المهندس سيد مرعى عندما رشح نفسه لرياسة مجلس الشعب متهماً بأنه اعتمد على أنه ناسب الرئيس أنور السادات بزواج ابنه من ابنة الرئيس ، وأذكر أنه بعد أن أعلنت الخطبة أن التقيت مرة والصديق سيد مرعى وقلت له :

- على قدر فرحتى بخطبة حسن إلى نمى فإنى أشفق عليك من هذا الزواج . . ولم أكن فى حاجة إلى أن أسمع رد سيد مرعى فإنى أعلم أن شخصيته السياسية بدأت قبل الثورة واستمر بها بعد الثورة دون أن يعتمد على قرابة أو نسب ، ولكنى كنت أقدر أن مجرد ارتباطه برباط أسرى مع رئيس الدولة سيثير حولة متاعب كان فى غنى عنها ، وقد يتحمل رئيس الدولة نفس المتاعب . . وهو ما حدث فعلاً . .

وحتى فى المستوى العادى لا مستوى الحكام ، فإن رياسة الأب لأى عمل تجعله محرجاً مع أولاده بالنسبة لهذا العمل . . فأى رئيس مؤسسة يرفض غالباً أن يعين أبناءه فى نفس المؤسسة حتى لا يتهم بالمحاباة أو باستثناء ابنه عن باقى المتقدمين إلى العمل ، فإذا عين الرئيس ابنه فعلاً فإنه يصبح فى حرج كلما استحق هذا الأبن مكافأة أو كلما أراد أن يكل إليه القيام بمهمة ما ، حتى قبل إن بعض رؤساء المؤسسات فى مصر اتفقوا فيما بينهم على أن يتولى كل منهم استخدام أبناء

إننا في عز النهار . . الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة صباحاً . . والشوارع كلها مزدحمة كالعادة بما فيها الشوارع الجانبية ، والسيارات مركونة بجانب الأرصفة وبعضها فوق الأرصفة في انتظار أصحابها . . وكان يسير في شارع رشيد عصر الجديدة ، وتوقف عند سيارة مرسيدس واقفة أمام باب عمارة ، ولم يتلفت حوله ولم يحاول أن يرقب بواب العمارة الجالس على مقعد فوق الرصيف ، ومد يده بحاول أنَّ يْفْتِح باب السيارة وعندما وجده مغلقاً بالمفتاح . أخرج من جيبه لفافة من المشمع الطبي الذي تلصق به الضهادات ، ولصق قطعة منها فوق النافذة الصغيرة الجانبية للسيارة ، ثم أخرج من جيبه و أجنة ، حديدية صغيرة مما تستعمل في فك وربط الصواميل ، وضرب بها اللوح الزجاجي الصغير ضربة قوية فتحطم دون صوت ودون أن يتناثر الزجاج في الشارع ملتصقاً بقطعة المشمع ، ومديده من خلال الزجاج المحطم وفتح باب السيارة من الداخل وقفز جالساً أمام عجلة القيادة . وانحني ومديده خلف لائحة العدادات . والتقط سلك البطارية وسلك « الكونتاكت » وأخرج من جيبه قطعة من ورق الشيكولاتة المفضض وجمع به السلكين فدار موتور السيارة فوراً . . كان يتصرف بسرعة وخفة كأى لص محترف من لصوص السيارات . .

أتعبت ابنى وأتعبنى . . ولم يجد محمد حريته ولم يتقدم فى عمله بأخبار اليوم إلا بعد أن تركبا أنا . .

إنه موضوع طويل سبق أن كتبت فيه كثيراً وأنا أتساءل عن أبناء الرؤساء والشخصيات القيادية ، هل هم مظلومون بآبائهم أو أنهم يظلمون أباءهم ؟ * وهذه القصة من وحى هذا الموضوع . .

the street of the contract of the street of

إحسان . .

البوليس ، وهو مستسلم هادئ لا يقاوم ولا ينطق بكلمة . .

وأمام ضابط البوليس رفع الباشاويش يده بالتحية وهو يدق بقدمه على

الأرض كأنه يطلق زغرودة الفرح وصاخ :

- قبضنا عليه يا أفندم . . لص سيارة شارع رشيد ! !

ورفع الضابط رأسه من بين أوراقه فى تكاسل وملل ، ولكنه ماكاد يلتقى بوجه اللص حتى انتبهت كل خلجات وجهه وأخذ يطيل النظر إليه كأنه لا يصدق عينيه ، ثم النفت إلى أفراد فريق المطاردة الذين ازدحمت بهم الغرفة وصاح : - لا أريد أن أرى أحداً هنا . . يا شاويش . . خذهم لينتظروا فى الخارج . .

وهو لا يزال قابضاً بيده على كتف اللص ، وقال الضابط :

- انتظرتی أنت أیضاً فی الخارج یابا شجاویش . . أترکه لی . . .

وتردد الباشاويش برهـة ثم رفع يده بالتحبة بلا حماس ولم يدق بقدمه على الأرض وخرج وكله دهشة ساخطة على تصرفات حضرة الضابط . .

ونظر الضابط في رفق إلى اللص وقال في صوت خفيض :

- اسك ؟

وقال اللص وهو يتململ كأنه لا يريد أن يبقى وحيدًا مع حضرة الضابط :

- أشرف . .

وابتسم الضابط وعاد يقول:

– وبقية الاسم ؟ . قل . . إنى أعرفك ! !

وقال اللص في زهق :

– أشرف عبد الصبور . .

وتنبه بواب العمارة وجرى إلى السيارة صائحاً :

– بتعمل إيه يا جدع انت ؟ .

وقبل أن يصل البواب إلى السيارة كان اللص قد انطلق بها فأخذ يصبح : - حرامي . . حرامي ! !

وكان في الشارع سائق تاكسي تطوع وجرى بسيارته يلاحق السيارة المسروقة وهو الآخر يصبح :

- حرامي . . حرامي ! !

وتطوعت عدة سيارات أخرى لمتابعة اللص ، وكان الخبر قد أبلغ للبويس فأطلق سيارة مجهزة بآخر ما وصل إلى البوليس المصرى من أجهزة . .

واللص يقود السيارة المسروقة بمهارة عجيبة ويدخل ويخرج بين شوارع مصر الجديدة كأنه في استعراض لسباق السيارات، ولم تستطع أى سيارة أخرى أن تلحق به ، بل إنه من كثرة مفاجآته في اللف والدوران تسبب في تصادم سيارتين من السيارات التي تتبعه تماماً كما يحدث في أفلام السيئا الأمريكية . . وبعد أن مضى أكثر من نصف ساعة على المطاردة لاحظ جميع المطاردين أن اللص بدأ يهدئ من سرعة سيارته واشتدت دهشتهم عندما قادهم إلى الشارع الذي يقع فيه مركز بوليس مصر الجديدة ، وعندما وصل إلى باب المركز كاد يتوقف بالسيارة ، وأحاطت به السيارات المطاردة وأجبرته على التوقف تماماً ، ونزل السائقون من سياراتهم واندفعوا إليه ، وربما هم بعضهم بأن يعتدى عليه بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسياً هادئاً يبتسم لهم فترددت الأيدى التي بالضرب ولكنهم وجدوا أمامهم شاباً وسياً هادئاً يبتسم لهم فترددت الأيدى التي كانت تهم بالضرب ، وبدأوا يكتفون بالصراخ من حوله ، وامتدت يد الباشاويش وقبضت عليه من كتفه ثم شدته في عنف خارج السيارة ودفعته إلى داخل مركز

والمأمور بهرول أمامه ونظر إلى أشرف كأنه لا يصدق عينيه ثم قال في حسرة

: aleide – لماذا يا ابني . . لماذا لا ترحموا آباءكم من « بلاويكم » ؟

وصرخ أشرف : - أنا سرقت . . افتح المحضر واستدع الشهود . .

وقال المأمور في لهجة خطيب الجمعة :

– ولأنك سرقت لا يهمك أن تضيع البلد

وقبل أن يرد أشرف خرج المأمور وعاد إلى مكتبه وأجرى عدة اتصالات تَلْيَفُونِيةَ وَبَعِدَ مَدَةً نَادَى الضَّابِطُ لِيأَتَى إلَيْهِ فَي مَكْتَبُهُ وَمِعِهُ أَشْرِفَ ، وقال وهو يبنسم لأشرف ابتسامة يتوسل بها إليه حتى لا يتعبه :

– انتهينا يا أشرف اعتبر الموضوع كأن لم يكن . . تستطيع الآن أن تعود

وصرخ أشرف :

– لن أخرج من هنا إلا بأمر النيابة . .

وقال المأمور وهو يشد أنفاسه كأنه يستغيث:

- لا داعي للنيابة ولا حتى لمحضر تحقيق فقد تنازل صاحب السيارة عن دعواه وهو راض عما فعلته . .

وقال أشرف ساخراً :

– طبعاً نظير رشوة 🤔 .

وقال المأمور :

- لا أعتقد أنها رشوة إنما طبعاً من حقه أن يأخذ حق إصلاح العطب الذي

وقال الضابط مبتسمًا :

– تقصد أشرف إسماعيل عبد الصبور . .

وقال اللص في حدة :

إن من حتى أن أحدد اسمى . . هذا أقل حق لى حتى لو كنت لصاً . .

واسمى أشرف عبد الصبور ! !

وقال الضابط وهو لا يزال يبتسم :

– لا يهم . . طبعاً أنت لم تسرق السيارة ؟ !

وصرخ المتهم :

- طبعاً سرقتها . . ما هي السرقة إذا لم تكن هذه سرقة ؟ . إني أعترف بأني سرقت . . لا تحاول أن تزور اعترافي . .

ونظر الضابط إليه في دهشة وقال:

با أشرف أرجوك أن تهدأ ، كل شيء يمكن إصلاحه . .

وصرخ أشرف :

لا أريد إصلاح شيء . . أريد أن يكون نصيبي هو نصيب غيرى . .

وازداد تعجب الضابط ونظر إلى أشرف نظرة جديدة وكأنه ينظر إلى مجنون ثم قام من وراء مكتبه وهو يصرخ منادياً الباشاويش وقال بمجرد أن دخل

- إبق معه إلى أن أعود . .

ورفع الباشاويش يده وأطلق زغرودة الفرح بقدمه التي يدق بها على الأرض. . . وخرج الضابط مسرعاً ودخل إلى مكتب مأمور المركز . . وبعد لحظات عاد

حدث لسيارته ، ولم يعد هناك شهود فقد انصرفوا بعد أن اكتشفوا أنها شقاوة شباب . .

وقال أشرف محتدًا :

- تقصد شقاوة عيال . . لا يهم اعتبرنى كما تريد أن تعتبرنى - ولكنك لا تستطيع أن نفرج عنى حتى لو تنازل صاحب السيارة . . إنها جريمة . . وصاحب السيارة ليس إلا مدعياً بالحق المدنى إنما الخصم هو المجتمع ، والذى يعبر عن المجتمع هو القانون والذى يطبق القانون هو النيابة . . ولن أخرج من هنا إلى بعد استكمال كل إجراءات التحقيق وإذا رأت النيابة بعدها أن تطلق سراحى . . وقال المأمور في (قرف) .

- إنى أرحب بك في ضيافتي وتستطيع أن تبغي هنا كما تريد .

ومال المأمور وهمس فى أذن الضابط وخرج الضابط من الغوفة مسرعاً ، ثم مال المأمور على أوراقه كأن موضوع أشرف الذى لا يزال جالساً أمامه قد انتهى ، وقال أشرف فى حنق :

إنك تخل بمسئولياتك . . البوليس يجب أن يكون متحرراً من مراكز
 لقوى . .

ورفع المأمور رأسه إليه وقال كأنه يلتى عليه درساً .

– إن مسئوليتي هي منع وقوع الجريمة . .

وقال أشرف :

الجريمة وقعت والسيارة سرقت . .

وقال المأمور :

- ليست هذه هي الجريمة التي كنت تقصدها . . الجريمة الأخرى لم تقع

بعد . . وأرجوك ، إجلس صامتاً فإن أمامي عملاً كثيراً . . وقال أشرف وهو ينظر إلى المأمور في غيظ :

- ضعني في زنزانة ! !

إن أى مكان هنا يمكن اعتباره زنزانة بما فيه مكتبى . . وأرجوك . . دعنى
 عملى . .

وسكت أشرف وقد بدأ يستسلم لليأس . .

والمأمور يدعى أنه غارق فى مراجعة أوراقه بينها يتسلل بعيتيه بين الحين والآخر إلى أشرف كأنه ينتظر منه مفاجأة ، وبعد أكثر من نصف ساعة دخل الضابط وهمس فى أذن المأمور ، وانتفض المأمور واقفاً وهو يقول لأشرف :

يا أستاذ أشرف . . إن والدتك تنتظرك في الخارج . . وأرى أنك توافقني
 على أن تذهب إليها بدلاً من أن تعرضها للدخول إلى مكاتب البوليس . .

وقام أشرف وقال وهو يزم شفتيه في (قرف) :

– سأذهب إليها . .

وخرج من الغرقة دون أن يحيى المأمور أوالضابط ، والمأمور بجرى وراءه إلى أن أوصله إلى داخل السيارة التى تنتظره وانحنى إنحناءة كبيرة تحية لأمه . . وانطلقت السيارة الفخمة وهو جالس بجانب أمه ، وهمت الأم بأن تتكلم ولكن أشرف قال وهو غارق في الانهيار :

- دعيني الآن يا ماما . .

ثم أمسك بيدها وقبلها واحتفظ بها فى يده ودموعه تكاد تطفر من عينيه كأنه يهم بأن يبكى نفسه . .

فطيلة حياته وهو يعيش هذه المعاناة . . معاناة الابن الذي ولد لأب

ناجع مشهور ويضيع هو وراء هذا النجاح وهذه الشهرة . . ومنذ تنبه وعيه إلى الحياة وهو يجد على الباب رجال البوليس يرفعون له أيديهم وتعظيم سلام، إلى أن بدأ يتنبه إلى أن هذا (التعظيم سلام؛ ليس تعظيمًا له إنما هوتعظيم لوالده . . هو وجده لا يستحق أي تعظيم . . ومنذ دخل المدارس وهو منتبه إلى أنه يعامل معاملة محاصة تختلف عن معاملة زملائه الطلبة . . وناظر المدرسة يستدعيه إلى مكتبه بين الحين والآخر ويسأله أسئلة سخيفة وينصحه نصائح تأفهة ، ثم يقول له « تحياتى للسيد الوالد إنه رجل عظيم » . . وكان يعلم أن كل ما يريده الناظر هو إبلاغ تحياته لوالده ، لا شيء آخر ، ولولا والده لما استدعاه أبداً ولا عرف بوجوده . . والمدرسون أيضاً إنهم يعاملونه كأنهم موظفون عنده وحده . . ويحس أنهم يجاملونه في الدرجات ، ومدرس اللغة العربية يكرر أمام بقية الطلبة في كل مناسبة تافهة «ياسلام . . إنك سترث والدك في عبقريته « أوكلاما آخر في هذا المعنى . . وحتى الطلبة . . إنهم يضعونه في ركن بعيد عنهم ، ويعيشون معــه كأنه ليس منهم ، وعنـــدما يجتمع بهم يلتفــــون حــــوله كأنهم يتفرجون عليه ، وعندما يتكلم يستمعون إليه كما يستمعون لمسرحية تذاع في

وأخذت كل هذه الأحاسيس تتعقد داخل نفسه ، وبدأ يحاول أن يثور علمها . . أن يتحرر من ضغط شخصية والده عليه . . يريد أن تكون له شخصية قائمة بذاتها . . يريد أن يعرفه الناس ويعاملوه على أنه الطالب أشرف ، لا على أنه أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . ومنذ أن كان صغيراً وهو يتعمد أن يهرب من رجال البوليس الواقفين على الباب حتى لا يواجهونه به تعظيم سلام » ، بل إنه بعد أن ضاق بهم صاح في واحد منهم :

- عندما ترى أبى ارفع يدك بالسلام . . هذا السلام ليس مخصصاً لى . . إياك أن ترفع يدك بالتحية لى . . فاهم ؟ .

وأجاب الشاويش وهو يبتسم في تملق :

يا سلام يا أشرف بيه . . إنك تستحق ألف سلام . . إنك سيدنا وابن
 سيدنا . .

ولم يستطع أن يتخلص حتى اليوم من الـ « تعظيم سلام » . .

ودفعته العقدة التي يحس بها وهو مع زملائه الطلبة إلى أن أصبح يبدو بينهم كأنه إنسان شاذ . . كان يجلس بينهم في ركن بعيد وهو صامت بينها هم يتضاحكون ويهرجون ويلعبون ، ثم فجأة يقوم من بينهم بعمل شاذ لا ينتظرونه . . كأن يرقص رقصاً بلديًّا وهو يصبح فيهم في لهجة أولاد البلد :

- (سقف) انت وهو . . باللا باجدعان .

وفى مرة كان جالساً بينهم وهم يلعنون أحدهم الآخر ياسم الأب .. وهو مند وعى وهو يسمع زملاءه بتلاعنون باسم الأب والأم كنوع من أحاديث المداعبة ورفع الكلفة ، ما عدا هو . . هو وحده الذي لم يلعن أحد من زملائه أباه . . حتى ولا من باب الخطأ . . وكأن أباه شخصية مقدسة ليس من حتى أحد أن يلعنها أو يتجرأ عليها أو يتخذها موضعاً للمزاح .. فقام بين زملائه وقال وهو يضحك كأنه يغربهم برفع الكلفة بينهم وبينه :

– وأنا كمان يلعن أبويا . .

وسكت كل من حوله كأنهم شلوا من هول المفاجأة ، ثم انطلق واحد منهم وكأنه قرر أن ينتهز الفرصة وصرخ في وجه أشرف لا عنا أباه .

وانطلق بقية الطلبة يضحكون ويرددون الشتائم على أبِ أشرف ، وهو يحاول أن يظحك معهم ويرد على شتائمهم وهو يحس أنه لا يستطيع أن يحتفظ بضحكته لا يستطيع أن يحتمل مزيداً من اللعنات التي تقع على رأس أبيه حتى ولو كانت لعنات على سبيل المداعبة والمزاح . . إنه يحب أباه ، ويقدره ، ويغار عليه ، رحتى على صورته العامة التي تتمثل في احترام الناس له ورهبتهم منه . . . برغم كل ما يعانيه أشرف من عقد في مواجهة أبيه فهو يحبه ويغار عليه حتى لو ثار ضده . . وكل هذا دفعه إلى أن يسكت مرة واحدة داخل حلقة اللعنات والشتائم ، ويسحب ضحكته ، وبدأ يسير مبتعداً عنهم ، وهو يسمع أحدهم يقول :

- حانروح في داهية . .

ويقول الآخر :

- أنت اللي ابتديت :

ويقول الثالث :

- دى فيها رفت . .

ويقول الرابع :

– استعدوا يا اولاد . . كلنا حاندخل السجن . .

وربما شعر بما سمعه بإحساس من الرضا كأن أباه قد استرد مكانته بين الطلبة ، ولكن العقدة التي يعانيها عادت تتغلب عليه . . لماذا يكون أبوه دون بقية الآباء هو الذي يخاف الناس أن يداعبوه باللعنات . . وما ذنبه هو حتى يوضع

لى ركن اجناعى لا يختاره بنفسه إنما لمجرد أنه ابن أبيه . . وقد حاول أن يخرج بعداً عن هذا الركن فسعى إلى أن يصادق طالباً كان يعلم أنه ينتمى إلى أدنى العلمات الشعبية ، ويقم فى حى الباطنية وراء جامع الأزهر ، وأبوه صاحب كان سجائر صغير ، ووصل بإلحاحه فى صداقة هذا الطالب إلى أنه ذهب لم وره فى بيته داخل حارة الطناش وما كاد يدخل الحارة بعد أن ترك السيارة التي حاء بها فى ميدان الأزهر حتى استقبل كأنه زعم شعبى ، فكل أهل الحارة حاء بتفرجون عليه ويصافحونه ، ووالد زميله أخذه من يده وطاف به على د كاكبن الحي وهو يقدمه متفاخراً :

وبدأ يحس أن أباه يلاحقه حتى فى أصغر حارة فى القاهرة ، بل أحس أنه بزداد تعقيداً وهو بين أبناء الطبقة الشعبية . . يحس بمسئولية يريد أن يهرب منها . . مسئولية تمثيل والده . . علاوة على أنه اكتشف أنه يكلف صديقه غالباً كلما زاره ، فإن أهله يقيمون شبه وليمة كلما جاء إليهم . . إلى أن مال عليه والد صديقه يوماً وقال كأنه يهمس فى أذنه :

عايزك فى خدمة ياسى أشرف . . أصل مأمور الحتة تاعبنا وما حدش
 عارف يلمه . . يمكن كلمة منك للسيد الوالد توقفه عند حده . .

ومضى والد الصديق يروى قصة طويلة لأشرف عن تصرفات المأمور برغم أن أشرف لم يكن أيامها قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ولا يستطيع أن يفهم كثيراً نما يسمعه . . كل ما فهمه أن ليس له قيمة إلا بوالده حتى وهو بعيد فى حارة طناش بحى الباطنية . .

وقال لوالد صديقه:

- حاضر .

ولم يبلغ والده بشيء لكنه شطب من حياته صداقة هذا الصديق . . وظل يحاول إثبات شخصيته بعيداً عن أبيه . . حتى أنه وهو في هذه السن . . سن الثالثة عشرة . . أراد أن يثبت لزملائه الطلبة أنه وولد شتى » ولا يقل عنهم تطاولاً على المدرسين ، فاتفق معهم على أن يربط حبلاً رفيعاً في مقعد مدرس اللغة العربية . حتى إذا جاء ليجلس عليه شده فسقط المدرس على الأرض . .

وقام المدرس صارخاً يكيل الشتائم للتلاميذ ويصبح :

- من هو ابن ال. . . . الذي دبره هذه الجريمة ؟ ! ! . وقام أشرف وهو ممسك بطرف الخيط في يده :

– أنَّا يا أستاذ . .

وسكت صراخ المدرس ونظر إلى أشرف في حيرة وتردد :

معقول يا أشرف . . لا بد أنهم سلطوك وضحكوا عليك . .

وحاول أشرف أن يثبت أنه المسئول ، وأن ينال عقاباً ، ولكن لا أحد يريد أن يستسلم لاعترافه . . وأمر الناظر بإجراء تحقيق ، ونام التحقيق .

وأحس زملاؤه بأنهم يستطيعون أن يرتكبوا كل الآثام في حمايته ، وحاولوا أن يحرضوه على مؤامرات طلابية أخرى ، ولكنه كان يرفض ، لأنه اكتشف أن هذه المؤامرات أو المداعبات لا تحرره من شخصية والده بل تزيده خضوعاً لما ، وتزيد شخصيته الخاصة ضباعا . . لو أنه كان قد عوقب كأى تلميذ عادى فريما كرر هذه المداعبات لكنه لم يعاقب لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . .

ويكبر والعقدة تتضخم في صدره ، وتلف أعصابه ، وتسيطر على عقله ، وبحس دائماً بأنه ضائع وأنه شهيد أبيه الذي أخذ منه كل شيء يمكن أن يكون ملكاً خاصاً له . . حتى عندما أحب . . وكان قد التتى بعفاف وهو في الخامسة عشرة من عمره . . التتى بها صدفة بعيداً عن عائلته وعائلتها . . وهي تعرف أنه ابن إسماعيل عبد الصبور ، وهو يعل أنها ابنة محمود رفعت موظف كبير بداجة مدير عام . . ومع الأيام بدأ يلاحظ أن عفاف تعطيه كل ما يريد وأكثر . . انه يستطيع أن يحادثها بالتليفون كلما أراد ، ويستطيع أن يخرج معها كلما أراد ، بل إنه حاول مرة أن يدعوها إلى الخروج بعد الساعة الثامنة ، واحتج بأنه تعب ويفكر في الانتحار ، وقالت له عفاف في التليفون :

- انتظر حتى أسأل ماما . .

ووافقت ماما على أن تخرج عفاف للقائه فى الليل . وهو دهش . . كيف لوافق أى أم على أن تترك ابنتها التى لم تتجاوز الثالثة عشرة للقائى ليلا . . هل هى عائلة من هذا النوع ؟ . وقد حرص على أن لا يدعوها لبيته أو يقدمها لأمه . . إنه يريد أن يبتعد بها عن مظهر عائلته . . عن أبيه . . يريد أن يكون بالنسبة لها شخصية قائمة بذاتها . . ولكن عفاف تلح عليه أن تقدمه لعائلتها ، وتدعوه إلى رازتها فى البيت ، وتغريه قائلة :

- إذا تعرف إليك بابا وماما سهل علينا اللقاء . .

وَكَانَ عَنْدُمَا يَطْلَبُهَا بِالتَّلْيَفُونَ تُرَّدُ عَلَيْهِ الْأُمُّ أُحِيَّانًا فِي تُرْحَابُ شَدِيد :

- من . ؟ أشرف ؟ أهلاً يابني . . دقيقة واحدة لأدعو لك عفاف . .

وكان يتعجب لهذا الترحاب الكبير . . هل يطمعون فى زواجه من عفاف . . ولكنه لا يزال فى الخامسة عشرة ، ولم يصل إلى التوجيبية بعد . . لم يحن الوقت

لمجرد التفكير فى الزواج . . وبرغم تردده لم يستطع إلا أن يستسلم لإلحاح عفاف وذهب إلى لقاء عائلتها كأنه يستسلم لحكم الإعدام فإن ما حدث حتى الآن بينه وبينها يجب أن يبقيه بعيداً عن عائلتها . . فكيف يواجه أباها أو أخاها ؟!!

ودهب .

واستقبلوه بترحاب كبير وفى شبه وليمة رسمية ، وأخذوا يدعون الجيران ليتفرجوا عليه ويتعرفوا به . . نفس ما حدث له مع صديقه فى حارة الطناش بحى الباطنية . . واحتمل . . ولا يزال يأخذ من عفاف ما يريد وأكثر . . إلى أن كان هناك يوم استدعاه فيه والدها إلى جلسة خاصة وقال وهو يرفع من درجة حنانه وحبه له :

- إنى لم أتعرف بالسيد الوالد حتى اليوم . . ربما لم تأت المناسبة بعد . . ولكنى أقدر أن هناك تفاصيل هامة كثيرة لا تصل إليه . . لذلك أعددت مذكرة . . أقصد خطاباً . . أعتقد أنه يجب أن يصل إليه . . والواقع أنى أستحق درجة وكيل وزارة منذ سنتين ولكن ما يجرى فى الوزارة مما لا يعرفه السيد الوالد كان السبب فى أنهم مخطوفى . .

وأخذ السيد محمود رفعت المدير العام يروى تفاصيل كثيرة دون أن يقدر أن أشرف وهو فى الخامسة عشرة من عمره لا يمكن أن يعى شيئاً مما يسمعه . . وقال أشرف :

- حاضر

وأخذ المذكرة على أن يسلمها إلى أبيه ، وقبل أن يصل إلى آخر درجات سلم الخروج كان يمزق فيها . . إنه يرفض أن تكون كل قيمته هو أنه ابن إسماعيل

عبد الصبور . . وهذه العائلة تحتنى به كل هذا الاحتفاء لأنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . الذى يستطيع أن يمنح الترقية إلى درجة وكيل وزارة . . وربما كانت عماف لا تحب فيه إلا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . ومضت فترة كان أشرف بكذب فيها ويدعى أنه سلم المذكرة إلى أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى الكذب . فدا يبتعد ويهرب من عفاف ، إلى أن شطبها من حياته ، وأقنع نفسه أنه لم يجن عليا فهى لم تكن تريده ولكنها كانت تريد أباه إسماعيل عبد الصبور . .

والعقده التي يعانيها تشتد به وتزيده ضياعاً ... إنه لا يستطيع أن يساهم و أى نشاط سياسى ، فشبح أبيه يسيطر على كل تحرك له .. لو اشترك فى أى نشاط سياسى ، فشبح أبيه يسيطر على كل تحرك له .. لو اشترك فى حركة تؤيد سياسة أبيه فهو منافق لا يفكر بعقليته ولكن بعقلية أبيه وإذا قال رأباً معارضاً لرأى أبيه فإن المعارضة ترجب به لا لأنه رأى له قيمته ولكن لأنه رأى لابن إسماعيل عبد الصبور ويمكن استغلال الابن عند أبيه .. بل إنه كتب يوماً مقالاً سياسياً وسلمه بيده إلى رئيس تحرير الصحيفة وما كاد يعود إلى البيت ويلتني بأبيه حتى قال له في لهجته الهادئة العاقلة :

- دعك من المقالات السياسية الآن يا أشرف . إن ما تكتبه سينسبه الناس إلى . . فإذا صممت فلنتفق أولاً على ما ينشر وما لا ينشر .

إن أباه على حق . . هذه هي الحقيقة . . كل ما يكتبه سينسب إلى أبيه . . ولكن الحقيقة التي لا يريد أن يعترف بها أبوه هي أنه ضحية . . شهيد . . ما ذنبه حتى لا يكون من حقه رأى خاص به . . .

وقد حاول بعد ذلك كثيراً أن يتفوق في شيء ينسب إليه وحده . .

حاول أن يتفوق فى الرياضة . . لعب التنس . . والشيش . . وأيضاً المصارعة والملاكمة . . لكنه لم يستطع أن يتفوق فى شىء . . وكانوا ينظرون إليه قال أشرف في جمود :

- سرقت ، ،

فال الأب في تأفف :

- وهل كنت في حاجة إلى السرقة ؟

قال أشرف ولهجته لا تخلو من السخرية ؟ :

- طبعاً لا . . ابن إسماعيل عبد الصبور لا يمكن أن ينقصه شيء حتى يسرق . . إشارة واحدة من أصبعي تجعل سيارات الدولة تحت أمرى . . ولكنى سرقت لإجراء تجربة اجتماعية . . كنت أريد أن أكتشف هل أنا بنى آدم أم أنى مخلوق

من نوع آخر . . نوع من الملائكة أو من الشياطين . . وزم عبد الصبور شفتيه امتعاضاً ثم شد نفسه كأنه يتحامل ويستعين

ببر وقال:

- وماذا اكتشفت ؟

قال أشرف وابتسامته الساخرة تتسع :

طبعاً لا يمكن أن أكون مجرد بنى آدم . . أنا ابن إسماعيل عبد الصبور. .

إن البنى آدم إذا سرق يقبض عليه ويقدم للمحاكمة ويدخل السجن . . أما النوع الآخر من المخلوقات الذى أنا منهم فإنه إذا سرق فإن رجال البوليس يصطفون قرة قول شرف تحية له ، والنيابة تنحنى إحتراماً ، والحكام تعتبر نفسها في عطلة رسمية كأنها في يوم عيد وطنى . .

وقال عبد الصبور وقد بدا كأنه قرر أن يكون مازحاً :

– اسمع یا ابنی و . . .

وصرخ أشرف مقاطعاً :

وهو يلعب على أنه ابن ذوات يتسلى . . ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وحاول أن يتفوق فى دراسته . وقد تفوق فعلاً ولكن تفوقه ضاع فى زحمة الإشاعات التى تثور حوله بعد كل امتحان . إنهم يقولون إنه يحصل على كل الأسئلة قبل الامتحان . ويقولون إنه يضع إشارة خاصة على ورقة الإجابة حتى يعرفها المصحح فيعطيه الدرجة القصوى . . وعندما التحق أخيراً بكلية الهندسة قبل إنه استثنى من شرط المجموع . .

وهو دائماً . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . أشرف وحده لا يساوى شيئاً . .

إلى أن أدت به عقدته إلى التفكير فى ارتكاب جريمة . . سرقة سيارة . . ربما تأكد الناس بعدها أن شخصيته تختلف عن شخصية أبيه . .

. . .

ووقفت السيارة الفخمة أمام باب البيت ، وفتح السائق الباب ، وضغطت أمه على يده وقالت في توسل :

- أشرف . . من أجل خاطرى . . تحمل أباك . .

وهز رأسه يطمئنها فى صمت ، ودخل البيت وراءها ، ولم يتجه إلى غرفته هرباً من لقاء أبيه ، ولكنه اتجه إلى الغرفة التى يعتقد أن أباه ينتظره فيها . . ووقف أمامه صامتاً وهو ينظر إليه بكلتا عينيه كأنه يريد أن يؤكد له أنه ليس نادماً على ما فعل ولا خجلا . . وأبوه ينظر إليه فى حسرة . . ليست نظرة ثورة على هذا الأبن ولا حتى نظرة غضب ولكنها نظرة حسرة وألم عاطنى كأنه ينظر بها إلى ابنه المريض . . وقال إسماعيل عبد الصبور فى لهجة اليائس :

- ما هذا الذي فعلته يا ابني ؟

- إسمع أنت يا بابا . . إذا لم تحقق معى النيابة فى الجريمة التى ارتكبتها فلن أسكت . . ولن يهمنى شيء . . سأخرج فى الشوارع وأصرخ حتى يعرف الناس أن ابن عبد الصبور لص أو يتصوروا أن ابن عبد الصبور مجنوناً . . وارتفع صوت عبد الصبور محتداً :

- أسكت يا ولد . . إن أقل حق لأبيك عليك هو أن تستمع إليه . . وإذا كنت تعتقد أنى أحميك حماية لسمعتى ولصالحى فأنت جاهل . . أحمق . . ومما يعذبنى أنك وقد بلغت العشرين من عمرك تزداد جهلاً . . إن مصالحى كانت تفرض على العكس . . تفرض على أن أقدمك للنيابة وأن أوصى بتشديد العقوبة عليك حتى أخلص ذمتى أمام الناس الذين يثقون بى ، وحتى أثبت لحؤلاء الناس أنى فى سبيل العدالة أضحى حتى بابنى . .

واهتزت جفون أشرف وهو يستمع لأبيه كأنه اكتشف شيئاً جديداً كان غاثباً عنه ، واستطرد الوالد قائلا :

 إن القبض عليك كان يشرفني كرجل مسئول. ولو كنت متأكداً من أنك فعلاً قد وصلت إلى حد الإجرام ، لما ترددت . . ولكني واثق أنك لست مجرماً ولن تكون ، ولكنك تعانى حالة نفسية أعرفها و. .

وقاطعه أشرف كأنه بقاوم اقتناعه بمنطق أبيه :

طبعاً أنت تعرف كل شيء . . أنت خبير في الاقتصاد . وفي السياسة وفي الدين . . وأنت الآن خبير في علم النفس أيضاً . .

وقال الأب دون أن يغضب كأنه يعذر ابنه في كل ما يقول :

- فعلاً أنا خبير في علم النفس وإلا لما نجحت . . وأنت تعانى عقدة . . عقدتك هي أنا . . وهي ليست عقدة غريبة إنها عقدة التطور الطبيعي للأبناء

إلى أبعد مما وصل إليه الآباء . . وقد كنت معقداً من أبي لأنه كان فقيراً لم سنطع أن يتقدم بنفسه وهي عقدة دفعتني إلى أن أعمل أضعاف ما كان مقدرًا لى أن أعمل وأن أكتشف بنفسي طريقاً لم يكتشفه أبي . . ومنذ وصلت إلى العشرين والناس تتحدث عنى دون أن تنسبني إلى أبي ، بل إن أبي كان ولا يزال ينسب إلى . . لم أكن أوصف بأنى ابن فلان بل كان أبي يوصف بأنه أبو فلان . . وأنت . . إن عقدتك عكسية . . لقد ولدت لتجد أباك قد حقق شيئاً كبيراً ، وَكَانَ يَمَكُنَ أَنْ تَكَتَنَى بِمَا حَقَقَهُ أَبُوكُ وَنَعَيْشُ رَاضِيًّا فَخُورًا بِهِ ، وَلَكَنْكُ وَرَثْتَ عَنَى الطموح الشخصي فحاولت منذ صغرك أن تخلق شيئًا مميزًا ينسب إليك وحدك . . وَكَانَ هَذَا يَسْعَدُنَى . . أَنَا أَيْضًا أُربِيْكُ أَنْ تَنْجِحِ فِي شَيْءَ لِيسَ لِي فَضُلُّ فَيه . . إن المزارع الناجع يتمنى أن يكون ابنه طبيبا ناجحاً حتى لا يكون له فضل في تجاحه فيحس أنه أنجب شخصية كاملة تستطيع أن تخلق نفسها بنفسها . . وكذلك أنا . . إنَّى أَتَمْنَى أَنْ تَكْتَشْفَ لَنْفُسَكُ طَرِيقاً غير طَرِيقِي . . أحياناً أنخيل أنك عالم نى الذرة . . ولكن عقدتك كانت أقوى منك فلم نستطع أن تتحمل الوقت الطويل الدي يتطلبه بناء شخصية قوية في مواجهة شخصية أبيك . . إني أثبت وجودى أمام أبي وأنا في العشرين ، أما أنت فربما تحتاج إلى أن تنتظر وتحتمل إلى سن الأربعين . .

ويحمد إى سن مرجيل على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم وسقط أشرف جالساً على مقعد ورأسه بين يديه كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم منطق أبيه ، وقال وصوته يتهدج كأنه على وشك البكاء :

بين الناس لا تترك لى مجالاً للإحساس بنفسى . لاثبات وجودى . . الناس لا تترك لى مجالاً للإحساس بنفسى . . لاثبات وجودى . . دائماً للنفقة فى أنى أستطيع أن أكون مستقبلاً . . إنى دائماً صورة للماضى . . دائماً ابن إسماعيل عبد الصبور . . حتى وأنا ألعب وكأنى أنفذ قراراً رسميًّا أصدره إسماعيل

قال أشرف :

- لن يحدث . . فقط دعني وحدي . .

قال الأب :

- لا تحرمني من طبيعة الأب . . أريد أن أطمئن دائما عليك . .

وقال أشرف :

- سأطمئن ماما دائماً . . أرجوك . . اكتف بماما للاطمئنان على ولا تعتمد على أى وسيلة أخرى . .

ونظر إسماعيل عبد الصبور إلى ابنه طويلاً ، وقال وهو يتنهد كأنه في موقف

- إنها تجربة سأتركك لها . .

عبد الصبور باللعب . .

وقال الأب وهو يقترب من ابنه ويمد يده يربت بها على كتفه :

- تسافر إلى الخارج . . وتتم تعليمك هناك بعيداً عن الناس هنا . .

وابتسم أشرف في مرارة قائلاً :

- حتى في الخارج . . عندما كنت أسافر في الصيف كنت أبقى حبيساً داخل شخصيتك ، وعندما كنت أذهب إلى أحد الكاباريهات لأرقص كانت السفارة كلها تلحقني وترقص معى . .

وقال الأب في رجاء :

إن ملاحقة شخصية الأب لشخصية إبنه لا يمكن أن تعوقه عن بناء
 نفسه و. .

وقاطعه أشرف وهو يهب واقفاً :

أرجوك يا بابا . . دعنى أفكر لنفسى . . أنى سأحاول أن أعيش بعيداً
 عنك ولكن لا تسألنى أين ولا كيف . . وثق انى لن أكرر خطئى . . لن أرتكب
 جريمة تمسك . . لن أفكر فى مستقبل على حساب الماضى . .

وقال الأب وابتسامة ضعيفة بين شفتيه :

أنا لست الماضى يا أشرف . .

فقال أشرف :

- أريد أن أحس بك كماض حتى أحدد مستقبلي . .

وهز الأب رأسه في أسف قائلاً :

- لقد تركتك حرًّا دائماً . . المهم لا تضطرنى أن أثبت للناسُّ حرصى على الحق حتى لوضحيت بابنى .

كان القرار الذي اتخذه هو أن يبتعد عن أبيه . . ولكنه لا يدرى أين يبتعد . .

وكان القرار هو أن يخلق لنفسه شخصية جديدة قائمة بذاتها منفصلة عن شخصية أبيه الرجل الناجح المشهور .

ولكنه لا يدري كيف تكون هذه الشخصية الجديدة . .

وفكر أن يهاجر إلى أمريكا . . لا . . أمريكا مزدحمة بالعرب ووالده على صلات قوية بمراكز القوى هناك ، ولن يستطيع أن يكون شخصية منفصلة . . فليهاجر إلى أستراليا . . ولكنه كي يهاجر بجب أن يقدم أوراقه إلى مكاتب الهجرة . . أى يكشف نفسه . . أشرف بن إسماعيل عبد الصبور . . وأى سفارة يقدم لها أوراقه ستتصل بوالده فوراً . . ثم ماذا يعتمد عليه في هجرته . . إنه لم يتم تعليمه . . لا يزال في السنة الأولى بكلية الهندسة ، ولا يجيد أي عمل ، ولم يتعلم بعد الاحتراف ولا حتى احتراف أن يكون سائق تاكسي . . إنه في أي مكان في العالم مضطر أن يبتي معتمداً على شخصية أبيه . . على نفوذ أبيه أو على أموال أبيه . . إنه حتى قبل أن بخرج من البيت أخذ من أمه ماثة جنيه . . لم يخرج إلا وشخصية أبيه في جيبه . . الشخصية التي تستطيع أن تعطى . . وربما كان الأفضل أن يستسلم لرأى أبيه ويقرر أن يسافر ليتم تعليمه في الخارج على حساب الدولة أو على حساب أبيه . . ولكن لا . . إن ما يعذبه ليس وجوده في مصر إنما وجوده داخل شخصية أبيه سواء في مصر أو خارج مصر . . ثم إنه لا يريد

أن يَم تعليمه . . إنه يستطيع أن ينجح في كلية الهندسة ويحصل علىالبكالوريوس براة ، ولكن الحياة لم تعد تعتمد على الشهادات الجامعية . . الشهادة قد لَكُونَ شَرِطاً للحصول على وظيفة ولكنها ليست شرطاً للنجاح في الحياة . . معظم الناجمين في الدول المتقدمة لا يحملون شهادات جامعية . . وهو يحس أنه ملك إمكانيات يمكن أن تحقق له النجاح حتى لو بدأ كبائع ترمس . .

وابتسم بينه وبين نفسه ابتسامة حزينة . . إن عليه أن يكنشف أيضاً هل هو مجنون أم عبقرى . .

وقررأن يشافر إلى شاطئ العجمي . . ونحن في الشناء والشاطئ خال يستطيع أَنْ يَحْنَىٰ فِيهِ مَنْ شَخْصِيةً والده ويترك نفسه هناك لفكره إلى أَنْ يقرر مصيره . . . وقد اختار شاطئ العجمي لأنه منذ سنوات شبابه الأولى تعود أن يهرب إليه في لبال الصيف بعيداً عن مجتمع أبيه الذي كان يحتل شاطئ المنتزه حيث أعلن – هذا المجتمع – أنه الوريث الشرعي لأوستقراطية العائلة المالكة . .

وفي العجمي أستأجر بيناً صغيراً على شاطئ " بيانكي " لا يعرف صاحبه ، لله استأجره من الخفير ، وربما كان الخفير يحتفظ بقيمة الإيجار لنفسه لأنه لساهل جداً في تقديرها . . عشرون جنيهاً في الشهر . . بيت مؤسس مفروش وسحك . . إن الخفير حارس ومن حقه أن يطبق نفس لوائح هيئة الحراسات الني فرضت على بيوت الناس . .

ومئة اليوم الأول قررأن يطلق شعر رأسه وذقنه لبتخني . . لا يمكن أن يتصور أحد أن هذا الشاب الذي أطلق شعر رأسه حتى كتفيه وأطلق ذقنه وهذبها على الطراز المودرن يمكن أن يكون ابن إسماعيل عبد الصبور . . إن ابن إسماعيل

عبد الصبور لا يمكن أن يكون كبقية الشبان . . إنه نوع آخر . . صنف آخر . . وابسم في فرح وأنطلاق . . إنه منذ سنوات وهو يتمنى فعلا أن يطلق شعر وأسه . . كان مقتنعاً أن إطلاق الشعر هو نوع من إثبات شخصية الجيل الجديد . . وكل جيل من حقه إثبات شخصيته وفرض مزاجه . . وقد قرأ أن الجيل السابق . . جيل والده . . عاش أيضاً في تقليمة يرفضها الجيل الذي سبقه . . تقليمة البنطلونات الواسعة التي كانت تسمى شارلستون ، وتقليمة إلصاق شعر الرأس بدهن و الفازلين ، وكان الجيل الأسبق يتهمهم بالخنوثة والمبوعة وأنهم ليسوا رجالاً . . من يدرى ربما كان أبوه قد لبس البنطلونات الشارلستون ودهن شعر رأسه بالبريانتين ، ولكن كل جيل ينسى شبابه بمجرد أن يتعداه إلى الشيخوخة . . ولكن الواقع أن أباه لم يحذره أبداً من إطلاق شعر رأسه وذقنه إنما هو نفسه كان مقيداً بشخصية أبيه إلى حد أنه كان يحرم على نفسه أن ينطلق مع تقاليع الشباب . .

ور بما كان أول ما بدأ يحس به من مسئولية كاملة هي مسئوليته عن نفسه وعن حياته العادية . إنها المرة الأولى التي يعيش فيها وحيداً . . وهو المسئول عن إعداد إفطاره وغدائه وعشائه ، . وتنظيف البيت وإعداد قراشه وغسل ثبابه . . وقد احتار أمام مطالب صغيرة لم يكن يحس من قبل بأهيتها ، وكان يضحك ويسعى إلى مطالبه كأنه كريستوف كولومبوس يسعى إلى اكتشاف عالم جديد . . وعندما تشتد به الحيرة كان يلجأ إلى الخفير وزوجة الخفير ، ولم يحاول أبداً أن يكون له خادم . . إنه يريد أن يكون نفسه . . ولكنه يفتح عينيه مفكراً في مصيره . . ويسعى إلى مطالب حياته اليومية مفكراً . . وغرج إلى الشاطئ يجرى ويسبح وهو يفكر . . وكان يترك العجمى أحياناً في الليل وبعد أن طال شعر رأسه ويتجول في حى المكس أو يصل إلى حى محرم بك في الإسكندرية . . ودائماً على قدميه أو في أتوبيس

وأحباناً في تاكسى ، فقد كان من بين القرارات التي اتخذها ألا يأخذ سيارة من بيت أبيه .. ويتناول العشاء في مطعم شعبي وهو مطمئن إلى أن أحداً لن يعرفه ولى يكتنفه ، وعلى كل حال فهو لم يكن معروفاً خارج مجتمع أبيه ومجتمع أبيه ومجتمع أبيه ومجتمع أبيه ومجتمع أبيه ومجتمع أبيا أن أحداً لن يكن وملائه في المدرسة أو الجامعة ، فلم تكن صوره تنشر في الصحف ، ولم يكن فد قام بعمل يلفت نظر الناس إليه .. وهو دائماً يفكر .. وعندما يريد أن يستربح من التفكر يقرأ .. وكان يجيد اللغة الإنجليزية ، ويخطر على باله مرة أنه يمكن أن يكون عالماً فلكيًّا فيشترى كتاباً في الفلك ولا يتم قراءته .. وأحياناً يخيل إليه أن في داخله نزعة إلى الأدب فيقرأ في القصص .. أو في التاريخ .. أو في المندسة الميكانيكية .. ولكنه لا يتم كتاباً أبداً .. والجديد الذي طرأ عليه أنه المندسة الميكانيكية .. ولكنه لا يتم كتاباً أبداً .. والجديد الذي طرأ عليه أنه بين مجهولاً لا يعرف أحد مر أبيه ... كان من بين ما أبيه ... أن بيني مجهولاً لا يعرف أحد مر أبيه ...

وكان يحرص على أن يتصل بوالدته بالتليفون مرة كل أببوع ليطمئها ، ووالدته تستمع إليه فى فرحة ، وأيضاً فى استسلام . . فهى لا تسأله عن أكثر مما يريد أن يقوله لها . . كاف إن سألت أن يهرب منها هى أيضاً كما هرب من أبيه . . وكانت تعلم أنه يقيم فى الإسكندرية ولكنه لم يقل لها فى أى مكان من الإسكندرية ، ولم تسأله . . يكنى أنه يطمئنها على نفسه ، وكانت كل مرة تعبر عن لهفتها إليه أن تسأله فى نهاية كل مكالة :

ألا تريد شيئاً يا أشرف . .
 ويرد نى صوت مرح متفائل :

- أبداً يا ماما .

وقد مضى حوالى شهر على غيبته ، والمائة جنبه التى خرج بها على وشك أن تشى . . وهى معجزة فى تقدير أمه أن يعيش كل هذه الأيام بمائة جنيه فقط . . وتصورت أنه وجد عملاً يتكسب منه أو ربما يعيش فى رعاية بعض أصدقائه . . ودائماً قلقة كيف يستطيع أن يعيش بمائة جنيه فقط . . ودائماً تخاف أن تسأله . . إن ابنها ليس طبيعيًّا وقد يثيره السؤال . .

ولم يكن أشرف يتعمد التوفير . . ولم يتعمد أيضاً النزول عن مستوى الحياة التي كان يعيشها والتي لا يمكن أن تكفيها مائة جنيه خلال شهر . . ولكن هذه هي الحياة التي يعيشها دون تعمد ولا يحتاج فيها لأكثر مما ينفقه . . ولكن المائة جنيه انتهت . . والحفير في انتظار العشرين جنيها قيمة الإيجار . . ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى أمه . . ولكن كيف يلتتي بها ليأخذ منها ما يريد . . ووضع الخطة . . سيطلب منها أن تأتى إلى الإسكندرية وتقيم في بيتهم هناك . . ويقابلها خارج البيت حتى لا يكتشفه العسكرى الواقف على الباب . . يقابلها في المساء وفي سيارة تاكسى حتى لا يعرف أحد أن ابن إسماعيل عبد الصبور قد أطلق شعر رأسه وذقنه . لا . لن يقابلها في الطريق . . داخل حداثق المنتزه . . واستقر على الخطة وقال لأمه في التليفون وهي تسأله :

- ألا تريد شيئاً يا أشرف ؟

وقال ضاحكاً :

- أفلست يا ماما . . أفلست قبل أن أصل إلى رأى . . وقالت في ذعر :

- أطلب يا أشرف . . اطلب . . كم تحتاج يا حبيبي . .

وأصر على أنه لا يريد أكثر من مائة جنيه أخرى ، وحدد لها خطة اللقاء ، وأصلمت للخطة بلا مناقشة . . إنها على الأقل سترى إبنها الوحيد . .

وهناك . . بين أشجار مدينة المنتزه وقفت أمامه تنظر إلى شعره الطويل وهناك . . بين أشجار مدينة المنتزه توفد أمامه تنظر إلى شعره الطويل ودفنه المهذبة نظرات حائرة كأنها تبحث عن ابنها الذى تعرفه . ثم ألقت نفسها فوق صدره تبكى ، وقالت من خلال دموعها كأنها تخاف أن تغضبه بدموعها : إلى أبكى فرحاً يا أشرف . . أوحشتنى يا ابنى . .

وهو يقبلها في كل مكان من وجهها ويرفع يدها ويقبلها . . وهي تنظر إلى شعره الطويل وتضحك ضحكة خافتة وتشد خصلة منه وتقبلها ، ثم تمسح يأصابعها في ذقنه قائلة :

– هذه الذقن تجعل من أمك امرأة عجوزاً . .

ويتضاحكان . . ويسيران تحت الأشجار كأنهما عاشقان . . ويروى لها كل حياته . . أين يعيش وكيف . . وتضحك حتى تخفى حسرتها وجزعها عليه . . وتسأله فى تردد خشية أن يفسر تساؤلها كأنه لوم :

هل أنت سعيد بهذه الحياة . .
 وقال ضاحكاً :

واستمر لقاؤهما طويلاً ، وربما تعمدت الأم أن تطيل فيه لعله يرضى فى النهاية أن يعود معها إلى البيت . لقد تجاوز الليل منتصفه وقد لا يرضى أن تعود أمه وحيدة . . ولكنه تركها تعود وحدها وقالت وهو يصحبها إلى قرب سيارتها التي جاءت بها وهي تقودها بنفسها تنفيذاً للخطة التي وضعها :

قال كأنه يتهمها بالغباء :

- طبعاً أستطيع أن أعرف كل شيء . .

قالت:

- ولماذا لم تقل لى . .

قال

- فضلت أن تعرفى منه هو . إنها إحدى وسائل العلاج النفسائى . . أن يتأكد من أنه أصبح أقوى منى إلى حد أنى لا أعرف مكانه . . وقد خشيت أن يعرف منك أنى أعرف . . أعرف كل شيء . .

وتنهدت في ألم وقالت في بأس :

- لعلك تكتشف لى علاجاً أنا الأخرى . .

. . .

وفي العجمى . . في يوم من أيام الشتاء والشاطئ يكاد يكون خالياً من الناس تعرف أشرف إلى دينوس وعائلته . . إنها عائلة يونانية تقيم في الإسكندرية وتملك بيتاً في العجمى قريباً من البيت الذي استأجره أشرف ، تقضى فيه عادة إجازة نهاية الأسبوع . . يومي السبت والأحد . . وكان أشرف جالساً أمام بيته ينظر إليهم من بعيد . . وبيتسم وهو يتتبع صياحهم ورقصاتهم . إن عددهم كبير . . شيوخ وشبان وأطفال . . وكانت ابتسامته تنبض بالحسرة على نفسه . . إنه لم يعش أبداً مثل هذه الحياة العائلية المرحة . . ولم يجرب الجازة نهاية الأسبوع . . الخميس والجمعة . . إن عائلته في يوم الجمعة تعودت أن يهرب كل واحد فيها من الآخر . . وأبوه يصبح يومها ودمه أثقل من أي يوم آخر ، كأنه لا يحاول أن يستريح من متاعب الأسبوع الذي مضي ولكنه

مل أراك غداً . .

قال وهو يسحب ابتسامته ويبدو جاداً :

. . Y-

قالت في استجداء :

إنى سأبق بضعة أيام فى الإسكندرية . .

قال وهو أشد حزماً :

– أرجوك يا ماما . . عودى غداً إلى أبي . .

قالت ودموعها تكاد تطفر:

- ولكنى لم أشبع منك . .

قال

لنتعود . . إنها حياة جديدة . . لا تضطريني أن أختني في بلد آخر .
 واحتضنها بسرعة وقبلها ، ثم تركها مبتعداً وجرى وراء أتوبيس وتعلق به . .
 ودخلت الأم إلى سيارتها وألقت رأسها فوق عجلة القيادة وبكت . .

وعادت إلى القاهرة في اليوم التالى إطاعة لأمر أشرف وحتى لا يفر إلى بلد لا تعرفه ، وعندما التقت بزوجها إسماعيل عبد الصبور قالت وهي تحاول أن تتغلب بفرحتها على حسرتها :

– عرفت أين يقيم أشرف . . إنه في العجمي . .

وقال إسماعيل عبد الصبور في برود :

- أعرف . .

وقالت في دهشة :

كيف عرفت ؟

يجمعها فوق رأسه . .

وخرج دينوس من بين الشلة واقترب من أشرف وقال وهو ينطق بالعربي في لهجة تتراقص فيها الموسيقي اليونانية :

- من فضلك . . هل تعرف أحداً نستأجر منه أنبوبة بوتاجاز . . اكتشفنا أن الأنبوبة عندنا فارغة . .

وقال أشرف :

- إن الخفير يعرف كل شيء هنا . .

وقال دينوس :

إذن ألبدأ البحث عن الخفير . . شكراً . .

وقبل أن يبتعد استوقفه أشرف قائلاً :

- تستطيع أن تستعمل البوتاجاز الذي عندي . . إنى لست في حاجة إليه اليوم . . والخفير قد لا تجده الآن . .

وتبادلا كلمات سريعة ثم دخل دينوس مع أشرف إلى المطبخ وحملا أنبوبة البوتاجاز ، كل منهما من ناحية ، وعادا بها إلى البيت الآخر . . واستقبلتها العائلة بالتهليل المرح ، وعزف واحد منهم على «البازوكا» لحن السلام الملكى القديم تحية لأنبوبة البوتاجاز . . ووقف أشرف بينهم ضاحكاً حائراً . . إلى أن تقدم إليه الرجل الكبير . . لعله الأب . . يقدم له كأساً من نبيذ الريتسينا مائحاً .

- في صحة البوتاجاز , . وفي صحتك . .

وشرب الكأس ضاحكاً ، وفي لحظات أحس كأنه واحد منهم . . واللغة اليونانية تملأ أذنيه . . كلهم يتكلمون في وقت واحد ، وكل منهم لا يكفعن

الكلام أبداً . . وينتبهون إلى وجوده بينهم فيطلقون بضع كلمات بالعربية ثم يعردون بسرعة إلى إطلاق قذائف يونانية . . إن اللهجة الجريكية أشبه بقذائف اللهليوز . . ويحاول أن يلتقط أسماء كل منهم . . دينوس . . بانايوتى . . بابادوبلو . . ناكي . . مارينوس . . وأسماء البنات . صوفياس . . جوانا . . مارياً . . أنى . . كاتيا . إنه يحس وسط كل هؤلاء كأنه طار بعيداً عن مصر . بعيداً عن أبيه . إنه الآن في أثينا . . وعيناه تطوفان بشوارع أثينا ثم تتوقفان طويلاً عند كاتبا . . شيء في داخله يشده إليها . . خيل إليه أنها أجمل بنات المائلة . وأهدأهن . على الأقل إنها أقل البنات ثرثرة . والجميع في حاجة دائمة إليها . . كاتبا . كاتبا . كاتبا . كاتبا . وهو لا يدرى ماذا يطلبون منها ولكنها نتحرك دائماً . والتفت إليها مرة فوجدها هي الأخرى تنظر إليه من بعيد . . وتعلقت عيناها بعينيه وبينهما ابتسامة . .

وخرجوا جميعاً إلى الشاطئ يلعبون الكرة ، ويتسابقون ، ويقفز أحدهم في الآخر ، ويتحدون أحدهم الآخر من منهم يقبل أن ينزل البحر في عز البرد . . وهان . . وقبل أشرف الرهان ونزل إلى البحر وخرج وهو يقاوم رعشته . . وكانت فيسة الرهان أن تسقيه كل فتاة من العائلة كأساً من الريتسينا . . وصاحت كاتيا ، بينهم بكلمات كثيرة جريكية لم يفهم منها شيئاً ، ثم تقدمت إليه نحمل كأساً وقالت في لغة عربية لغة تتعثر كلماتها فوق لسانها حتى اضطابت أن تقلها إلى اللغة الإنجليزية :

- أخاف عليك أن تسكر . , لا شك أنك لست متعوداً على شرب الرينسينا . . كأس واحدة تكفى . . كأسى . . وشرب الكأس وقال ضاحكاً :

- أحس كأنى عندما ولدت أرضعوني ريتسينا . . وضحكت وقالت كأنها أمه التي أرضعته :

- قم نلعب الراكت حتى تدفأ . .

وقام يلعب معها الراكت والجميع يهللون من حولهم . . برافو أشرف . . أشرف نرجوك لا تهزم كاتيا . . وكان قد قدم نفسه إليهم باسم أشرف إسماعيل ، ولم يتم بقية الاسم كأنه يدارى عورته . . وترك كاتيا تغلبه . . أو هكذا أقنعته ، ولكن الواقع أنها غلبته . .

والتف معهم حول أطباق طعام الغذاء . . وعرف أن الكباب الجريكى اسمه سوفلاكى . . وأحس أن أطعم سلاطة ذاقها هى السلاطة الجريكى التى يضاف إليها الجبن . .

وفي العصر . . والجميع في راحة وقد سكتت طلقات المترليوز الجريكية . . كان نينوس ممدداً بجانب أشرف على الشاطئ يروى له قصة عائلته . . أنهم كلهم ولدوا في مصر . . منذ أيام أجدادهم وهم في مصر . . وكان أبوه وعمه يعملان في البورصة ويديران شركة كبيرة لأعمال التصدير والاستيراد ، ويمثلان شركات للنقل البحرى . . ثم في عام ١٩٦٠ شملهم التأميم . . صودر كل ما يملكون . . واضطروا إلى الهجرة إلى اليونان ما عدا العم ، ، فقد أصر على أن ينبي حياته في مصر واستسلم لضياع أمواله واكتنى بأن أصبح شريكاً لصديق يوناني يملك مقهى ومطعماً في الإسكندرية قريباً من محطة الرمل . والذين عدوا إلى أثينا أحسوا أنهم غرباء هناك حتى الشباب منهم . . لقد بجحوا في أعمال كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك كثيرة ضخمة هناك ولكنهم دائماً غرباء ، وأهل أثينا أنفسهم يعتبرون الجريك الوافدين من مصر غرباء ، بل يحاربونهم ويحاولون قطع أرزاقهم ، و بما أن

حريك مصرهم أمهر وأرق من جريك اليونان أنفسهم ، على الأقل يتميزون بإحادة اللغات الأجنبية التي أصبح العمل في اليونان يحتاج إليها احتياجاً أساسياً ، في حين أن عدد الذين يجيدون اللغات هناك لا يكفي . .

واستطرد تينوس يروى القصة .. إنهم برغم نجاحهم فى بلادهم قرروا العودة إلى مصر بمجرد أن شعروا بالاطمئنان .. وعاد معظمهم لا ليطالبوا بممتلكاتهم التي ضاعت منهم ولكن ليبدأوا العمل فيها من جديد . .

وضحك تينوس قائلاً :

- هل تعلم ما هو مشروعنا الجديد . إنشاء مطعم ومقهى جديد . . . مطعم كبير فخم من المطاعم السياحية العالمية . . إن عمى بعد أن اشترك في إدارة المقهى الصغير أصبح يؤمن بأن المقاهى والمطاعم أكثر ربحا من الشركات

وقال أشرف في تردد:

وكاتبا هل ولدت في مصر . . إن لغتها العربية ضعيفة . .
 وقال تينوس وهو ينظر إليه كأنه يفهمه :

- كاتيا لم تكن قد تجاوزت عاماً واحداً من عمرها عندما أخذناها إلى أثبنا ... وبرغم ذلك فقد كبرت وكأنها تعيش فى مصر. إن مصر فى دمنا .. والأفكار تتضارب فى رأس أشرف كأنه وجد الطريق الذى يحدد من خلاله مصيره .. كأنه هو الآخر مثل باقى أفراد العائلة عاد إلى مصر بعد أن ولد فيها وغاب عنها طويلاً .. ولم يخلص من أفكاره إلا عندما بدأ الغروب وبدأت العائلة تعود إلى نشاطها ومرحها .. وسهر معهم على نغمات البوزك .. يسمع أغانى البوزوكا ، ويحاول تقليد رقصات الكلاماتيانوس والسيرتاكي والكاسبيو ..

ويرقب كل شيء كأنه قرر أن يتعلم كل شيء .. أن يصبح جريكيًّا . . وكانها ترقص معه وتعلمه خطوات الرقصات اليونانية وتضحك ، ودائماً تعامله كأنها مسئولة عنه . . كأنها أكبر منه . . إنه حائر فيها . . ولا حتى ابتسامة تعطيها له لتشجعه عليها . . إنما ابتساماتها كلها كأنه الأخ الأصغر أو كأنه تلميذ يتعلم الحياة . .

وبرغم أن تينوس روى قصته لأشرف فهو لم يحاول أن يسأل أشرف عن أى قصة . . لم يحاول حنى أن يسأله من هو . . ربحا لأنه حتى الآن لم يكن يهمه أن يعرف . .

وعادت العائلة كلها إلى الإسكندرية في مساء الأحد . .

ولم يحتمل وحدته أكثر من يومين . . لم تعد أفكاره ولا قراءاته ولا إحساسه بمسئوليته عن نفسه يمكن أن تشغله . . واتصل بتينوس ودعاه إلى العشاء في مطعم المكس . . هو وماريا وكاتيا . . ثم انتظرهم في شوق لقضاء إجازة نهاية الأسبوع في العجمي . . . ثم أصبح يزور تينوس في بيته في الإسكندرية . . لم يعد حريصاً كل هذا الحرص على الاختفاء في العجمي . . يكفي شعره الطويل وذقنه لإخفاء شخصيته . . وكاتيا تعبر عن مسئوليتها عنه أكثر وأكثر . . إنها أيضاً تشرف على ادارة البيت الذي يستأجره وتتعمد أن تترك له كل مساء أحد كثيراً فطع الجبن التي يحبها وعدداً من زجاجات النبيذ التي تكفيه بقية الأسبوع . . لم يعد يستطيع أن يستغني عن النبيذ مع طعامه كأى واحد من أفراد الشعب اليوناني . .

ولم تعد المائة جنيه تكفيه . . ثم أحس بحاجته إلى سيارة . . ولم يقاوم حاجته، طويلاً . . اتصل بأمه وجاءته في لهفة والتقت به في حداثق المنتزه طبقاً لنفس

الخطة السابقة وروى لها عن صداقته الجديدة بالعائلة اليونانية ، وأخذ منها ماني جنيه لا مائة . . وعندما همت أن تودعه وتركب السيارة الصغيرة دون أن تعرض عليه أن يأتي معها خوفاً من أن يرفض ، فاجأها بقوله :

دعيني أقود السيارة حتى أوصلك إلى البيت وسآخذ السيارة لأنى في حاجة
 إليا .

وفرحت أمه . . فرحت لأنه سيخلص نفسه من بهدلة ركوب الأوتوبيسات والتاكسيات . . وربما كانت تتمنى أكثر منه أن يأخذ السيارة ، فهى سيارة نترك دائماً فى بيت الإسكندرية ليستعملها الموظفون فى فترات الصيف . . إن أشرف بدأ يفيق من جنونه . . لاشك أنه بدأ يفيق ما دام يطلب سيارة من أنه . . .

واشرف يحادث نفسه وهو يقود السيارة عائداً إلى العجمى . . يجب أن بعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يعيش بعترف بأنه حتى الآن لا يستطيع أن يعيش إلا بفضل أبيه . . ولابد أن أباه يعلم بما تعطيه له أمه من نقود ، ولابد أنه سيعلم أبه أخذ هذه السيارة . . إنه ليس مغفلاً حتى يتصور أن أمه تستطيع أن تخفى شيئاً عن أبيه . . لا يهم . . إنه على الأقل أصبح حرًا . . هو الذي يطلب أو لا يطلب . . لم يعد عبداً للمظاهر ولا لما تعرضه عليه شهرة أبيه . . ولم يعد يتلقى أوامر من أحد . . وتحسس شعر رأسه الطويل وذقنه المهذبة وابتسم ساخراً . . وما كان هذا هو كل ما وصل إليه من حرية . . أن يطلق شعر رأسه حتى لو كان رساعيل عبد الصبور . وسحب ابتسامته الساخرة وامتلأت عيناه بنظرات بنظرات عيناه بنظرات جادة وهو يقول لنفسه . . لا تيأس . . إنك لم تبدأ بعد . . لم تمض سوى ثلاثة شهر على حريتك . . والأمل كبير في أن تتحرر من أبيك تحرراً كاملاً . . .

أن تعمل وتكسب . . لا تفقد الأمل . .

وكان على موعد مع كاتيا فى اليوم التالى . . كان يوم سبت واتفقت معه على أن تأتى إليه فى الصباح الباكر قبل أن تصل بقية العائلة ، حتى تعد معه بيته وبيتهم . . ولكنها ما كادت تصل حتى أخذها من يدها وأركبها بجانبه السيارة ثم انطلق بها كالمجنون . . وقالت تسأله فى هدوه كأنه لم يفاجئها بشيء)

- إلى أين أ

وقال دون أن ينظر إليها :

- لا بد أن نصل إلى شيء . .

وقاد السيارة بجنون حتى وصلا إلى شاطئ العلمين ، ثم توقف ونزل من السيارة ونزلت معه واتجه بها إلى مقبرة قتلى الحرب ثم توقف بين أعمدة الصلبان التي ترتفع فوق القبور ، وواجها قائلاً :

- كل هؤلاء شهداء . . وأنا لا أريد أن أكون شهيداً . .

قالت وهي تبتسم ابتسامة هادثة :

- ماذا تقصد ؟

قال

إن الشهيد هو ضحية لحظة جهل أعمته عن الرصاصة التى قتلته . .
 وأنا أعيش منذ أكثر من شهرين وأنا فى جهل . . لا أدرى أين أنا منك ،
 ولا أين أنت منى . . كل هذا وأنا لا أدرى هل تحبيننى كما أحبك . .

وأرخت عينيها وقالت بعد لحظة صمت كأنها تفكر فيها يمكن أن تقوله ، وكلماتها تتعثر ، بين العربية والإنجليزية :

- إنى أعيش في جهل أوسع من جهلك . . إنى إلى الآن لا أعرظك . .

مجرد لقاء مصادفة جمعنا داخل الشلة . . وبرغم ذلك عرفت أنى أحببتك ولكنى فضلت أن أدارى حبى حتى أعرفك أكثر . . إنى لا أعرف عائلتك . . ولا أعرف عاذا تعيش . . ولا أريد أن أسألك ! . لا أنا ولا أبى ولا أمى يريد واحد منا أن يسألك . . إنها حريتك . . وصداقتك ممتعة واكتنى الجميع بهذه الصداقة . أنا وحدى التى لا أكتنى بها ولكنى أحمى نفسى بها . .

وقال في حدة :

- لا أستطيع أن أقدم لك طلب حب على ورقة رسمية أسجل فيها اسمى واسم عائلتي والشهادة التي حصلت عليها وقيمة دخلي وأملاكي . . أنا لا أبحث عن وظيفة حبيب لك . . لقد قدمت لك شخصيتي كاملة ، فإما أن تحيي هذه الشخصية أو ترفضيها أو تكني بصداقتها . . وتصوري أنى في حالة نفسية تدفعني أن أهرب من نفسي حتى لا أريد أن أفصح عنها أمامك . . تصوري أنى مريض ومرضى يجعلني غير قادر على أن أقول من أنا . . بل قد أكون قد أخفيت عنك إسمى . . ولكن الحب يتسع حتى للمرضى

ونظرت إليها طويلاً وعيناها تضانه إليها فى حب وقالت كأنها تهمس :

الله لست مريضاً .. ولكنك فى معركة لا أدرى سرها .. هذا ما أحس
به .. وقد قررت أن أقف معك حتى تنتمى المعركة وبعدها أعرفك كلك بعد أن
نوع عنك ثياب وأقنعة الحرب .. وأنا متأكدة أنك لن تكون شهيداً ولا أنا
نعالى نخرج من هنا .. من حديقة الشهداء ..

واستدارت وهومعها وسارا بعيداً عن قبور قتلى الحرب إلى أن أصبحا بين أشجار التين البرشومي الممتدة حتى الشاطئ ، وقال وصوته لايزال ثائراً :

إن الحب لا ينتظر حتى تنتى المعركة أوحتى يشفى المريض . .

ومدت يدها ووضعتها في يده وهي تهمس :

– ومن قال إنه يستطيع أن ينتظر . .

وتوقف بها عن السير ونظر إليها طويلاً وهمس هو الآخر :

- هل أستطيع ؟

وشفتاها تتطلعان إلى شفتيه . . لم يعد فيهما سوى شفاه . . وكانت القبلة الأولى بعد كل هذه الأيام التي جمعتهما . . وسقطا مع قبلتهما تحت شجرة التين . .

وتحركت بين ذراعيه قبل أن تصل القبلة إلى باقى جسديهما . . وهذا ما عودته عليه دائماً أن يكتفيا بالشفاه . . وقامت تجرى ضاحكة وهو يجرى خلفها إلى أن وصلا إلى السيارة :

وقال وهما في طريق العودة :

- لقد وجدتك . . بني أن أجد نفسي . .

قالت كأنها تثير حماسه :

- وجدت الصعب وبقي السهل . .

وقد اعترفت العائلة اليونانية بأن كاتبا أصبحت لأشرف . . اعترافاً صامتاً لا يثير أى نكات حلوة يطلقونها أحياناً على تصرفات كل منهما نحو الآخر . . . وهو دائماً معهم . وقد بدأ من خلال أحاديثهم يكتشف عالماً واسعاً لرجال

وجلس مع صديقه دينوس وعرض عليه أن يدخل معهم شريكاً فى المطعم السياحى . . وعرض أن يساهم بعشرة آلاف جنيه ، وقال كأنه يغرى دينوس :

اينى لا أريد ربحاً ، ولكنى فقط أريد أن أتعلم . .

ووعد دينوس أن يعرض الموضوع على بقية العائلة : ثم غاب أياماً . . أياماً طويلة . . وعاد يعلن أشرف بأن العائلة قررت أن تقبله شريكاً في مشروع المطعم . .

واتصل بأمه فى التليفون ، وكان صريحاً برغم أنه يعلم أن التليفون يضم فى داخله شريط تسجيل . . وقال لها إنه يعلم أنها تحتفظ بمبلغ باسمها الخاص وهو فى حاجة إلى هذا المبلغ ليساهم فى مشروع . . وروى لها كل تفاصيل المشروع ، واتفق معها على لقاء ، وفى هذه المرة لم يتمسك بلقاء تحداثق المنتزه ،

إنه سيلقاها في بيت الإسكندرية . .

وقالت الأم لزوجها . . ورد إسماعيل عبد الصبور فوراً :

- أعرف . . إنه مشروع مطعم . . اعطه ما يريد ولكن النصيحة أن يبقى مشروع الشركة سراً بينه وبين شركائه الجريك . .

وسافرت الأم إلى الإسكندرية ، وذهب أشرف للقائها في البيت ، ولم يهتم كثيراً عندما أدى له العسكرى الواقف على الباب تحية تعظيم سلام . .

واقتنع بما نصحته به أمه واتفق مع دينوس ووالده بابا دوبلو على أن تبقى الشركة في اتفاق خاص بينهما ولا تسجل رسمياً . .

وتركوه حراً في أن يختار العمل الذي يربد أن يساهم به ، وقد اكتنى بأن يكون كل عمله هو أن يتعلم ويفهم ، وبدأ يراجع أوراق المصروف والإيراد . وعمليات استيراد ما يحتاج إليه المطعم ، وتكاليف العمالة . . بدأ يدرس العملية كلها . . ووجد عقله يتفتح ويستوعب بسهولة كل ما يتعلمه ، حتى أنه اكتشف أنه كان مخطئاً بالنسبة لنفسه عندما اختار يوماً ما أن يكون مهندساً والتحق بكلية المتجارة لجذبته أكثر والتحق بكلية التجارة لجذبته أكثر ما ف منا . .

والعائلة كلها صاحبة المشروع تبدى إعجابها به دون نفاق ، وتستجبب بسرعة لأغلب اقتراحاته . ولكن . , هناك فكرة للتوسع فى المشروع لم يستطع أحد منهم أن يحققها . . ففوق المطعم الذى يقع على الشارع دور كامل من العمارة بشمل ثلاث شقق كانت الحراسة قد أستولت عليه وأجرته للمحافظة التي تستعملها كمكاتب لأرشيف السجلات . . لو استطاعوا أن يأخذوا هذه الشقق الثلاث ثم يصلون بينها وبين المطعم الأصلى الواقع إلى الشارع ، لأقاموا

أكبر مطعم فى الإسكندرية بل واحداً من أكبر وأفخم مطاعم العالم . . وقد حاولوا كثيراً ودفعوا كثيراً من مقدم العمولات أى من الرشاوى ، حنى يقنعوا مكتب الحراسة بإلغاء إيجار المحافظة لهذه الشقق ليستأجروها . . ولا أمل . .

وشغل أشرف كل فكره بهذا المشروع .. توسيع المطعم السياحي يعتبر فعلاً خطوة وطنية أجدى على البلد من الاحتفاظ بهذه الشقق كمخازن للأرشيف .. لا بهم أن يتم هذا العمل الوطني على يد شركة جريكية أو فرنسية أو إنجليزية . ولانهم أرباحه هو شخصياً .. إن أرباحه بمجرد أن ساهم في الشركة تصل إلى مائة جنيه في الشهر .. وقد فوجئ بهذا الربح السهل عندما أعطاه بابا دوبلو نصيبه . خيل إليه أنهم يشترونه ، أوعلى الأصح يرشونه ، ولكنه عند مراجعة حسابات المطعم اكتشف أنه يستحق فعلاً هذا المبلغ .. وهو ليس في حاجة إلى أكثر منه . وتفكيره في التوسع ليست دوافعه زيادة الربح إنما هو إندفاع وطني لتحقيق مصلحة وطنية . .

وارتدى فى الصباح بدلة كاملة على غير عادته وذهب إلى الحلاق وقص شعره إلى أن أعاده إلى حالته الطبيعية ثم حلق ذقنه . . هل تخلى عن شخصيته التى حاول أن يخلقها . . وأجاب نفسه بلا . . إنه فقط وجد الطريق الذى يسير فيه . .

وسار إلى مكتب المحافظ ، ونظر إليه السكرتير في امتعاض :

وقال أشرف في هدوء :

– أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . .

وقفز السكرتير واقفاً وهو يقول في تلجلج :

- تشرفنا يا أفندم . . اتفضل . .

ووافق المحافظ على المشروع بعد يومين . .

ولم تصدق عائلة بابا دوبلو الخبر وكادت تجن من الفرح عندما صدقته ، وأقاموا حفلاً عائليًّا حول برميل كامل من النبيذ تحية لأشرف ، وقال بابا دوبلو كأنه بلق خطاباً رسميًّا إنهم كانوا قد خصصوا ميزانية تبلغ قيمتها ثلاثين ألفاً من الجنبهات للحصول على هذه الشقق وأصبح هذا المبلغ كله من حق أشرف . .

ورفض أشرف أن يتقاضى كل هذا المبلغ ، وقال إنه عضو مساهم فى الشركة وما يعود على الشركة يعود عليه ، ومع إصرار أشرف قررت العائلة أن تضيف الثلاثين ألفاً إلى نصيب أشرف من الشركة . . وقام بابا دوبلو وهو ينظر إليه كأنه لم يكن يصدق أن أشرف له مثل هذا الذكاء :

- هذا أفضل لك . . لقد أصبحت ابن سوق . . إن نصببك الآن في الشركة يساوى ضعف نصبب ابني دينوس . .

ولم تكن فرحة أشرف بما كسبه ولكنه كان فرحاً بأنه استطاع أن يثبت شخصيته بعيداً عن أبيه . . لقد قال أبوه إنه وهو فى العشرين من عمره استطاع أن يكون شخية منفصلة عن أبيه . . إنه هو الآخر استطاع أن ينفصل وهو فى الثانية والعشرين . . لعله لم ينفصل تماماً . . إن مشروع الشقق لم يمكن أن يتم إلا إذا كان قد قص شعره وحلق ذقنه ليبدو أنه ابن أبيه . . ولكن ليس أبوه هو الذى فكر فى المشروع . . وليس أبوه هو الذى قدمه إلى عائلة بابا دوبلو . . إنه الآن شخصية تفكر لنفسها . .

وكاتيا تنظر إليه من بعيد وهي تبتسم في صمت . . ابتسامة لا تعبر عن شيء . . لا عن فرح ولا عن قلق . . وأخذها أشرف إلى خارج الحفل وقال وهو يرفع يدها ويضع أصبعها بين شفتيه : وقاطعه أشرف :

- هل أستطيع مقابلة السيد المحافظ . .

وقال السكرتير في رعشة :

- طبعاً يا أفندم . . طبعاً . . دقيقة واحدة . .

ودخل السكرتير إلى مكتب المحافظ . ثم عاد مهر ولا :

– اتفضّل يا يا أفندم . .

وكان السيد المحافظ مجتمعاً ببعض موظفيه وقام من على مائدة الإجتماع يستقبل أشرف مرحباً ثم التفت إلى الموظفين قائلاً :

– الاجتماع يعتبر مستمرأً إلى أن أدعوكم . .

وخرج أعضاء الاجتماع وتفرغ المحافظ لأشرف . . وروى له أشرف كيف اكتشف أن هناك مصالح وطنية معطلة وأنه يجب تحقيقها حتى مع تحدى اللوائح . . البالية . . وعليه فيجب إخلاء الشقق الثلاث من موظني الأرشيف ليقام مكائها مطعم عالمي سياحي يفتح للبلد صنبوراً من العملة الصعبة . .

واقتنع السيد المحافظ بسرعة ، ولكنه أمهل أشرف يومين حتى يراجع المسئولين ل الوزارة . . .

وكان أشرف يعلم أن أباه إسماعيل عبد الصبور لا بد سيعلم بهذا المشروع بل وسيعلم أنه ذهب بنفسه للقاء المحافظ . . وقرر أشرف أن يثبت حسن نيته وأن يعترف بأنه فى حاجة دائماً إلى أبيه ، فاتصل بأمه وروى لها تفاصيل المشروع وهو واثق أنها ستبلغ به والده . .

وعاد إسماعيل عبد الصبور يقول بعد أن استمع لزوجته :

- عارف . . وأنا موافق . . الولد ابتدى يشتغل جد . . .

قال والدهشة تستبد به كأنه تلتى صدمة :

- منذ منى ؟

قالت :

- منذ دخلت الشركة مع عمى بابا دوبلو . . كان مستحيلاً أن يقبلوك . . دون أن يعرفوك . .

قال

- ولماذا لم يصارحوني بأنهم عرفوا . .

: قالت

كانوا في انتظار أن تصارحهم أنت . . هذا حقك . .

وابتسم أشرف ابتسامة يسخر بها من نفسه . . لعلهم لم يقبلوه شريكاً إلا بعد أن عرفوا أنه ابن إسماعيل عبد الصبور . . لا يهم . . يجب أن يتخلص من هذه العقدة . . . المهم أنه حقق أرباحاً ويستطيع الآن أن يعتمد على نفسه . . وقال لكانى كأنه يواسى نفسه :

- مهما كان فلنعلن خطبتنا الآن . .

وعادت تقول :

إنى خائفة . .

ثم فجأة انطلقت تتحدث باللغة اليونانية . . تكلمت كثيراً كأنها لسان إبرة جرامفون وقفت على أسطوانة مشروخة . . وأشرف يصرخ فيها . . ماذا تقولين . . ماذا جرى لك . . وهي مستمرة في الكلام باليونانية حتى رفع أشرف كفه وصفعها صفعة قوية ، وقالت ودموعها تفيض على خديها :

إنى أستطيع أن أتكلم بلغة لا تفهمها طول عمرى ، فكيف تتزوج . .

كاتيا . لنعلن خطبتنا الليلة . ونتزوج الأسبوع القادم . لقد فكرت في كل شيء . سأجد شقة لنا غداً . من السهل أن آخذ شقة خالية . وإلى أن يتم تأثيثها نسافر إلى الخارج . . إلى الريفيرا في فرنسا . . بعيداً عن هنا . . ولم تنطلق كاتيا بالفرحة كما كان يتصور ، وقالت كأتها تهم بالبكاء :

إلى خائفة . .

وقال أشرف في دهشة :

- خائفة من ماذا . .

قالت وهي لا تنظر إليه :

- لا أدرى . . ولكنك منذ قصصت شعرك وحلقت ذقنك وأنا أحس أنك

ابتعدت عنى . .

وقال مبتسماً :

— إنك دائماً تعيشين فى شك من كل من حولك . . اسمعى . . . سأقول لك كل شىء . . إن اسمى الكامل هو أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل عبد الصبور . . طبعاً معروف . . وكنت قد هربت من البيت حتى أثبت شخصيتى بعيداً عن شخصية أبى . . وأعتقد أنى نجحت . . .

وقاطعته كاتيا في صوت خفيض :

- إني أعرف . .

وقال في دهشة :

- تعرفين ماذا ؟

قالت :

– أعرف كل شيء عنك . .

744

قالت في دهشة!

9 00-

قال :

– كاثيا . . أخت صديقي دينوس . .

: قالت

- جريكية . . مستحيل . . يا بنى هوه من قلة بنات البلد . . وتعمل فينا كده ليه . . نناسب جريك . . آدى اللي كان ناقص .

اسمع يا أشرف و. .

وقاطعها مبتسماً :

– اعملي معروف يا ماما . . وافقي حتى لا أجن وأهرب مرة ثانية . .

وسكتت وبدا عليها أنها تبذل جهداً كبيراً حتى لا تفقد أعصابها ، ثم قالت وهي تتنهد كأنها تستغيث بالله :

لك الحق يا ابنى . . هذه حياتك وأنت حرفيها . . موافقة . .
 وقال في فرح : *

- سأصحبها معي في المرة القادمة حتى تتعرفي بها وتباركينا . .

وقالت فى أسى :

- أهلاً وسهلاً بها . .

وبعد أن تركها أشرف أخذت سيارتها وانطلقت فوراً إلى القاهرة تبحث عن زوجها إسماعيل عبد الصبور . . وعندما لاقته صرخت فى وجهه . كأنها تستدعى بوليس النجدة :

– الحقني يا إسماعيل . . أشرف سيتزوج جريكية . .

وقال يحيطها بذراعه في حب :

- ولكنى أستطيع أن أتعلمها . . بل تعلمت الكثير منها وأحبيت كل شيء جريكي . . . أحببت الريتسا والسوفلاكي والتارامو ، والموزاكا . . وأحببت البوزك والسيرتاكي والكاسابيو والكلامابتانوس . . أصبحت نصف جريكي ويمكن في أيام أن تجعليني كلي جريكياً . . تعالى . .

وأخذها ودخل بها إلى الحفل وهمس فى أذن دينوس ، وهمس دينوس فى أذن بابادوبلو ، وهمس بابا دوبلو فى أذن مارينوس ، وساد الجميع صمت قلق ، ثم صاح بابا دوبلو :

- سيداتي وسادتي أعلن لكم خطبة كاتبا إلى أشرف . .

وهلل الجميع وهم يرقصون حول برميل النبيذ . .

. . .

وقرر أشرف أن يبلغ أمه بالخبر حتى تبلغه لأبيه وذهب إليها فى بيت الإسكندرية ، وما كآدت تراه بعد أن حلق شعره وذقنه حتى احتضنته فى فرحة وقالت وهى تمسح بيدها على خده :

- الآن أحس أنك عدت إلينا . .

وأخذ يحدثها عن مشروعاته وعن الأرباح التي حققها ، ثم قال :

– وقد نويت الزواج . .

وقالت أمه في فرحة :

- عين العقل . . سأختار لك أحسن وأجمل بنت في البلد . .

وقال ضاحكاً :

- اخترت . .

وصمت الأب كأنه واجه مشكلة ضخمة وقال ساخراً :

وصلت إلى حد الزواج . .
 ثم رفع صوته فى حدة قائلاً لزوجته :

+ اسمعي . . . اتركي هذا الموضوع لى . . لا تناقشي فيه أشرف . . خذيه

. . .

وعندما بدأ أشرف يتحدث مع بابا دوبلو فى تحديد موعد الزواج . قال له إن الموضوع فى حاجة إلى وقت طويل فيجب أن يتصل بالعائلة فى أثينا ، ثم إن اختلاف الدين يجعله مضطراً إلى اتخاذ إجراءات كثيرة حتى لا تشن الكنيسة ثورة عليه . . أنت لا تعرف الجريك يا أشرف . . إنهم متعبون فى كل شىء . . وكاتيا معك . . خطيبتك . . وهى معك مهما طال الوقت حتى يتم الزواج . .

ولكنه بدأ يلاحظ أن العائلة كلها ليست متحمسة لهذا الزواج وإن كان لم يسمع صوتاً يعارضه . . ثم بدأ يلاحظ انشغال الرجال بموضوع آخر غير موضوع المطعم ولا يشركونه فيه . . إنه موضوع المدينة السياحية على شاطئ البحر الأحمر . . لقد تقدمت شركة إيطالية تنافسهم فيه . . لا يهم . . إنه لا يريد هذا المشروع ولن يتدخل فيه . . ولكن لماذا لا يهمه . . إنه مشروع يدر الملايين . . إنه يستطيع به أن يصل إلى درجة مليونير . . ولكن ليبدأ أولاً بالانتهاء من مشروع زواجه . .

ويخيل إليه أن كاتيا تتغير . . إنها تخفى عنه شيئًا . . وهى دائمًا قلقة . . ودموعها كثيرة إنها تبكى كلما قبلته وكأنها قبلة الوداع . . وصرخ فى وجهها : - ماذا تخفين . . ماذا يقلقك . .

ونظرت إليه طويلاً كأنها قررت أن تكشف له سراً وقالت :

- اسمعنى يا أشرف . . لقد عرفتنى طويلاً وأنت تخفى عنى سرك ، وأنا أيضاً لل سر أخفيه عليك . . إنى قبل أن أنتقل إلى مصر كنت مخطوبة تقريباً لأحد أقاربنا فى أثينا . . وقد أرسلنا إليهم أخيراً لإلغاء هذه الخطبة . . قلنا لهم كل شيء . . ولكنهم لم يوافقوا . . إن إلغاء الخطبة قد يؤدى إلى نكبة على العائلة . . وهم يريدوننى أن أعود إليهم . . ولم أقل لك شيئاً . . لأنى أقاوم . . ولا أدرى إلى متى أستطيع أن أقاوم . .

وثار أشرف :

- لقد تغيرت . . إنك تكذبين . . لا أصدق شيئًا مما تقولين . . هناك سبب آخر لكل هذا . . كونى أكثر صراحة . . ثم ماذا يهمنا من عائلتك أو عائلتى تعالى الآن لنتزوج وحدنا ونهرب بعيداً وحدنا . .

وقالت كاتيا . . وهي تبكي :

- إنى أحبك , . ولكني لا أستطيع . .

واشتدت ثورة أشرف ، وصرخت كاتبا :

– أشرف . . لم أعد أحتمل . . قبلني . . قبلني . .

والقت نفسها بين ذراعيه ، واحتضنت شفتيه بشفتيها ولم تتركهما كعادتها قبل أن يسرى إحساسهما إلى باقى جسديهما . . تركت هذه القبلة تصل بها إلى كل شيء . . أعطته كل ما يريد وأكثر . .

وقى اليوم التالى ذهب أشرف إليها وهو يحس بالزهو . . لقد أصبحت كلها له . . وعندما دخل البيت استقبله بابا دوبلوس ودينوس في وجوم . .

أين كاتيا ؟

سافرت صباح اليوم إلى أثينا . .

وقال أشرف وكأنه ينافق :

- الفضل لك دائماً . . فأنا لست إلا ابن إسماعيل عبد الصبور . .

وقال الأب كأنه يرضيه :

– وأنا أبو أشرف . .

وقال أشرف وهو يحاول أن يحتفظ بشخصيته كاملة أمام أبيه :

وقد جئت أطالب أبى بحتى فى التعويض . . .

وقال الأب في دهشة :

- التعويض عن ماذا ؟

قال أشرف :

لقد فقدت فتاة خطبتها . . وإنى مستسلم لما حدث وأعرف أنك السبب . .
 ولا يمكن أن يلهيني عن استسلامي إلا أن أدخل في مشروع جديد . .

وقاطعه الوالد :

إن مشروع البحر الأحمر تمت الموافقة عليه . . ومن حقك أن تأخذه
 وحدك لو أردت . .

وقال أشرف :

إن أصحاب المشروع لم يحرمونى من خطيبتى . ولن آخذ منهم المشروع النقاماً وعقاباً ولكن فقط سأساهم معهم ، وأردت فقط أن أتأكد منك أنه تمت الموافقة عليه . . وأردت أيضاً أن أعلن لك أنى قد عدت إليك . . إلى البيت وسأدعو بابا دوبلوس ودينوس إلى هنا . . إلى بيتك وبيتى . . للعشاء غداً . .

هل نکون معنا . .

وقال الأب :

وهم أشرف أن يتوعد سيلحق بها . . سيحطم كل ما يعترضه . . وقال له بابا دوبلوس في هدوه :

إنها مشكلة أكبر منا ومنك . . تأكد أننا حاولنا كثيراً . .
 ونظر إليهما أشرف ساخراً ، ثم جلس مدعياً الهدوء قائلاً :

لنعتبر الموضوع منتهياً . . لم تعد هناك مشكلة . . إلى ماذا وصلتم فى مشروع مدينة البحر الأحمر . .

والتف حوله بابا دوبلوس ودينوس يشرحان له ما وصلا إليه ، ولم يستمع إليهما طويلاً وتركهما وركب سيارته وانجه بها إلى طريق القاهرة .. منذ عامين وهو لم يفكر أبداً في العودة إلى القاهرة .. ولكن ليعد .. ليعترف بالواقع .. إنه يستطيع أن يستفيد من الواقع بقدر ما يمكن أن يؤذيه خياله .. والواقع هو أنه ابن إسماعيل عبد الصبور .. وإسماعيل عبد الصبور هو الأمر الواقع إنه يسيطر على قدره سواء كان بجانبه أو بعيداً عنه .. إنه استطاع أن يطرد كاتيا من مصر كلها .. ربما هدد عائلتها .. أو ربما أغراها بمساعدتهما في مشروع البحر الأحمر.. ولكنه متأكد أن أباه هو الذي طرد كاتيا ..

ووقف أمام أبيه هادئاً ، وأبوه يستقبله بابتسامة الرجل القوى المنتصر حتى على أولاده . . وقال أشرف ساخراً ؛

- أقدم لك نفسى . . أنا أشرف إسماعيل عبد الصبور . . ابن إسماعيل بد الصبور . .

ومد أبوه ذراعيه وضمه إلى صدره وقال :

- أوحثتنى يا أشرف . . ورغم بعدك عنى كنت فخوراً بك . . لم أكن أعتقد أن عنادك يمكن أن يقودك إلى كل هذا النجاح . .

🎉 أسرار المهنة 🎇

- لك حق . . إني مازلت تلميذاً لك . . عن إذنك . .

وهم أشرف أن يخرج فناداه أبوه قائلاً :

- أشرف . . ما دمت مازلت تلميذاً فإنى أنصحك بأن تحصل على شهادتك الجامعية . . إنك تستطيع أن تكون مليونيراً بلا شهادة ، ولكنك لا تستطيع أن تكون وزيراً وسياسياً إلا بشهادة وأنا أريد لك أن تكون يوماً ما وزيراً . . رئيس وزراء . . هذا يسعدنى ويجعلنى أزهو بك . .

وقال أشرف وهو ينظر إلى أبيه في عجب :

الشهادة سهلة . . أستطيع أن أسافر وأعود بشهادة من لندن . . دكتوراه . .
 وسأختار دكتوراه في الاقتصاد . . لم أعد أريد الهندسة . .

وقال الأب :

- اترك لى هذا الموضوع . .

(تت)

شدت قوامها الطويل الممشوق وسلطت عليه عينين غاضبتين وقالت في صوت للطلق فيه رنة قاسية بجانب موسيقاه الرائعة كرنة آلة السيكسفون بين نغمات

اسمع . . إنى خبيرة فى مهنتى . . وصاحب رأس المال يعتبر غبياً إذا
 لدخل فى أعمال الخبراء . .

ونظر إليها في قرف واحتقار وقال :

No. 100

ربما من كثرة ما تعاملت مع أمثالك من الخبراء كشفت أسرار المهنة . .

- قالت وهي تنظر إليه في تعال :

- لم أكن أتوقع أن ألتنى بكل هذا الغباء . . إنك لن تكشف أبداً سر مهنى . . الزبون لا يمكنه أبداً أن يصل إلى أسرار التاجر سواء قضى عمره يتعامل مع تاجر واحد أو تنقل بين ألف تاجر ، وكنتأعتقد أنك تفهم ذلك دون حاجة الى أن ألتى عليك درساً ، فنحن الاثنان أبناء سوق واحدة .. أنت تاجر وأنا تاجرة . . أن رجل أعمال وأنا سيدة أعمال . . وإذا اعتبرت نفسك خبيراً اقتصادياً فأنا أبضاً خبيرة في الاقتصاد . . والفرق بينناهو في نوع البضاعة التي نتحمل مسئولية السويقها .. وهذا هو ما يفرض على كل منا أن يحترم خبرة الآخر في تخصصه . . .

قال في حدة:

إنى أقبل وقاحتك أأنه لم يعد هناك وقت الاستبدالك بغيرك . . و . . .

وقاطعته ساخرة :

إنها ليست وقاحة ، إنها مصارحة ، وأنت تقبلها لأننا وحدنا ولا أحد يسمعنا. . لو كنت أقول هذا الكلام أمام الناس لقتلتنى أو قتلت نفسك ولكننا الآن وحدنا . . أنت ترفض أن تتعرى أمام الناس ولكنك تقبل أن يعريك شركاؤك . . وأن حتى أن أعريك ما دمنا فى اجتماع مجلس ادارة . . .

وقال في ثورة :

إنك لا تعرينني ولكنك تسرقينني . . ماثتا جنيه ثمن الثوب الذي ترتدينه
 في السهرة . . هل هذا معقول . . ماثتا جنيه . . ولمجرد أنى طلبت منك أن تظهرى في مظهر لاثق . .

وقالت في هدوء :

- ليس لأنك طلبت المظهر اللائق . . ولكن لأنى درست كل شيء ، ولعلك تذكر أنى كنت أفرض عليك أسئلة كثيرة قبل أن نتفق على هذه العملية . . وقد علمت منك أن ضيفك شخصية كبيرة واسعة النفوذ وواسعة الثراء . . علك ما لا حصر له من دولارات البترول . . وعرفت منك أنك تحاول أن تصل معه إلى صفقة سيارات نقل تصل قيمتها إلى حوالى خمسين مليونا . . الزبون مليونير والصفقة بالملايين . . ومهمتى هي أن أضعف مقاومة هذا المليونير خلال السهرة حتى يستجيب . . كيف أضعف مثل هذا الرجل ؟ .

وقاطعها ساخراً وهو يحاول أن يقلد لهجتها الجدية التي تتحدث بها :

وطبعاً الوسيلة الوحيدة لإضعافه هي أن تشترى ثوباً بمائتي جنيه . .
 وقالت وهي تنظر إليه في تأفف :

 لقد عرفت منك أنك بدأت حياتك تاجراً صغيراً وأعتقد أنك لا تزال تُعيش بعقلية التاجر الصغير ، وسأحاول أن أقنع فيك هذه العقلية . . إن هذا النوب هو الفترينة التي تعرض فيها البضاعة . . وكلما أراد التاجر أن يقنع الزيائن بأن البضاعة غالبة وأراد أن يشدهم إليها وضعها داخل فترينة مغرية لها مؤثرات تشد أنواع الزبائن الذين يسعى إليهم . . إن فترينة الملابس الشعبية عبر فترينة الملابس الراقية . . وفترينة لعب الأطفال غير فترينة المجوهرات . . وهذا الثوب هو الفترينة التي أعرض فيها بضاعتي . . وقد اخترته حسب تقديري الشخصية الزبون ، ولعلك تلاحظ أنه ليس ثوباً عارياً . . لا يكشف عن شيء من جسدي ... لماذا . . حتى أبدو أمامه كامرأة غالية ، فهذا النوع من الرجال بَفْضِي كُلُّ لِيلَةً وأمامه امرأة معروضة عليه حتى أصبح يتعالى على النساء الرخيصات ف حين انه من السهل أن تقنعه المرأة بأنها غالبة بمجرد أن تغطى جسدها حنى لو كان جسداً تعود على العرى . . إن الرجل يثيره ما لا يراه أكثر مما يراه . . يْبِره خياله أكثر مما تثيره عيناه . . وهذا كله مع ثقتي بأن بضاعتي مثيرة للخيال حتى لو عرضتها داخل بطانية . .

وقال ساخطاً :

ولماذا لم تشتر بطانية بدلاً من أن تغتصبي منى ماثنى جنيه . .
 وقالت في تأفف :

إنك لا تزال مبتدئاً . . وعقلك لا يزال ضيقاً . . إنك تؤمن بأن المظهر أهم من
 الواقع ولكنه إيمان تطبقه على نفسك فقط . . إنك تركب سيارة بويك ٧٦ وتشترى

ثيابك من لندن والكرفتات من كريستيان ديور وأحديتك من إيطاليا . . والدعوة تقيمها الليلة في الهيلتون ، وبرغم هذا فعندما دخلت بيتك أشفقت عليك . . إنها شقة في الزمالك لأنك في حاجة أن تقول إنك تسكن الزمالك تغطية للمظهر ، ولكنه في داخلها تجمع قطعا من الأثاث المهلهل وفراشك يبدو أنك لم تبدله منذ عشرين عاما – والثلاجة التي رأيتها يبدو أنها من بقايا عصر التجارب التي سبقت اختراع الثلاجات ، وحتى التلفزيون ، نصر . . وأنا أعرف أنك لا تدعو أحداً إلى البيت ، كل حياتك خارج البيت ، . . الخارج هو المظهر والداخل هو الواقع . . وقد أخذتني إلى الواقع لأنك اعتقدت أنى أنا أيضاً أعيش في نفس الواقع المهلهل المسكين . . لا . . آسفة . . إن بيتي أرقى مائة مرة من بيتك . . ورغم ذلك فإني وهم يجتازون مرحلة ماقبل المليون الأول . . ولكنك تخطئ خطأ كبيراً إذا حاولت أن تبخل على بمطالب المظهر . . فأنا وأنت نقوم بعملية واحدة ويجب أن نكون في مظه واحد . .

وخبط على حافة المائدة بقبضة يده وصرخ :

لا تقارنی نفسك بی . . أنت تعرفین من أنت . .

وقالت في برود:

- أنا أعرف من أنا فعلا ، ولهذا فإنى أعتبر نفسى متساهلة وفى منتهى التواضع عندما أقارن نفسى بك . . أنا تاجرة وأنت تاجر ، ولكن مسئوليتى عن الزبون أشرف من مسئوليتك . . أنت تبيع المجهول وأنا أبيع الواقع . . والمجهول يبقى مجهولا مهما جمعت من تفاصيله ، أما الواقع فكله واقع . . إن تاجر الفاكهة يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها في دكانه يبيع البطيخة بعد أن ينظفها من خارجها حتى تبدو لامعة ، ويعرضها في دكانه

عرضاً مغرياً ، وقد يشقها لك حتى ترى احمرار باطنها وبرغم ذلك فعندما يأكلها الزبون قد لا يجد لها طعماً ، والتاجر بعد ذلك ليس مسئولا . . انتهى دوره . . وحد سعسار بين البطيخة والزبون . . وحدلك أنت قد تحقق صفقة السيارات ومهما ضعنتها من شروط فهى مجرد عقد ينتهى دورك فيه بمجرد توقيعه . . مجرد أو ناقصة وأنت لست مسئولا . . أما أنا فشيء آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون أو ناقصة وأنت لست مسئولا . . أما أنا فشيء آخر . . أنا مسئولة أمام الزبون حتى ينتهى من استهلاك البضاعة ، فإذا اكتشف فيها عيبا فقد لا يدفع الثمن المنتفى عليه أو قد يؤذيني ، بل إلى أحياناً أعطى أكثر مما ينتظر الزبون حتى أطمئن إلى أمانتي في البيع . . نجارتي ليس فيها مجال للغش أو الاختلاس أو الخداع . . أنت سمسار تقدمني وتنفق مع الزبون ، أما أنا . . أنا البطيخة التي يأكلها الزبون و يجب أن تكون طبقاً للمواصفات وإلا ألتي بها من النافذة وماتت أقصد ضاعت . . هل فهمتني . . إني لهذا أعتبر نفسي متواضعة عندما أقارن نفسي

وزفر أنفاسه قائلاً :

- لا أدرى لماذا أحتملك . .

وقالت ساخرة :

- لأنك في حاجة إلى . .

: ال

- احذرى فإني أستطيع أن أطردك في أي لحظة ...

قالت مبتسمة :

إنى واثقة أنك لن تطردنى الآن . . إن حاجتك إلى تجعلنى أنا األقوى . .

وقال في استخفاف :

لا أظن . . كل ما هنالك أنك اخترت الطريق السهل . .

قالت :

- بالعكس . . اخترت الطريق الصعب . . إن اعتمادك على الفكر هو الأسهل . . ولكن أين تبيع هذا الفكر . . إن الشعب العربي كله لا يزال يعيش ل عصر الترجمة . . إنه يترجم كل ما تعيش فيه الدول المتحضرة من أفكار . . حتى عندما يحاول أن يتقدم في مأكولاته يترجم ما تأكله الشعوب المتحضرة . . انظر إلى آخر تطورات محال الأطعمة . . الهوت دوجز ، والويميي ، وكانتاكي . . كلها تقدم أطعمة مترجمة وبطريقة مترجمة . . لم يظهر فكر عربى يحاول أن يطور طعام العدس ، والفتة ، والفطير المشلتت بحيث يتماشي مع متطلبات الحياة الحديثة . . وحتى في السياسة . . إن أبرز رجال السياسة في البلاد العربية كلها لا يتميزون بشيء إلا أنهم مترجمون . . حتى النظم السياسية كلها نظم مرجمة . . تحالف قوى الشعب العامل نظام مترجم عن اليوغوسلافية . . والأحزاب والبرلمانات والرأسمالية والشيوعية كلها ترجمات . . حتى الكويت الدولة العربية الصغيرة لم تجد فكراً يكتشف لها نظاماً سياسياً خاصاً بها فترجمت النظام الغربي . . والسعودية ظلت متمسكة بالنظام القبلي ولكنها لم تجد فكرة تعينها على تطويره ، وبدأ الإلحاح عليها بأن تقتبس هي الأخرى النظام السياسي الأمريكي . . وانظر إلى لبنان ، لقد كان يقال إن الشعب اللبناني أكثر الشعوب العربية تقدماً . . وقد استطاعوا أن يكونوا فعلاً مركز السوق العربية . . ولكنها سوق لا تتعامل مع عمليات الخلق الفكري ولكنها تتعامل فقط مع الأفكار المترجمة أي مع البضاعة الأجنبية . . كل ما في السوق مترجم سواء في مجال السياسة أو في مجال الاقتصاد

هذا هو حكم الحاجة دائماً . . قانون العرض والطلب . . ربما بعد أن تنتهى العملية تطردنى لأنك تنتهى من حاجتك إلى . . ولن أفاجأ . . إلى أحسب حساب كل شيء . . .

ونظر إليها كأنه يحاول أن يكتشفها من جديد :

لم أكن أتصور أنك بهذه المادية . . ليس فيك ذرة من العاطفة . .
 خبريني . . هل عرفت الحب يوماً ؟ .

وابتسمت كأنها تحتقره وقالت :

- إن الحب هو امتياز للأغنياء ، وليس مهنة للعاطلين . . هكذا قال أوسكار وايلد . . وأنا لست غنية حتى أعيش في ملهاة الحب ، وإذا توقفت عن العمل وأصبحت عاطلة فالحب لا يصلح مهنة أعيش منها . . إن ما نمارسه شيء آخر غير الحب . .

قال :

إنك تعرفين أيضاً أوسكار وايلد . .

قالت :

قلت لك إنى تخرجت فى كلية الآداب . .

قال :

ولماذا لم تحاول أن تكونى شيئاً آخر وأنت تحملين شهادة جامعية محترمة ؟!
 وضحكت ضحكة خافنة وقالت :

 إن شهادتى تؤهلنى للفكر . . أن أفكر وأبيع أفكارى . . ولكنى اكتشفت أن الأفكار ليس لها سوق هنا أو فى أى بلد آخر . . الأفكار بضاعة مرفوضة عندنا . .

أو في مجال الفن أو حتى في المظاهر الاجتماعية . . إلى أن وقع لبنان في مشكلة لم يجد لها حلاً مترجماً . . ولم يستطع الفكر اللبنافي أو الفكر العربي كله أن يجد حلاً لهذه المشكلة لأن الفكر ليس له سوق عندنا ، فاستسلم لبنان للانهيار . . وأنت . . أنت رجل الأعمال المحترم . . هل تعتبر نفسك مفكراً . ؟ للأسف . . أنت أيضاً مجرد مترجم . . إنى أعرف عشرات من رجال الأعمال يتبعون نفس أسلوبك ونفس خطواتك . . أنت مترجم حتى وأنت تدخل في منافسات مع الآخرين . . إنك تنافس الآخرين كأنك في حلقة ملاكمة . . ولا شك أن الملاكمة في حاجة إلى ذكاء وحضور ذهن حتى تنتصر على خصمك ، ولكن اللعبة نفسها مترجمة . . لعبة منقولة عن الحضارة الأجنبية . . لم تستطع ولم تحاول أن تخلق أو تبتكر لعبة جديدة فأنت لست مفكراً . . أنت مترجم . .

وصرخ في وجهها :

 إنى لم أدعك لتلقى على محاضرة فارغة . . وسواء كنت مفكراً أو مترجماً فأنا على الأقل متمسك بالشرف . . شرقى . . أما أنت . .

وضحكت ضحكة عالية وقالت:

- الشرف . . أرجوك . . لا تضحكنى . . إنك تدعونى لتبيع ليلة لأحد عملائك . . أنا البضاعة وأنت التاجر . . فمن منا الذى يبيع الشرف . . ما ذنب البطيخة إذا حقنها تاجر الفاكهة لتبدو فى داخلها حمراه . . من الغشاش البطيخة أم التاجر . . ثم ما هو الشرف . . لقد انتقلنا من عصر الترجمة إلى المغنى الجديد للشرف . . لم يعد الشرف يتركز فى مكان واحد من الجسد . . الشرف هو الإنسان كله من رأسه إلى أخمص قدميه . . الشرف هو عدم الاعتداء ، وهو عدم الإيذاء ، وهو الغش . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية وهو الترفع عن الغش . . الشرف هو أن يعرفك الناس كما أنت . . والحرية

الاجتاعية التى فى الدول المتحضرة لا تعنى الاعتداء على الشرف أو التضحية به بل تعنى وضع الشرف فى معناه الصحيح . . وصدقنى . . هذا المعنى المترجم أصبح سائداً فى كل الشعوب العربية حتى وإن بتى فى بعض المجتمعات سراً لا يعلن عنه . .

وقال في تأفف :

أن تكونى كل ليلة فى فراش رجل. فأنت لا تزالين شريفة..
 وقالت دون أن تغضب:

 هذا صحيح ، مادمت لا أعتدى ولا أغش . . وأنت تخلط بين معنى الشرف ومعنى الامتلاك . . الشرف هو إرادة فردية ، كل فرد يفسر الشرف كما بريد ، أما الامتلاك فهو تعاقد بين اثنين . . قد أتفق مع رجل على أن يمتلكني ليلة واحدة وقد أتفق معه على أن يمتلكني العمر كله . . كل شيء له ثمن . . ثمن مالى وتمن اجتماعي . . والفرق بين امتلاك ليلة وامتلاك العمر كله أى الزواج ، هو الفرق ق الثمن . . لا تتصور أن الزواج ليس عملية تجارية . . إنه مجردعملية تجارية . . وجميع الأديان والقوانين تنظمه كعملية تجارية . . عملية يحكمها الثمن وتحكمها الحاجة إلى هذا الثمن . . هل تدرى . . لقد قرأت أخيراً أن نسبة الطلاق بين العاملات والنساء اللاتى لهن دخل خاص أكبر من نسبة الطلاق بين النساء اللاتى لا يعملن وليس لهن دخل خاص . . أتدرى لماذا . . لأن المرأة التي لها دخل خاص أقل احتياجاً للارتباط بعقد الزواج . . أقصد الاحتياج المالى والاجتماعي . . ولذلك سرعان ما تسعى إلى التحرر من الامتلاك . . أو على الأقل فإنها إذا اضطرت للاحتفاظ بهذا العقد فإنها قد تقيم لنفسها علاقة خاصة مع رجل آخر بجانب زوجها . . إنهم يقولون إن النساء الفقيرات أشرف من النساء العاملات

أو الثريات . . لا . . لسن أشرف . . كل ما هناك أنهن لفقرهن أكثر استسلاما لملكية الرجل . . وهناك رجال كثيرون لا يمكن أن ينالوا امرأة إلا فى حدود الشرع والقانون . . شرف . . إن بينهم واحداً نزوج خمساً وأربعين إمرأة . . شرف . . ياصديقي صدقني ليس للشرف دخل فى كل هذا إنما هو مجرد تنظيم وضعته الأديان والقوانين لتنظيم عقود الامتلاك . . مجرد تنظيم تجارى . .

وقال ساخراً :

معنى هذا بالنسبة لك أن ثمن الامتلاك ليلة واحدة يدر عليك دخلاً أكبر
 من ثمن الامتلاك طول العمر . . أى ثمن الزواج . .

قالت في بساطة :

لا . . إنه الفرق بين الأعمال الحرة والوظيفة . . وأنا إلى الآن أفضل الأعمال
 الحرة . . لم ألتق بالرجل الذى يغريني بالوظيفة , . وظيفة العمر . .

وقام من أمامها في زهق وأخذ يخطو داخل الغرفة :

تأخذين منى مائتى جنيه ئمناً لثوب واحد ثم تلقين على درساً فلسفياً . .
 وقالت وهى تقوم كأنها تجرى وراءه :

- عدنا إلى الماتني جنيه . . يا صديقي الجاهل صدقني أن هذا في صالح العملية . . لقد اشتريت ثوباً بماثني جنيه ولكني مثلاً لم أشتر حذاء . . انظر . . إني أضع في قدمي حذاء قديماً لا يساوي أكثر من خمسة جنيهات . . لماذا . . لأن الحذاء لا يعتبر الليلة مؤثراً في المظهر ، فالثوب الذي اشتريته طويل سيغطيه ثم إن ضيفك من هذا النوع من الرجال الذي لا يهمه أن ينظر إلى حذاء المرأة لأنه يسلط كل عينيه على وجهها وجسدها ولا يصل بهما إلى حذائها . . . كنت ثم إن أعفيتك من شراء الحلى التي أعتمد عليها في تزيين هذا الثوب . . كنت

أستطيع أن أصر على شراء عقد أو سوار أو خاتم حتى لو كان فالصو . . فإن صديقك من الرجال الذين لا يفهمون فى البترول ولا فى المجوهرات برغم أنهم علكون بترول العالم ومجوهراته ، ولن يستطيع أن يميز بين الفالصو والحر . . وقد اكتفيت بالحلى التى أملكها فعلاً ودفع تمنها رجل غيرك . . كل هذا لأوفر عليك ، لأنى أعلم أنك لا تزال فى بداية الطريق ولم تصل بعد إلى المليون الأول . . المهم كيف ستقدمنى إلى ضيفك ؟

وقال في سذاجة :

- ماذا تقصدين ؟

قالت كأنها صاقت بغبائه :

- أقصد ماذا سأكون بالنسبة لك عندما نلقاه ؟

قال في زهق :

كأنك تتصورين أننا فى طريقنا إلى حفل دبلوماسى . . إنى لست
 ق حاجة إلى تقديمك . . إنه سيفهم كل شيء بمجرد أن يراك معى . .

وقالت كأنها تبصق في وجهه :

وتتظاهر بأنك في حالة حب معى . . هذا من شأنه أن يرفع ثمنى ويبجعل صديقك يدفع أكثر لأنى سأبدو أمامه امرأة أصعب في الوصول إليها . . أما إذا كانت العملية أكبر من ذلك واقتربت من ربع المليون دولار مثلاً فإنك تقدمنى إلى ضيفك على أنى أختك أو ابنة خالتك ، لأنى أنقلب في هذه الحالة في خيال الضيف إلى امرأة شريفة لا تخرج من البيت إلا في حماية عائلية أو كما يقولون في حماية محرم . . وبذلك يصبح الشن أكبر ويصبح التأثير على ضيفك حتى يتم العملية أسهل على . . أما إذا كانت العملية تصل إلى المليون دولار كالعملية التي تقوم بها اليوم فإن الطريق الصحيح هو أن تقدمني إليه على أنى زوجتك . .

وقاطعها صارخاً :

هل جننت . . هل تتصورين أن يصل بى الأمر إلى هذا الحد . . .
 أن تكونى زوجتى . . والله ولا مائة مليون دولار . .

وقالت في هدوه :

- أرجوك . . استمع فى هدوه ، إنى لا أطلب منك شيئاً ولكنى ألقى عليك درساً فى مهنة رجال الأعمال . . إنى عندما أكون زوجتك فإن الطرف الآخر يعتبرنى جزءاً من الصفقة . . أى إذا كانت العملية تساوى ملبوناً ونصف ملبون دولار فهو مستعد أن يوقعها بمليون فقط والباقى لزوجتك . . أى أنا . . إن الزوجة لها طعم آخر وقيمة أخرى لمجرد أنها زوجة . . ولكننا فى هذه الحالة فى حاجة إلى عدة إجراءات مكملة . . فيجب مثلاً أن ندعو معنا إحدى صديقاتى حتى نبدو كأننا أبرياء وأنك لم تأخذنى إليه وإنما معنا امرأة أخرى لتجالسه وتهتم به . . ولا تخش شيئاً فإنى مع وجود هذه المرأة الأخرى سأكون أكثر إغراء لصاحبنا وسيضطر أن يبذل مجهوداً أكبر حتى يصل إلى ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر . . وفى هذه الحالة يبذل مجهوداً أكبر حتى يصل إلى ويرتفع ثمنى أكبر وأكبر . . وفى هذه الحالة

ا في يجب أن أضع على كتنى معطف فيزون حتى أبدو كأنى فعلاً زوجتك . . لا نخش شيئاً . . لن تدفع ثمن الفيزون . . ولكننا . . سنستأجره . . إن لى صديقة الإجر معطفها الفيزون كما تؤجر شقتها المفروشة . .

وقال ساخراً :

 وطبعاً . . بما أننى قدمتك كزوجتى فإنى مضطر بعد ذلك أن أنزوجك معلاً حتى لا ينكشف أمرى أمام الرجل الذي يمكن أن يستمر تعاملى معه سنوات . .
 هذا ما تسعين إليه . . هذا أبعد من كل أحلامك ./.

وقالت في تأفف :

- إنك رخيص . . إنك أغبى من أن تفهم . . لماذا أتزوجك فعلا . . . ما مصلحتى . . لقد اشتركت في عملية منذ ستين وكان صاحبها يقدمنى في مجتمع الأعمال على أفي زوجته . . وكان فعلا رجلاً ممتازاً رائعاً . . واستطاع وهو معى أن بحقق ثلاث صفقات ضخمة ، وكان دائماً يعترف بفضلى ويعطينى حتى ، وبعد الصفقة الثالثة طلب منى أن يتزوجنى فعلاً . . قال لى إن المجتمع العالمى أصبح بظن أننا أزواج فلنحقق ظن العالم . . ولكنى رفضت . . لماذا . . لأنى أفضل الأعمال الحرة على الوظيفة وإذا تزوجته فإنى سأصبح أقرب إلى موظفة عنده . . لم إننا تعودنا على أن نكون معاً بلا زواج ور بما يعد أن نتزوج يزهن ويضبق أحدنا بالآخر . . بل إنه بعد الصفقة الثالثة بدا كأنه أصبح أقل حاجة إلى لذلك تركته . . . السحنا مجرد أصدقاء . . وعندما يسأله أحد عنى يجيب بما يفهم منه أننا انفصلنا في المخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باربس أو في المخارج . . وكنت أسافر معه كل شهر أو شهرين إلى لندن أو باربس أو نبو يورك . . ومجتمع الخارج أكثر حرية وكان من السهل علينا أن ندعى أننا

زوج وزوجة . . أما أنت . . إنك لا تزال رجل أعمال محلياً والأعمال المحلية تبق دائماً في مستوى تافه ضئيل . .

ونظر إليها كأنه تلميذ بليد وقال في تردد :

وكيف تريدينني أن أقدمك إليه . .

وقالت في زهق :

- لقد شرحت لك كل أساليب العمل . . وعليك أن تختار الأسلوب الذي تقتنع به . .

وصمت طويلا وهو يفكر ثم قال:

 اسمعى . . لن أقدمك إليه بأى صفة . . لا زوجتى ولا عشيقتى . . ونتركه يفهم ما يريد . . ولكننا سنصحب صديقتك معنا ونتركه يفهم أنها له وأنك لى . .

وابتسمت قائلة :

بدأت تثبت أنك لست غبياً كما تصورتك . .

وبعد أن انتهت السهرة قالت له وهي بجانبه في السيارة عائداً بها إلى بيتها :

طلب منى أن أحادثه فى التليفون . .

وقال في دهشة :

متى طلب منك . . لم أسمع شيئاً . .

قالت ضاحكة:

 إنك عندما تأكل لا تسمع . . بطنك أقوى من رأسك . . وتصور . . إنه لم يطلب من صديقتي أي موعد . . اسمع . . إن حديثي معه في التليفون

لله بستمر ثلاثة أو أربعة أيام . . وبعدها سأطلب منه استئجار شقة لأنى لا أستطيع أن أقابله في جناحه بالفندق . . ولن أقابله وأعطيه شيئاً إلا قبل أسبوعين وفي خلال الأسوعين بجب أن تكون قد انتهيت من الصفقة . . هناك خوف على الصفقة ا أعطيته نفسي قبل أن تتم يجب أن يدفع مقدماً . . وبجب أن تدعوه معنا كل لِيلة أو نتركه يدعونا وستكون صديقتي معنا دائماً . . .

وقال :

كيف ندعو صديقتك وأنت تقولين إنها لم تعجبه ؟

- لا تكن غبياً . . اترك هذا الموضوع لى . . سأقول له إنى أتعمد دعوة صديقتي لأنى أعرف أنها لا تعجبه فلا أغار منها عليه , , هذا يجعله أكثر سعادة وأشد انجذاباً .

وبعد أيام اتصل بها في التليفون وهو يصيح مهللا في فرح :

- تمت الصفقة . . وقعنا العقد . .

وقامت في برود كأنها انتهت من عملية عادية :

 مبر وك . . وسألقاه غداً في الشقة التي استأجرها . . قال كأنه يزغرد :

سألقاك الليلة وحدنا وسنقيم احتفالاً خاصاً بالنجاح . .

وقالت :

- لا . . الليلة سأسهر مع صديقتي ميميي . . إنها ثائرة على وأنت تعرف مبسى . . اذا ثارت فربنا يستر . . اذهب أنت اليه وحدك . . لا يصح أن 🎉 تائه بين السماء والأرض 🎉

تهمله بعد توقيع العقد . . وقل له إنى فى زيارة أمى لأنها مريضة وسأكون قد حدثته بالتليفون . .

وكان جالساً فى الصباح يملاً عينيه بصفحة كاملة من الجريدة اليومية ، تحمل إعلاناً عن العقد الذى وقعه باستيراد سيارات النقل . . وصورته وهو يوقع العقد و بجانبه الضيف الكبير ومعه المسئولون من كبار الموظفين . . وكلهم يبتسمون . .

لقد وصل . .

حقق المليون الأول . .

عقبال المليون الثاني . .

وأخذ يقلب في صفحات الجريدة وكل نبضاته تخفق بالسعادة . . وفجأة اتسعت عيناه في دهشة . . إنها هي . . صورتها . . وهذه صورة صديقتها . . ثم هذه صورة السيدة ميمى . . إن بوليس الآداب هاجم منزل ميمى وقبض على من فيه من النساء

وطوى الصفحة بسرعة كأنه يدارى فضيحة . . وهمس كأنه يواسى نفسه :

البلد لم يعد فيها أخلاق ولا حياء . .

كلمة

هذه قصة أخرى من قصص الأدب السينائى ، وقد سبق أن طالبت بأن نعترف بأدب السينم كما اعترفنا بأدب المسرح ، وكتبت أكثر من تفسير وتحليل لهذا اللون من الأدب . .

وقد حدث أن اتصل بى الأستاذ عبد الحليم حافظ باحثاً عن قصة ينتجها سينائيًا ويمثلها . . وقلت له :

- لماذا لا نستلهم قصة حياتك ؟

وبدأت أكتب من وحى قصة حياة عبد الحليم حافظ دون أن أكون مؤرخاً له ، إنما أطلقت لخيالى حرية تصور الحياة التى اختارها عبد الحليم ، وعلى قدر ما ابتعدت عن الواقع فقد تأثرت به حتى أنى جعلت البطل يغنى باللغة الإنجليزية والفرنسية معبراً بذلك عن العقدة التى يعانى منها كل الفنائين والتى يمكن أن نسمى عقدة ا عمر الشريف ا فكل منهم يربد أن يكون عالميًّا وبمثل أو يغنى باللغة الأجنبية كعمر الشريف ، ،

وكما سبق أن كتبت فإن الأدب السينائي يبدأ بقصة ثم تتحول القصة إلى سيناريو ثم يتحول السيناريو إلى حركة ، وهو فى الأصل عمل جماعي يعتمد على مجموعة أشخاص تبدأ بالمنتج صاحب رأس المال ثم المخرج والمصور والممثل ، والممثلة . . و . . و . . وكل هذا بعكس الأدب المجرد أو الأدب المقروء الذي يتم فى مرحلة واحدة ويعتمد على الكاتب وحده . .

لذلك فهذه القصة السينائية التي يقراها القارئ لن تكون أبداً هي نفس الفيلم الذي بشاهده المتفرج ، وذلك نتيجة اختلاف العمل الفردي عن العمل الجماعي . .

The state of the s

كنت جالساً على مقعدى بين أعضاء الفرقة الموسيقية والناي بين أصابعي وقد أسندته فوق ركبتي وكل عينيُّ مركزتان على صلاح وهو يغني . . لم أكن أتطلع إلى الجمهور الكبير الذي يستمع ، رغم أنه جمهور يضم كل الشخصيات الكبيرة في البلد . . ونحن الموسيقيين . . نتبادل مع الجمهور نفس درجة الاهتمام أثناء الحفلات الغنائية . . الجمهور ينظر إلينا نظرة سريعة ثم يركز اهتمامه على المطرب . . ونحن أيضاً ننظر إلى الجمهور نظرة سريعة ثم نركز كل اهتمامنا على المطرب من فوق آلاتنا الموسيقية . . إلا إذا قام واحد منا ليعزف و سولو ه بمفرده . . فنركز نحن والجمهــور اهتمامنا عليــه . . ولم أكن أيضاً أركز اهتهامي على الناي الذي أحمله بين أصابعي . . إن هذا الناي . . عود البوص الهزيل المتواضع . . هو كل حياتى . . ورغم ذلك فني هذه الليلة لم يأخذ من اهتمامي كثيراً . . فالفترات التي سأشترك فيها بالناى خلال اللحن . . متباعدة . . وحفظها غيباً إلى حد أن أذنى أصبحتا تستطيعان أن ترفعا يدى بالناى إلى شفتى بمجرد أن يأتي دوره . . دون أن أحتاج إلى تركيز ذهني عليه . . وحتى الفقرات التي وضعت لأعزفها وسولو ، كانت منمكنة مني إلى حد أني أقف من تلقاء نفسى وأعزف دون أن أحتاج إلى التركيز على الترقب والانتظار . .

كل ما فى كان مركزاً على صلاح . . وكان صلاح يغنى كعادته وكأنه يغنى لكل واحد من هذه المثات المتجمعة من أمامه . . فيحرك عينيه ويديه وطبقات صوته . . ويحرك نفسه كأنه يريد أن يصل بنفسه إلى آخر فرد يجلس فى آخر صف من الصالة العريضة . . إنه ينسى وهو يغنى . . ينسى كل شيء . . إلا مسئوليته عن ففه . . بنسى مسئوليته عن نفسه . .

واستدار صلاح مواجها الفرقة الموسيقية وظهره للجمهور . . إن صلاح يستدير أحياناً ويتولى بنفسه قيادة الفرقة خلال الفقرة الموسيقية . . ولكنه غالباً ما يستدير ليتقط أنفاسه وظهره للجمهور . . إنه إنسان عادى من حقه أن يريح أنفاسه ويعيد التقاطها ويريح ابتسامته ، ويريح نظرات عينيه من الأضواء المسلطة عليها ومن افتعال القوة والجمال والأمل الذي يبدو دائماً في الصور الفوتوغرافية التي تلتقط له أو هو واقف أمام الجمهور الذي يغني له . .

وأنا جالس فى الصف الأول من الفرقة الموسيقية ، وعندما يستدير صلاح يواجهنى مباشرة . . و جلستى فى منتصف الصف الأول ليست فقط لأن هذا هو المكان الطبيعى الذى يتطلبه التوزيع الموسيقى لآلة الناى ، ولكن أيضاً لأننى أصر على أن أكون دائماً بجانب صلاح . . وتطلعت بكل عينى فى وجه صلاح . لا أحد يستطيع أن يرى فى وجه صلاح ما أستطيع أن أراه أنا . .

وهمست إليه همسة أقرب إلى الأمر:

– اشرب قليلا من الماء . .

ومددت يدى تحت مقعدى حيث أتعمد دائماً أن أحتفظ بكوب من الماء . . ولكن صلاح ابتعد عنى بسرعة واتجه إلى ناحية بعيدة من الفرقة حيث الجيتار

والأورج وأخذ يقودهما بتأشيرات ذراعيه . . لعله لم يسمع همستى . . أو الأرجع أنه سمعها وهرب منها .

وعاد صلاح يواجه الجمهور وعلى شفتيه الابتسامة الواسعة وفى عينيه بريق القوة والجمال والأمل .

وأنهى صلاح الفقرة التالية من الأغنية وعاد يدير ظهره للجمهور ويواجه الفرقة الموسيقية ، أى يواجهنى . . وجهه يملأ عنى . . وذعرت . . استولى على نوع من الخوف أقرب إلى الفزع ، إن ما أراه لا يستطيع أحد آخر أن يراه حتى من بين أفراد الفرقة . . وقلت وأنا لا أتعمد الهمس ولكنى أكتم الصراخ . .

لا تكرر الكوبليه , , ادخل في الكوبليه الثاني وبسرعة , , اختم سرعة , ,

وكان مفروضاً في هذه الفقرة أن أقف لأعزف على الناى سولو . . وكنت قد تعودت أن أطيل عزف هذه الفقرة . . وأن أكررها بناء على طلب وإلحاح الجماهير . . ولكنى في هذه الليلة وقفت وأديت الفقرة كأنى تلميذ بليد يحفظ دروسه صم دون أن يفهمها . . وأنهيتها بسرعة وجلست ، وقد تعجب الجمهور إلى حد أنه لم يلح على طويلا كعادته في إعادة الفقرة ، والتصفيق لى تصفيق بارد . .

وعاد صلاح إلى الجمهور وحاول أن يبدأ الكوبليه التالى . . ولكن الجمهور اشتد صراحه وتصفيقه مطالباً بالعودة إلى الكوبليه السابق من الأغنية . . وإذا بصلاح يستسلم للجمهور . . للناس . . الناس الذين لا يستطيعون أن يروا في خطوط وجهه ما أراه أنا . . ويشير صلاح إلى الفرقة الموسيقية ويبدأ في إعادة غناء الكوبليه السابق . .

وعندما استدار إلى الفرقة الموسيقية بعد الانتهاء من الكوبليه وواجهني . . مد يده إلى وهو لا يزال محتفظاً بابتسامته رغم أنها أصبحت ابتسامة ضعيفة لأن ظهره للجمهور . . وفهمت أنه يريد كوب الماء . . ولكني ما كدت أمد يدى إلى تحت المقعد حتى ابتعد صلاح عنى . . لقد غير رأيه . . لن يشرب جرعة الماء . . وابتعد عنى إلى الناحية الأخرى من الفرقة . . وانتهت الأغنية . .

إن الفقرة الأخيرة أيضاً كررها صلاح ثلاث مرات . .

. . والتصفيق .

وأسدلت الستار وفتحت الستار أكثر من مرة ليرد على تحية الجمهور . . .

ووقف صلاح أمامنا وقد أسدلت الستار لآخر مرة . . وبين شفتيه ابتسامة ضعيفة . . يقاوم كثيراً ليحتفظ بها كأنه يهديها لنا . وجفناه يتأرجحان فوق عينيه . . وهو يميل في وقفته كأنه يبحث عن شيء يستند عليه ، ثم مرة واحدة سقط .

. . سقط على الأرض . .

وانطلقت دماؤه ثقيلة غامقة تسيل من بين شفتيه . .

وركعت بجانبه . . لم أبك . . ولم أكن أنتظر دموعي . . فإنى كنت أعرف أن كل هذا ممكن أن يحدث . . وكنا كلنا نعرف تعليات صلاح في مثل هذه الحالة . . الصست . . لا أحد يتكلم . . لا يجب أن بعرف غريب وخصوصاً من الصحفيين ما حدث . . وتلكأ أعضاء الفرقة الموسيقية . . إلى أن دخل يس سكرتير صلاح ومعه الطبيب الذي يصاحب صلاح دائماً . . وأعطاه حقنة في فخذه أوقفت النزيف بسرعة . . ثم استطاع أن يقوم واقفاً واستند على حتى أوصلناه إلى حجرة داخل المسرح ، وتركناه للطبيب . . وأفراد كثيرون من

الجمهور دخلوا إلى صالة المسرح يريدون أن يروا صلاح . . وكنا نعتذر لهم بأنه يستريح ونترك للنكات الضاحكة أن تنطلق :

ومرت ساعة . .

وخرج صلاح من الغرفة ومعه الطبيب الذي لا يعلم أحد أنه طبيب . . وكان الجمهور قد خف من طول الانتظار . . ورغم ذلك فقد خرج صلاح وكأنه على استعداد ليواجه جمهوره كله بابتسامة تملأ وجهه . وخطواته مرحة . . ونظراته تحمل القوة والجمال والأمل . .

وركب سيارته . . وصمم أن يسوقها بنفسه . . وحاول الطبيب أن يقنعه بأن يعدل عن السواقة :

دعنى أسوق أنا يا صلاح . . طول عمرى وأنا أتمنى قيادة هذه السيارة . .
 إنها سيارة متعبة مثلك وأنا متخصص فى المتعبين . .

ولكن صلاح صمم أن يقود السيارة بنفسه . . ويشير للجمهور الواقف محييا بذراعه . . ونحن معه صامتون إلى أن وصلنا إلى البيت . .

وما کاد بری فراشه حتی انهار . .

إنه هنا فقط يعترف بما هو فيه . .

وأنا واقف أرى استسلامه الكامل لقدره . . ودمعتان ضعيفتان تنزلقان من عينيه كأنهما تواسيانه في آلامه . .

وكانت فاطمة قد سبقتنا إلى البيت . .

إن فاطمة مثلى . إنها تستطيع أن بما سيحدث لصلاح قبل أن يحدث ... إنها تحس به دون أن تحتاج إلى أن ترى خطوط وجهه . . إنها تعتمد على هاتف إحساسها ، هاتف الحب . . إنها تحبه إلى حد إنها ترى داخله حتى وهسى

بعيدة عنه . . وهى دائماً بعيدة . . إن صلاح لا يريدها أبداً أن توجد بين الناس فى حفلاته . . يريد أن يحتفظ بها فوق الناس . . يريدها له وحده . . أنانية الفنان . . والطبيب يلم صلاح كله بين ذراعيه . . وأنواع متعددة من الدواء . . الإبر . . . والحبوب . . وما يدوب . . وما لا يذوب . . ثم انتهى بعد وقت طويل . .

وهو يقول له فى حدة . . كأنه يهم أن يصفعه :

- قلت لك إنه كان يجب أن تؤجل حفل هذه الليلة . . ولكنك لم تسمع الكلام . . اسمع . . أمامك ثلاثة أسابيع ترقدها فى الفراش .. . سامع . . ثلاثة أسابيع . . . بلا حركة وإذا تحركت فلن أكون مسئولا عنك بعد اليوم . . .

وأمرنا الطبيب أن نخرج كلنا من الغرفة حتى فاطمة بعد أن أعطى صلاح دواء منوماً لينام رغم أنفه . .

وعدت إلى بيتى وكل ما فى رأسى هو هذه الأسابيع الثلاثة التى فرض على صلاح أن يقضيها راقداً فى فراشه . . إنى أعلم أن صلاح مرتبط بأكثر من حفلة خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، أقربها حفلة زفاف ابنة رئيس الوزراء بعد يومين . . ولكن لا شك أنه سيعتذر . . إنه لا يستطيع أن يعرض نفسه لما حدث له . . لقد كان ما حدث هو أول مرة يصاب فيها صلاح بأزمته وهو فوق خشبة المسرح . . لقد كان يصاب بها قبل الحفل بأيام أو بعد الحفل بأيام . . أما أن يصاب بها وهو على المسرح . . فهذه هى المرة الأولى . . ولعلها تكون درساً له . . فانى أعلم أن أكثر ما يكرهه هو أن يبدو أمام الناس مريضاً . . ولن يعرض نفسه لمرضه مرة أخرى وهو أمام الناس . .

واعتذر صلاح فعلاً عن حفل زفاف ابنة رئيس الوزراء . . إلى أن صدمت . . .

T MESSE

. لقد ولدت مع صلاح فى قرية واحدة . . كفر ممونة . . وأنا أكبر من صلاح بأربع سنوات ولكنه منذ كنا فى عمر الصبا وهو يحاول أن يفرض شخصيته على كل أولاد القرية . . ربما لم يكن يحاول . . ولكن حيويته التى لا تهدأ ، وشقاوته الجريئة التى كانت تثير الغيظ أحياناً والضحك أحياناً . . كانت تدفع كل أولاد القرية إلى التجمع حوله ، أحياناً للشاركته اللعب وأحياناً للانتقام منه بعد أن يكون قد لعب لعبة بايخة . . وأنا شخصيًا كنت أحس بارتباطى بصلاح دائماً . . كنت أحب شقاوته . . وأحب جنوئه وجرأته . . وأحب بطلاح دائماً معه نلعب الكرة الشراب أو نتسلل إلى حقول الذرة لنسرق وناكل أو نتسلل إلى الجاموس والبقر المنتشر بين الحقول بعيداً عن أصحابه لنمتص اللبن بشفاهنا من أثدائها . .

وكان أكثر ما يهواه صلاح بعد أن كبرنا قليلاً هو العوم . . العوم في الترعة . . والعوم في القرة بعد أن يخلع والعوم في القناة . . وأحياناً لا يعوم ولكنه يلقى بنفسه في قناة صغيرة بعد أن يخلع ثبابه وينام في الماء وكنا نعلم أن هناك شيئاً اسمه بلهارسيا . . كل أهل القرية يعرفون البلهارسيا . . ويعرفون أن سمومها ترقد في مياه الترع والقنوات . . ورغم ذلك فكل أهل القرية يعيشون في مياه الترع والقنوات . . وأنا مع صلاح دائماً في الترع وفي القنوات . . مع البلهارسيا . .

ولم یکن کل ذلك هو أقوی ما جمعنی بصلاح . . کان هناك ما هو أقوی . . كان قد مر أسبوع واحد على قرار الطبيب . . وكان صلاح قد بدأ يبدو أحسن حالا ، وكان مطيعاً فعلاً لكل التعليات ، . لا يتحرك من فراشه ويسأل بنفسه عن الدواء . . مرتاحاً هادئاً . .

كان أحياناً عندما أكون معه بكلفني بمهام تافهة . . حنى كان يخيل إلى أنه يتعمد أن يبعدنى عنه . . وكان يفعل نفس الشيء مع فاطمة . . ومع أصدقاً ثد .

إلى أنَّ كان صباح يوم الخميس . .

وذهبت إليه في الساعة الواحدة بعد الظهر كعادتي . . إنه ليس في البيت . . وفاطمة جالسة تبكي . . إنها لا تعرف أين هو ؟

ولا أحد في البيت يعرف لقد خرج كأنه هرب .. لم يره أحد وهو يخرج .. وكنت أنا أعرف . . واكتشفت أنه خلال رقاده في فراشه كان يتخلص منى أنا وفاطمة ليتحدث في التليفون . . وليس هناك إلا جهة واحدة يهمه أن يتحدث معها في التليفون ، الجهة التي يحتاج إليها . .

ودُهبت إلى نادى الفرقة الموسيقية . .

ورأيته أمامي واقفاً بين أفراد الفرقة الموسيقية يجرى بروفات على أغانى الحفلة التي كان مقرراً أن يقيمها اللبلة لصالح مشروع بيت الطلبة .

وابتسمت في يأس . . لا أمل . .

وفتحت حقيبتى . . وأخرجت أعواد الناى . . وأخذت مكانى بين أفراد الفرقة . . ولم يقل لى صلاح شيئاً كأنه لم يفعل شيئاً . .

إنها قصة طويلة . .

قصة بدأت منذ كنا أطفالا . .

كان والد صلاح الحاج عبد الله مرعى معروفاً في القرية بأنه يهوى الأصوات الجميلة . . ولم يكن يغنى . . كان شخصية محترمة في القرية يمتلك عشرة أفدنة . . وأحياناً يستأجر عشرين فداناً عندما يكون على وفاق مع ناظر عزبة الباشلة . وربما فذا واحتفاظاً باحترامه بين أهل القرية لم يكن يغنى . . إنما كانت كلما مزت بالقرية فوقة من الفرق الفنية الجوالة تضم مطرباً بدعوها الحاج عبد الله إلى دواره ويقم ليلة يستمع فيها إلى هذا المطرب . . وكان أهل القرية - كلهم - يجتمعون وهم في انتظار حكم الحاج عبد الله على هذا المطرب . . فإذا استمع منه إلى موال أو أغنية واعتذر بعدها في أدب واتجه إلى داخل الدوار وترك المطرب إلى أهل القرية عرفوا أنه مطرب لا يستحق ولا يساوى آذان الحاج عبد الله . . أما إذا ابقى الحاج عبد الله إلى نهاية السهرة فعنى هذا أن المطرب ستحق . .

ولكن أعجوبة الحاج عبد الله فى أنه يتولى بنفسه أداء أذان الفجر . . فى كل فجر تصحو القرية كلها على صوت الحاج عبد الله يؤذن للصلاة . . وكان صوته أعجوبة . . إنه لا يؤذن كمجرد أداء واجب دينى ، فهو ليس مؤذناً ولا إماماً للمسجد . . ولكنه فنان . . إنه مطرب . . إنه صوت غال نادر . . ولو أنه استطاع أن يحرر نفسه من شخصية المزارع وتقاليد مجتمع القرية لاستطاع أن يحترف الغناء ويصبح مطرباً مشهوراً فى مصر كلها . . ولكنه كان مصماً على أن يحتفظ بشخصيته فى القرية وبكل التقاليد القديمة المفروضة على هذه الشخصية . وربما كان يغنى أغانى عادية بينه وبين نفسه . . ولكن لا أحد يسمعه ولا وهو يؤذن أذان الفجر كأنه قرر أن لا يعطى فنه إلا لله حتى لوحرم منه الناس . . وفى مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله منا الناس . . وفى مناسبات قليلة كان أهل القرية يلحون على الحاج عبد الله

أن يلتى أذاناً آخر . . وكان عندما تكون هناك مناسبة مفرحة . . كنجاح محصول القطن ، أو انفراج أزمة . . يقبل أن يلتى أذان العشاء بجانب أذان الفجر . . ومرة واحدة في عمره كله ألتى أذان الصلوات الخمس . . ألقاها كما لم يسمعها مسلم من قبل . . ألقاها ودموعه بين عينيه . . وكان هذا يوم توفيت أم صلاح . . وكان صلاح عندما نكون معاً وحدنا يقف ويقلد والده في الأذان . . وكنت أبامها أضحك عليه وأقول له إن صوته أشبه بصوت صراصير الليل بجانب صوت أبيه . . ولكن صلاح كان يبدو متمتماً منفعلا فعلا وهو يقلد أباه . . وكان يقلده أبيه . . ولكن صلاح لا يكتني في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين ومع السنوات بدأ صلاح لا يكتني في خلواتنا بتقليد أبيه بل أصبح يقلد كل المطربين وبردد مواويل وأغاني الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلساتنا وبردد مواويل وأغاني الريف ، ثم تجرأ صلاح أكثر وبدأ يردد أغانيه في جلساتنا مع أولاد القرية أثناء الليل . . وبدأنا نحبه وهو يغني . . لم يخطر على بالنا أيامها أن نقدره كفنان . . ولكننا كنا نتركه يغني أن نطلب منه أن يغني . . النغني معه . . . فوالبا ما يرتفع صوتنا على صوته . .

ولم يجرؤ صلاح أبداً على أن يغنى أمام أبيه أو أن يعترف أمامه بأنه يحب أن يغنى . . رغم أنه قطعاً ورث صوته وورث كل فنه عن أبيه ، ربما لأن تقاليد القرية كانت تجعل من الفنانين والمطربين مجموعة أقرب إلى الشحاذين ، وهى التقاليد التي حرمت على والد صلاح نفسه أن يغنى وأجبرته على الاكتفاء بأداء أذان الفجر ، وهى نفسها التقاليد التي كانت تجعله يتمنى أن يكون ابنه أى شيء إلا أن يكون مطرباً . . وربما كان كبقية آباء الريف يصل غاية ما يتمناه لابنه أن يكون ضابط بوليس لأهمية وقوة ضباط البوليس بين قرى الريف . .

وأنا . . أنا ليس في عائلتي أي تراث ولا أي ظاهرة موسيقية . . ولكني وجدت

وانتقلنا . . صلاح وأنا . . لنقيم فى المركز ، ورغم أنى أكبر منه سناً فقد كنا معا فى سنة دراسية واحدة . . ربما لأنى أصلا لم أكن من هواة دخول المدارس . . كان حلم صباى أن أزرع وأجلس على حافة الساقية أعزف الناى وصلاح يغنى لى . .

وقى المركز انطلقت هوايتنا . . وانطلق بنا الفن إلى آخره . .

كان صلاح يغنى ليل نهار ، و بمناسبة و بلا مناسبة ، وأنا أعزف الناى كلما استطاعت أصابعى أن تصل إلى ثقوبه . . بل إننا ، صلاح وأنا ، بدأنا نحاول أن نعزف ونغنى أى شيء نصل إليه . . صلاح حاول أن يغنى باليونانى تقليداً لبقال جريكى كنا نتردد عليه ، وحاول أن يعزف الأكورديون والبيانو ، والكمان ، والأرغول . . و . . و . . .

كل ذلك دون أن يخطر على بال أحدنا أنه يرسم لنفسه مستقبلا فنياً . .

وأذكر أننا كنا فى زحام مولد سيدى البرائى ، وانفصلنا مع بقية الطلبة إلى مكان بعيد وبدأ صلاح يغنى والطلبة تصفق وأنا أعزف الناى . . وكلنا نضحك . . ونقطع الأغانى لنتبادل الشتائم التى كنا نعتبرها نكات . . وتجمع بعض الناس حولنا يستمعون . . . إلى صلاح ويغنون معنا . . ويضحكون معنا . . وكان من

بين من تجمع طالبات المدرسة الابتدائية للبنات ، كن متباعدات في خجل يتضاحكن الضحكات المخجولة المثيرة . . وغنى صلاح إحدى الأغانى الريفية المعروفة وإذا بصوت يبدو من بين الطالبات يغنى معه . . صوت خجول . . بغنى كلمتين ويسكت . . ثم يعود يغنى . . ولكن الطالبات ابتدأن في الإلحاح على الفتاة أن تغنى مع صلاح . . كأن البنات قررن أن يتحدين في الفن الأولاد . .

ونحن أيضاً بدأنا نلح عليها أن ترفع صوتها لنسمعه . .

وغنت الفتاة . .

بل اشتركت مع صلاح فى أغنية واحدة كانت أيامها أغنية شعبية معروفة كل منهما يرد على الآخر بمقطع منها . .

وكانت هذه الفتاة هي فاطمة . .

ولم نعرفها يومها . . .

وسأل صلاح بعدها عنها كثيراً . . ربما كانت ابنة موظف من موظفي المركز أو ابنة مزارع أو ابنة المأمور . .

بل إن صلاح بدأ يذهب ويقف أمام مدرسة البنات بحثاً عن هذه الفتاة التي لم نكن نعرف أن اسمها فاطمة . .

ولكن صلاح لم يعثر عليها أبدأ . .

وفى هذا العام . . ونحن فى السنة الثالثة الابتدائية , . توفى الحاج عبد الله والد صلاح وفى صباح يوم الوفاة . . ودون أن يبلغ صلاح أحداً ، أو يستأذن خاله الذى أصبح مسئولا عن العائلة . . أو أخاه الأكبر . . وحتى دون أن يقول

لى . . صعد فى الفجر إلى مثذنة جامع الكفر . . وأذن للصلاة . . كما كانت عادة أبيه . . كأنه يريد أن يقول لأهل القرية إن أباه لم يمت ، أو كأنه يريد أن يعلن أنه يستطيع أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه ، أو كأنه كان يريد أن يرسل تحية لأبيه فى قبره . . وذهل أهل القرية وهم يستمعون إلى صلاح وهو يؤدى الأذان . . واعترفوا لأول مرة أنه ورث عن أبيه صوتاً أقوى وأحلى وأداء لم تسمعه القرية من قبل . . وبدأوا يلتفون حوله فى ليالى المأتم . . ويطالبونه بأن يقرأ القرآن . . أو أن يعود ويؤذن لبقية الصلوات . . ولكن صلاح كان يرفض . .

إلى أن عدنا إلى المركز . . إلى المدرسة . .

وبدأ صلاح يبدو في شخصية جديدة . . لقد كان والده هو الشخصية الوحيدة التي تقيده . . ويحسب حسابها . . ويخني عنها حقيقة ميوله ومطمع أحلامه . . وقد تحرر بعد وفاة والده . . وأصبح يجاهر بفنه المتمكن منه ، ويركز كل ذكائه وكل جرأته وأحيانا كل جنونه على ممارسة هوايته . . .

ولكنه لم يكد يبدأ في انطلاقه حتى أصيب بالضربة الأولى . .

والبلهارسيا كانت قد أصبحت فى الريف مرضاً عادياً كالزكام أو الصداع . . ولكن صلاح لم يكن ينتظرها . . لم يعتبر نفسه مسئولا عنها رغم السنوات الطويلة التي قضاها فى مياه الترع والقنوات وهو يعلم أنها مياه مسمومة بالبلهارسيا . . لقد كان غروره بنفسه يوفض أن يدعه يعترف بأنه السبب فى أى مصيبة تحدث له . . لذلك مرت شهور وصلاح منزو ، منهار ، ساخط على كل شيء ، يعالج نفسه من البلهارسيا . .

وشنى . .

لا . . إننى بعد سنوات طويلة أصبحت مقتنعا بأنه لم يشف . . وأن اندفاعه نحو هوايته الفنية أيامها جعلته بتسرع ويهمل فى علاج نفسه ، وبمجرد أن انقطع الدم الذى كانت تنزفه البلهارسيا اعتبر نفسه وكأنه شفى تماماً ولم بعد فى حاجة إلى طبيب ولا إلى علاج . .

وكان الانطلاق الذى اندفع فيه صلاح بعد وفاة والده يجعله لا يكتنى بالاشتراك في الفرقة الموسيقية التي تجمع بين الهواة من طلبة المدرسة ، والتي أصبح بها مطرب المدرسة ، ولا يكتنى بالغناء بين أصدقائه بل أصبح يبحث عن المناسبات التي يستطيع أن يغنى فيها . . ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى شيء إلا إشباع هوايته . . لم يكن بين الناس أكثر من طالب يستطيع أن يغنى ويستطيع أن يلعب بكثير من الآلات الموسيقية . . مجرد لعب . .

ودائماً كان يسأل عن فاطمة . .

ولم يعلم عنها شيئاً أبداً . . حتى من صديقاتها اللاتى كن معها يوم رآها . . ربما كانت أيامها مجرد زائرة لإحدى عائلات المركز ، أو ربما جاءت إلى البلدة مع أهلها مصادفة لحضور الاحتفال بالمولد . إلى أن انتهينا – هو وأنا – من المدرسة الابتدائية . .

وفى فترة الصيف قضينا أيامنا فى القرية نحاول أن نرسم مستقبلنا . . وكان المفروض أن المستقبل كله ينحصر فى التحاقنا بمدرسة دمنهور الثانوية .

ولكن لا صلاح ولا أنا ، نريد أن نضع أنفسنا بين حوائط المدارس . . نريد ان ننطلق . . أن نجرى . . أن نجرب . . وتركزت كل أحلامنا في الالتحاق بالمعهد الموسيقي الذي كنا نسمع عنه . . أي أن نهاجر إلى القاهرة . . ولولا أننا كنا بحبرين على أن ندخل المدارس . . أي مدرسة . . لما فكرنا حتى في الالتحاق

بالمعهد الموسيق ، ولانطلقنا نغنى ونعزف فى كل البلاد كأى فرقة من الفرق الريفية . . إلى هذا الحد كان صلاح يريدأن يمارس فنه ، ويمتع به نفسه قبل أن يمتع به الناس . . وإلى هذا الحد كنت متأثراً ومقتنعاً بكل ما يخطر على بال صلاح . .

ولكن لأننا كان يجب أن ندخل مدرسة ، فقد دخلنا المعهد الموسيق ، ولم يعارض خال صلاح . . فقد كان كل ما يشغل باله هو نفقات التعليم . . وربما كان مقتنعاً بأن صلاح ورث عن أبيه ميوله الفنية ، فتركه لجنونه . . وأنا أيضا لم يكن يهم عائلتي إلا كم تدفع . .

وذهبنا لنعيش في القاهرة . .

The state of the s

ولم يلتحق صلاح بقسم الأصوات . . ولكنه التحق بقسم الآلات . . معى . . ربما لأن الدراسة في قسم الآلات أوسع ، و ربما لأنه هو نفسه لم يكن يدرى حتى هذه الأيام هل يستطيع أن ينجح كمطرب أم يستطيع أن ينجح كعازف . . أنا شخصيًّا كنت أنمني له ما أنمناه لنفسى رغم الفرق الكبير بين قيمة صوته وصوتى . . كنت أريده أن يكون عازفاً . . لأن امتلاك الآلة الموسيقية أطوع من امتلاك صوتك . . إن الآلة لا تستطيع أن تخالف أمرك . . ليست معرضة للمرض . . ولا للضعف ولا للهزال ولا لسرعة التطور . . الآلة إذا أصيبت بخدش تستطيع أن تلقيها بعيداً وتستبدلها بأخرى جديدة . . ولكن صوتك إذا خدش لا تستطيع أن تبدله . . والآلة تعيش التاريخ كله . .

البيانو الذي كان يعزف عليه شيللي هو نفسه البيانو الذي تعزف عليه اليوم . . مهما تطورت الألحان . . ولكن صوت صالح عبد الحي لا يمكن أن يطرب الآن ، لأن الصوت مرتبط بالقدرة على التجديد ، والتجديد يعتمد على الطبقات الصوتية هي قدرات فردية لا يستطيع أى فرد أن يصل إلى ما يشاء من الطبقات . .

وأريد أن أروى كيف كنا نعيش في القاهرة . . ليست أعجوبة أن نبدأ في القاهرة وأن نعيش بقرشين صاغ في اليوم . . وتستطيع أيضاً أن تصل إلى مائة جنيه في اليوم . .

وكنا منذ وصلنا إلى القاهرة نعيش – صلاح وأنا – في حجرة واحدة مؤجرة

داخل بيت في إحدى حوارى الجيزة من البيوت التي تؤجر للطلبة . .

وكنت أصحو كل يوم وأنا في انتظار معجزة من معجزات صلاح ، قد تكون معجزة ترتفع بنا ، وقد تكون معجزة تنهار على رؤوسنا . . ولم تكن معجزة صلاح أنه استطاع بسرعة أن يجيد العزف على الكمان الذى اختار أن يتخصص فيه عندما التحقنا بالمعهد ، ولا معجزة تقدمه بصوته الذي يغني به تقدما كان يدهشني أنا شخصيًّا رغم أنى عشت العمر كله مع هذا الصوت . , ولكن معجزته الكبرى هي قدرته على الاتصال بالناس . . واكتساب صداقتهم ثم استغلال هذه الصداقة . . لقد كان يعرف بذكائه أن الفن لا يساوى شيئاً إلا إذا استطاع صاحبه أن يصل به إلى الناس . . إلى الجمهور . . ولكي تصل إلى الجمهور بجب أن تصل أولا إلى مراكز القوى التي نسيطر على حركة المرور إلى الجمهور . . مراكز القوى الفنية . . إنها مراكز تضم أفراداً أقرب إلى عساكر المرور . . تشير ، فتمر إلى الجمهور . . تشير فتقف مكانك دون أن تتقدم إلى الجمهور . . وأحياناً كثيرة تسحب منك رخصة القيادة الفنية فتجد نفسك قد انتهيت كفنان . . وكان صلاح له قدرة عجيبة وذكاء خارق في اكتساب أفراد مراكز القوى الفنية . . إنه يعرف مقدماً ماذا يريد كل منهم . . ومنهم من لا تستطيع أن تكسبه إلا إذا بدوت أمامه ضعيفا غلبان ، محتاجاً ، تثير شفقته ، وتثير فيه عقدة السيادة وتشبع فيه شهوة العظمة . . ومنهم من يحتاج لإقناعه لنوع من القوة أقرب إلى التهديد . . ومنهم من ينتظر رشوة . . والرشوة ليست دائماً مبلغاً من المال . . إن هناك أنواعاً كثيرة من الرشاوى وصلاح يستطيع دائماً بذكائه وجديته وحيويته أن يكتشف الإنسان الذي يحتاج إليه ، ويكتشف وسيلة الوصول إليه .. .

وكان أول ما حاول صلاح أن يستغل فيه معجزاته هو حاجتنا إلى أن نعمل

ولكب حتى نرتفع من مستوى سندويتش الفول إلى مستوى طبق الكباب . . . ولم يكن وسن مستوى البنطلون الواحد إلى مستوى ثلاثة أو أربعة بنطلونات . . ولم يكن مناك طريق أمامنا لنعمل ونكسب ونحن لا نستطيع شيئاً إلا الفن . . ولا نقبل أن ننحرف عن إصرارنا بأن نعطى كل حياتنا لهذا الفن ، ولا أحد يعرفنا كفنائين في هذا البلد الكبير ولا نزال طلبة في المعهد مفروض أننا لم نتم تعليمنا بعد . . ولكن صلاح استطاع في عام واحد أن يعرف كثيرين من أفراد الفرق الموسيقية ، وأن يكسبهم بذكائه وخفة دمه ، ولا أقول القدرة الفنية ، بل كان صلاح يتعمد إخفاء قدرته الفنية حتى لا يثير بين أصدقائه الجدد الغيرة والخوف على أنفسهم من فنه ، كما يحدث دائماً بين أفراد المهنة أو الفن الواحد . .

ولم يكد العام الأول يمر ونحن فى فقر نعيش على ثلاثة جنبهات فى الشهر بتلقاها صلاح من بلده وجنيه واحد أتلقاه أنا ، حتى استطاع صلاح أن يضع نفسه فى إحدى الفرق الموسيقية كعازف للكمان ، ويضعنى معه كعازف ناى . . وكسبنا . . ارتفعنا إلى مستوى الكباب ومستوى شراء القمصان والبنطلونات وتفصيل البدل . . وارتفعنا أيضاً إلى مستوى السكن فى شقة إيجار . . شقة وحدنا . . صلاح وأنا . . وكل ذلك كان ارتفاعاً إلى مستوى متواضع ، أى إلى مستوى عشرة فى الماثة من المستوى الذى نعيشه الآن . . ولكننا - أيامها - كتا نحس أننا ارتفعنا مليوناً فى الماثة من المستوى الذى نعيش فيه . .

وكان أصدقاؤنا الجدد قد بدأوا يعرفون أن صلاح يغنى . . وكان يغنى لم ، والكثير ون منهم يهللون له ويلحون عليه أن يبدأ في محاولة الظهور كمطرب . . وكثير ون أيضاً استهزأوا به ورفضوا الاعتراف به كمطرب . . كفاية عليك الكمنجة . ما تطلعش فيها .

وصلاح لا يريد أن يقدم نفسه علانية كمطرب إلا في الجلسات الخاصة الضيقة . . إنه عندما يغني يردد أغاني محمد عبد الوهاب أو سيد درويش وأحيانا محمد عبد المطلب أو بردد الأغاني الريفية والشعبية . . وهو لا يريد لنفسه كل هذا . . إنه مقتنع بأن صوته يمكن أن تكون له شخصية منفصلة . . شخصية قائمة بذاتها . . شخصية تخلق الجديد ولا تكتني بترديد القديم . . إنه لا يريد أن يقدم نفسه للجمهور إلا كشخصية فنية جديدة ، شخصية الصوت . . وشخصية اللحن . . وشخصية اللحن . . وشخصية اللحن . . وشخصية اللاداء . . يجب أن يبدأ بشخصية حديدة بأغنية لم يسمع الناس مثلها من قبل . .

ولكن الجديد ، يتطلب ملحناً جديداً . . وشاعراً جديداً . . إنه لا يستطيع أن يذهب إلى أى ملحن ويطلب منه أن يلحن له . . فهو غير معروف ، ولا يستطيع أن يدفع تمن اللحن ، وصوته قد لا يكنى ليدفع أى ملحن إلى أن يقدم له لحناً مانياً . . وعبد الوهاب بالنسبة له هو القمة التي لا يستطيع أن يصل إليها أو على الأقل لا يستطيع أن يصل إليها وهو لا يزال واقفاً في القاع . . إنه يخشى وهو في القاع ألا يصل صوته إلى القمة . . يرتعش وبخاف أن يرفضه عبد الوهاب . .

وبدأ ذكاء صلاح يعمل . . إنه جديد . . جيل جديد مجهول من الناس ومن محطات الاذاعة وشركات الأسطوانات وزعماء التليفزيون . . فإذا أراد أن يبدأ فيجب أن يبدأ معه كل الجيل الفنى الجديد . . إنه يقدم نفسه وهو مجهول . . ويجب أن يكون الملحن أيضاً مجهولا . . وكاتب الأغنية . . وموزع الموسيق . . والموسيقيون . يجب أن يكونوا كلهم مجهولين يجب أن يقدم نفسه من داخل الجيل الجديد . . وبدأ صلاح وأنا معه نعيش بين مجموعة من الفنانين الشبان المجهولين . .

بعضهم من طلبة المعهد . وبعضهم من الهواة . وبدأنا كلنا نعمل لنضع أغنية حديدة . . فناً جديداً . . كل ما فيه جديد ، قد نتجع كلنا أو نفشل كلنا . . قد ينجع الجيل الجديد . كنا نعيش أيامها كأننا تخطط لانقلاب للاستيلاء على مقاليد الحكم الفنى . .

وانتهينا من وضع أول أغنية تمثل الجيل الفنى الجديد . . كلنا كنا فيها نشترك في التلحين وفي الأداء وفي الغناء . . كنا نعيش كأننا في مظاهرة فنية . .

ولكن كيف نقدم هذه الأغنية للناس . . لا طريق إلا الإذاعة . .

ولكن .

مستحيل أن تقبلنا الإذاعة . .

وبدأنا كلنا نعيش اعتماداً على ذكاء صلاح . . وقد استغرق ذكاء صلاح عاماً كاملا استطاع خلاله أن يكتسب صداقة الأستاذ عباس حمدى الذي يعتبر إحدى الشخصيات القوية في مركز قيادة الإذاعة . . وأعجب عباس صلاح كفنان . . أعجب به فعلا . . وأعجب بالأغنية الجديدة واللحن الجديد إلى حد أن أعلن الثورة على الروتين المتجمد للإذاعة الذي يحرم دخول الجيل الحديد . .

وأذيعت الأغنية . . لأول مرة . .

وسمعها الجمهور في عشر دقائق . . وكنا قد قضينا في إعدادها عامين ، آخرهما أسبوعان لم ننم خلالهما أبداً . . قضيناهماكلهما نعيد ونراجع . . ونعيد ونراجع إلى أن تم التسجيل في الإذاعة . .

فرحتنا الكبرى . . نجحت الأغنية . .

وكل الأسماء التي أذيعت معها ، كانت أسماء جديدة . . صلاح . . والملحن

رأفت التونى . . والشاعر أحمد حلمي . . أما اسمى فهو لا يذاع . .

ولكن النجاح الأول لا يمكن الاعتماد عليه . . إنه أشبه بصدمة لا أحد ينتظرها . . ولا يمكن أن نخلق جمهوراً ثابتاً . . خصوصاً إذا كانت الأغنية قد أذيعت فجأة وبلا دعاية تجذب الناس لها . .

تری کم واحدا سمعها . .

وأذكر أنى عدت ليلتها مع صلاح إلى البيت، وقال لى وهو منطلق فى خياله كأنه يبحث به عن المستقبل:

– لسه بدری یا عمر . .

وليلتها دخل صلاح الحمام ، وكنت فى غرقتى واعتقدت أنه دخل يغسل وجهه . . ثم ذهبت إليه داخل الحمام . . وفوجئت به وقد أمسك الفوطة وهو يمسح بها حوض الحمام والفوطة ملطخة بالدم . . وخطوط من الدم لا تزال معلقة داخل الحوض . . وذعرت :

- ما هذا الدم يا صلاح . .

وأجابني صلاح وهو يحاول أن يعلق ابتسامة بين شفتيه :

لا شيء . . بسيطة . . إن دمى ثقيل وأحاول أن أخففه . .

وصرخت:

هل هي المرة الأولى التي تنزف فيها دمك من فمك . .

وأجاب وهو لا يزال يحاول أن يبتسم :

– المرة الأولى . . وبإذن الله الأخيرة . .

وأخذته إلى فراشه ، وأنا ساخط أصرخ فى وجهه وأصمم على استدعاء طبيب . . ولكنه يرفض . . إنه يهدد بالكذب على الطبيب لو استدعيته . .

وهو مؤمن بأن لا شيء قد حدث له . . إنه لم ينم طوال أسبوعين ، وقد أسرف فى وضع الشطة داخل الساندويتش . . وهذا هو كل السبب . .

ونام . .

وبدأت ألاحظ لأول مرة الخطوط التي ترتسم على وجهه عندما تنتابه الأزمة . .

خطوط تظل عالقة تحت عينيه حتى وهو ناثم . .

وفي صباح اليوم التالى دق جرس الباب . . وفتحت . . إنها .فاطمة . .

وفرحت بها كأنى وجدت الدواء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ صلاح .

وأُجلستها فى الصالة ، وجريت إلى صلاح وهو لا يزال راقداً متعباً من أثر الأزمة .. وما كاد يعرف أنها فاطمة ... الفتاة التى يبحث عنها منذ خمس سنوات . . حتى قفز من الفراش وألق على وجهه قطرات من الماء . . وأدخل نفسه فى قميصه و بنطلونه .. وجرى إليها . . إلى فاطمة وهو يهمس كأنه يهى نفسه :

- الأغنية نجحت . . مادامت قد جاءت لى بفاطمة فقد تجحت . .

وكان هذا صحيحاً ، لقد سمعت فاطمة الأغنية في الإذاعة . . وقالت له إنها عرفته من صوته لا من اسمه رغم أنها لم تسمعه إلا مرة واحدة في سوق سيدى براني ومنذ خمس سنوات . . واتصلت بالإذاعة وعرفت عنوانه وجاءت . . وقد حاولت من قبل أن تتصل به فلم تستطع . . مرت سنوات حتى استطاعت أن تعود مرة أخرى إلى دمنهور ، وسألت عنه هناك ، ولم تجده . .

ورأيت صلاح يومها كما لم أره منذ زمان طويل . . إن ضحكته منطلقة صادقة ليس فيها هذا التعمد الذي يضعه دائماً كأنه واقف دائماً أمام آلة تصوير . . والخطوط التي تركتها الأزمة تحت عينيه اختفت بسرعة . . وهما يتذكران الأغنية التي غنياها معاً في المولد . . ثم يغني لها أغنيته الجديدة وتغنيها معه . . إن صوتها فيه شيء . . إن الم المجديدة وتغنيها معه . . إن صوتها فيه شيء . . إن كبراً . .

وأصبحت فاطمة في حياة صلاح . . لا . . أقصد إن صلاح أصبح في حياة فاطمة . . أما حياته فإنى لم أكن أعتقد أنه يمكن أن تكون فيها فاطمة أو أي إنسان آخر . . لقد أعطنه فاطمة قوة جديدة . . قوة الزهو بالنفس . . قوة الغرور . . ولكن كل هذه القوة لم يكن يعطيها لأحد إلا لفنه . . أنانية الفنان . . وقد بدأ صلاح في إعداد الأغنية التالية . . . ويقضى كل أيامه مع فنه ، وفاطمة لا تجد طريقاً إليه إلا أن تجرى وراءه . . وهي لا تغضب . . إنه يعطى نفسه لشيء تحبه . . لفنه . . وهي راضية ، فرحة به . . وتنحمله كأنها هي التي تغني . . وكانت تغني فعلا . . كانت في الأوقات التي يبقي فيها صلاح في البيت وتأتى إليه ، تغني معه . . وتعبد كل ألحان البروفات التي كان يؤديها وهي جالسة تسمعه . . وفي يوم قلت لصلاح :

إن فاطمة صوت جديد . . إنها تستحق أن تكون مطربة . . لنحاول أن نقدمها لأصدقائنا . . ونظر إلى صلاح في دهشة كأني قد نسيته . . وقال :

أنتظر إلى أن أنتهى من بناء نفسى أولا . .

ورفض صلاح أن يقدم فاطمة إلى عالم الغناء . . أنانية الفنان . . ربما لم يكن يريد أن يكرر طبيعة الصراع الفنى الذى كان قائماً بين عبد الوهاب وأم كلثوم . كان يخاف أن يعانى هذا الصراع ويخلق أم كلثوم أخرى . . من يدرى ربما كانت فاطمة تستطيع أن تكون شيئاً جديداً بالنسبة لأم كلثوم ، كما أصبح صلاح شيئاً جديداً بالنسبة لعبد الوهاب . . ولكن المهم أن فاطمة نفسها لا تريد أن تكون أم كلثوم . . لا تريد أن تحترف الفن وتعلن نفسها أمام الجمهور كمطربة . . يكفيها صلاح . . إنها تجد فيه كل ما تحلم به لنفسها . .

وكان صلاح قد اكتشف بعد الأغنية الأولى أن النجاح لا يتم إلا بجذب الناس

إنك تقسو عليها بهذا التجاهل . .
 وقال وهو يتنهد بحسرة :

- إنى أقسو على نفسى . . إن مسئوليتى عن فنى تأخذ منى أكثر مما أطيق . . ان المغنى الذى يغنى للحب يرسم أمام المستمع صورة من الخيال وهذا المستمع يتصور أن الفنان نفسه هو هذه الصورة . . كالقارئ الذى يقرأ قصة حب ، إنه يتخيل أن الكاتب نفسه هو بطل هذه القصة ويعيش معه فيها ، وقد تكون القارثة فتاة يأخذها خيالها إلى أن تتصور نفسها بطلة وأنها هى التى يحبها كاتب القصة . . وكذلك المطرب . . إنى عندما أغنى الحب أرفع المستمع إلى الحب . . إلى الخيال . . ولو عرف الناس قصة فاطمة فكل مستمع سيتصور أنى أغنى لفاطمة وحدها فينهار خيال المستمعات . . يفقد الخيال متعته لأنه ينقلب إلى واقع قصتى مع فاطمة . . أنا محكوم على حتى أحتفظ بخيال المستمع والمستمعات بأن أشعر كل فتاة بأنى أغنى لها حتى ولو كنت فى الواقع أغنى لفاطمة . . . محكوم على أن أنعنى حتى لا يراه الناس . . محكوم على أن أخنى حى داخل قلى وتحت ثيانى حتى لا يراه الناس . .

وربما لم أقتنع بهذا الكلام . ولكن فاطمة نفسها كانت مقتنعة به . كانت مقتنعة بأن الفنان ملك لكل الناس وليس ملكاً لنفسه . . فإذا ابتسم بجب أن يبتسم لكل الناس . . وإذا أحب يجب أن يبدو كأنه يحب كل الناس . . ويجب أن تبقى حياة الفنان الخاصة بعيدة عن الناس . . إنها تفكر كما يفكر صلاح . . وتحس كما يحس صلاح . . بل خيل إلى أنها أصبحت تتكلم بنفس أسلوب وصوت صلاح بل إنها أيضاً تقلده في حركاته دون أن تتعمد التقليد . . وبما لأنها أحبته حتى جعلته قطعة منها من عقلها ومن شخصيتها . . وربما لأن النجاح السريع الذي حققه صلاح يجعل كل من يطمع في النجاح يتأثر به . .

إلى العمل الفنى . . إن كل شيء يحتاج إلى قوة جذب حتى الأغنية الناجحة . . . وقوة الجذب الكبرى هي الصحافة . . إن الزعماء السياسيين يعتمدون على الصحافة كقوة لجذب الناس . . لا يكني أن الزعم يلتى خطاباً ويجذب الجمهور دون أن تقوم الصحافة بمهمة وضع الجمهور أمامه . . والشيكولاتة لا يأكلها الناس الا إذا جذبتهم إعلانات الصحف إلى شرائها وأكلها . . وكذلك الفنان الذي يواجه الجمهور . . وبدأ صلاح يركز ذكاءه على الاتصال بالصحفيين حتى يجذبوا الناس إلى أغانيه الجديدة . . صفار الصحفيين وكبار الصحفيين . . وأذكر أن صلاح أقنع أحد صغار الصحفيين بأن يقدمه إلى أحد كبار الصحفيين . . وصحب الصحف الصغير صلاح إلى الصحفي الكبير وطلب منه أن يستمع إليه ولم يكن قد سمعه في أغنيته الأولى ، وقال الصحفي الكبير :

- اعمل معروف . . لا تجربه في . . دعه بجرب نفسه في غيري . .

ولم تنقض شهور حتى أصبح هذا الصحنى الكبير من أقرب أصدقاء صلاح . . إن صلاح لا يبأس أبداً من الاستيلاء على صداقة من يريد صداقتهم . .

وبدأ اسم صلاح يلمع فى الصحف . . ولم يكن يكنى حتى يلمع اسمه أن يكون صديقاً للصحفيين بل يجب أن يكون قد نجع فى اجتذاب الجمهور ، حتى نضطر الصحف إلى ترديد اسمه . . أى يصبح نجاحه أقوى من أن تتجاهله الصحف . . ولكن الصحف بدأت تعرف قصة الحب بينه وبين فاطمة . . وبدأ صلاح يختى قصة حبه . لقد طلب من فاطمة ألا تكون معه أثناء البروفات وطلب منها ألا تظهر معه فى مكان عام . . وكان عندما يدعى إلى حفل خاص وبحدها هناك يتعمد أن يبدو أقل اهتاماً بها . . بل يتعمد تجاهلها . . وقلت له يممأ :

مترليوز تنفجر واحدة بعد الأخرى وفمه مفتوح إلى آخره دون أن يصرخ . . وصرخت فاطمة :

- صلاح . . ماذا حدث لك . . أجبني . . تكلم . .

ولم يتكلم صلاح . . إنه لا يستطيع . . وقام يجرى مترنحا ناحية الحمام ، وقبل أن يصل إليه سقط على الأرض وانفجر شلال الدم من بين شفتيه . . إنها الأزمة . .

ولأول مرة تراه فاطمة في أزمته . .

وساعدتني فاطمة في حمله إلى فراشه ، وهي ترتعش وتصرخ :

الدكتور . . اطلب الدكتور . . أين الدكتور ؟ . . .

ولم تكن تعرف أن صلاح كان حتى ذلك اليوم يحرم علينا استدعاء الطبيب حتى لا يعرف الناس خبر مرضه :

وكان شَلَال الدم قد توقف قبل أن نصل بصلاح إلى فراشه . . إنه شلال لا يستغرق سوى ثوان كطلقات مدفع المترليوز ، ونظر إليها صلاح وهو ممدد يلتقط أنفاسه كأنه يسترد بها الحياة ، وقال فى ضعف :

لست فى حاجة إلى دكتور يا فاطمة . . أنا بخير . . الدم توقف . .
 ثم اغتصب ابتسامة من بين شفتيه وعاد يقول ?

أمس وضعت على عشائي نصف كيلو شطة على الأقل . . وهذا هو السبب . . إنها الشطة هي المجنونة كما يقول الناس . . إنها الشطة . . الشطة بجنونة وأنا مجنون بالشطة . .

وفاطمة تنظر إليه في تعجب ، ثم انقلبت نظرتها إلى نظرة غاضبة ثائرة كأنها أم أخرجها أبنها عن هدوئها ، وصرخت في وجهه : وفاطمة لا شك تطمع فى النجاح . . وإن كانت لم تحدد بعد ماذا تريد أن تنجح قيه . .

ولكن الحدث الأكبر في حياة فاطمة وصلاح كان يوم عرفت بمرضه ... كان قد مضى أكثر من عام وهو يختى عنها الأزمات التي تنتابه وتفقز بدمه من بين شفتيه ، ويسقط بعدها وكأنه لم يعد فيه قطرة دم ، كان يعتبرها هي أيضاً واحدة من الجمهور الذي يختى عنه مرضه . . حتى لا تنهار صورته الفنية . . صورة الشاب المرح القوى الملئ بالحياة الذي يغتى للحب . . كانت شخصبته الفنية تغلب شخصيته الآدمية ، حتى لا يريد أن يعترف بأن فاطمة يمكن أن تحبه كبنى آدم . . إنها تحبه فقط كفنان . . والفنان لا يمكن أن يكون مريضاً . . وكانت فاطمة أحباناً تلمح الهزال والضعف الذي يبدو على وجه صلاح . . ولكن الأنها لم تكن تعرف أنه مريض – كانت تعتقد أن كل ما يبدو عليه هو وتجه أيهاك نفسه في عمله الفنى . . وأحياناً كانت تعتقد أن هذه هي طبيعة تكوينه الجسماني . . ولد هكذا . . ترتسم فوق وجهه خطوط الضعف والهزال ، . وينحصر قوامه في جسد رفيع قصير . . وكانت تقول له ضاحكة : –

- صلاح . . طول عمرك ستبقى سنك سبعة عشر عاماً . . إنك تستطيع أن تمثل في السينما أدوار الشباب المراهقين دون أن تحتاج إلى مكياج . . يابختك . . احمد رينا . .

إلى أن كانت يوماً معنا فى البيت . . وكان صلاح قد استيقظ من النوم منهكاً عصبياً وجلس معها وهو لا يستطيع أن يستمر فى حديث . . ولا يستطيع أن يغنى لها أو يدعها تغنى له . . وفجأة تقلصت عضلات وجهه ، واتسعت عيناه كأنه يختنق ، ويضع يده على صدره كأنه يحس فى داخله بطلقات مدفع

- اسمع . . أنا أفهمك جيداً . . ليس هناك عاقل يرفض استدعاء الطبيب يعد أن يتقيأ دمه . . إننا نستدعى الطبيب عندما نصاب بصداع أو زكام . . وأنت أفرغت دمك ، ربما كان فيك شيء تمزق ، ولكنك لا تريد الطبيب لأنك لا تربد أن تعترف بالمرض . . لا تريد أن يعرف الناس أنك مويض . . حتى أنا أخفيت عنى كل هذه الأيام أنك مريض . . اعتبرتنى واحدة من جمهورك . . وانك لا تحيني . . وأنا مجرد إحدى المعجبات بفنك الرفيع . .

ورَّابِتْ صلاح يرفع رأسه كأنه يستجمع كل شبابه مدافعاً عن نفسه ، ولأول مرة أسمعه يعترف :

قاطمة . . أنا أحبك . . عمرى ما اعتبرتك واحدة من الجمهور . . .
 ولكني أخفيت عنك لأنى كنت أخاف على حبك من مرضى . . إنى أريد حبك
 كاملا ولا أريده إشفاقا على من مرضى . . .

وقالت فاطمة وقد استردت هدوءها :

- أثبت لى حبك . ..

: ال

كيف . . ما هو أكثر من أتركك ترينني في ضعفي . . في مرضى . . .
 قالت في هدوه :

الأكثر أن تتركنا نستدعى الطبيب . .

والتفتت إلى فاطمة تطلب منى أن أستدعى الطبيب فى التليفون ، واحترنا ، هى وأنا ، فى تحديد اسم الطبيب الذى نستدعيه ، ولكن صلاح هو الذي حدد اسم الطبيب . . من يدرى ربما كان قد تردد على هذا الطبيب من قبل سرًّا ودون أن يبلغنى أو ربما كان يراجع بينه وبين نفسه أسماء الأطباء ويختار المتخصص

فى مثل حالته استعداداً لمثل هذا اليوم . . إن ذكاءه يتسع لكل شيء . . وجاء الطبيب . .

وقبل أن يصل كانت فاطمة قد أخذتني خارج الغرفة وجلست معى بحجة أن نترك صلاح ليستريح وجعلتني أعترف لها بكل حالات مرض صلاح . .

وكان الطبيب قد وصل بأسرع مما نتصور ، ربما لأنه اندفع وراء فرحته باستدعائه لعلاج المطرب المشهور صلاح ، وربما لأنه أحس بإرضاء غروره بنفسه واكتساب شهرة طيبة عندما يعرف الناس أنه طبيب المطرب المشهور ، وربما لأن هذه هي طبيعته في تلبية حاجة المرضى . . الله أعلم . . ولكنه جاء يسرعة . . والاهتمام يشمل كل ملامح وجهه ، ودخل إلى صلاح وأنا وفاطمة معه . . وبدأ يسأله . . وصلاح يجيب إجابات مائعة ، وهو لا يزال مصراً على الاحتفاظ بابتسامته ، كأن الطبيب ليس سوى واحد من الجمهور . .

وتدخلت فاطمة قائلة في حزم :

 قل كل شيء بصراحة يا صلاح . . وإذا لم تقل فسأقول أنا . . إنني الآن أعرف كل شيء .

ونظر إليها صلاح غاضباً ، كأنه ليس من حقها أن تحادثه بهذه الجرأة أمام غريب . . أمام واحد من الجمهور . . ولكنه بدأ يكون أكثر صراحة في حديثه مع الطبيب . .

. واستغرق الطبيب وقتاً طويلا في الكشف على صلاح ثم كتب له مجموعة كبيرة من الأدوية تشرب وتبلع وتحقن ، ثم قال وهو يجمع أدواته :

بسيطة . . ولكن أرجوك . . لا تتحرك من الفراش إلا بعد أن أقول لك . .
 إن الكشف لم يتم بعد . . يجب أن نأخذ أشعة على كل جسمك . . خصوصاً الكبد . .

minima o Minima

. وهكذا عشت مع صلاح . . عشت معه والأزمات التي تستنزف دمه لا تنتهى ولا تنقده منها إلا أن يمارس لا تنتهى ولا تتوقف وتكاد في كل مرة تقضى عليه ، ولا ينقده منها إلا أن يمارس فنه ويستمد منه قوة تعبده إلى الحياة . . حتى أصبحت أومن أن قوة الفن أعظم من قوة العلم . . أقوى من علم الطب والأطباء ، إن العلم يأمره بأن ببتى في فراشه ويهدده بالموت . . والفن يأمره أن يعيش فنه ، أن يعيش بين الناس . . أن يعنى ويضحك ويعمل . . وينتصر الفن على العلم . . ولكن تعدد الأزمات على صلاح جعله يعيش وهو في حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة ، صلاح جعله يعيش وهو في حالة خوف دائم ونقله الخوف إلى حالة عجيبة ، فهو لا ينام الليل أبداً وينام النهار ، وعندما حاولت في بداية هذه الحالة أن أجعله كبقية الناس ينام الليل ويعيش النهار ، قال لى في يأس :

- لا أستطيع . . إنى أخاف الليل . . أخافه لأن كل الناس من حولى نيام . . وقد تنتابنى الأزمة فلا أجد من حولى أحداً ليساعدنى عليها . . ولذلك يجب أن أبق صاحباً حتى أساعد نفسى أو أستطيع أن أوقظ من يساعدنى . . أما فى النهار فكل من حولى فى يقظة فأنام أنا مطمئناً على نفسى . . إنى أخاف الليل رغم أنى أغنى الليل للناس . .

وأنا مع صلاح فى خوف دائم . . أخاف عليه وهو فى أزمته . . وأخاف عليه وهو يتحدى الأزمة ويستسلم لفنه ويهرب من فراشه ليعمل . . ليغنى . . وهكذا فاطمة . . أصبحت تعيش مثلى مع صلاح . . صلاح المريض المنهار الذى ينزف الدم ، صلاح الفنان الجبار الذكى الأنانى الذى يستطيع أن يحصل دائماً

ثم قال لنا الطبيب ونحن نسير به إلى باب الخروج :

المسألة ليست سهلة . . أعتقد أنه نوع من تليف فى الكبد نتيجة البلهارسيا . .
 نتج عنه فقاعات فى المرئ يتجمع فيها الدم ، وتتضخم إلى أن يتقيأ دمه . . كل ذلك عجرد استنتاج ، فى انتظار الأشعة . .

وما كاد الطبيب بخرج ونعود إلى صلاح . . حتى قال :

– العود . . هاتوا العود . .

وقالت فاطمة :

عود إيه يا صلاح . . الدكتور كتب لك حقنة منومة . . و يجب أن تنام . . تستريح . .

وصرخ صلاح:

العود . . مش ممكن أنام وأنا عايز العود . . وخلاص . . اعتبرى الزيارة انتهت . . فين العود . .

ودون أن أسمع رأى فاطمة , . حملت العود ووضعته بين يدى صلاح . . ا إنى أطمئن على صلاح والعود فى أخضانه أكثر مما أطمئن عليه وهو بين يدى الطبيب . .

والصرفت فاطمة خارجة وهي غاضبة .

ونغم العود يملأ البيت بلحن الأغنية الجديدة . . وصرخت من بعيد :

- مش كده يا صلاح . . غلط . . راجع الفقرة دى تاني . .

من إعجاب بالفن . .

وبدأت فاطمة تجتاز مرحلة حائرة . . إنها تحبه . . تحبه . . تحبه قبل أن يكون قطعة من الفاكهة النادرة . . وهى تخاف على حبها من هاتيك المعجبات . . وهى تعلم أن صلاح ليس مجرد فنان . . إنه رجل كبقية الرجال . . ومرضه ليس له علاقة برجولته . . وأحياناً كانت تشتد بها الغيرة وتبدأ في نقاشه والصراخ في وجهه ، فيرد عليها وهو يحتضنها بين ذراعيه .

 لا تكونى مجنونة يا فاطمة . . هذا شغل . . الشغل عايز كده . . أنا مضطر . . وكما أنى لست ملك نفسى ، لا أستطبع أن أكون ملكك لوحدك . . أنا ملك الناس . . وإذا كنت بتحيينى صحيح لا تحومي الناس منى ، ولا تحرمينى من الناس . . .

وكانت تقول ودموعها تلمع في عينيها :

أنا خايفة عليك يا صلاح . . وخائفة على نفسي . . خائفة أن تضيع منى . .
 ذا يطمئنني .

ويقول وصوته ينبض بحبه :

- يطمئنك أن ليس بينهن واحدة تعرفنى . . كلهن يعرفن صوتى بس . . . ليس بينهن واحدة تعرف شكلى عندما تنتابنى الأزمة . . ولما باتنرفز وباتخانق باقول إيه . . ولما باكل على راحتى باكل إيه وباكل ازاى . . ليس بينهن واحدة تعرف صلاح الإنسان وكلهن لا يعرفن إلا صلاح الفنان . . وإنتى عارفه إلى فنان وانت لوحدك اللي بتشوفيني كإنسان .

وكانت فاطمة تقتنع ، وتتحمل المعجبات ، بل إنها أحياناً وهي معنا في البيت كانت ترد على التليفون وتتلقى مكالمات المعجبات . . ثم تعطىالسماعة

على كل ما يريده فنه . .

ولكن فاطمة بدأت تعيش حالة جديدة . . فإن نجاح صلاح جذب إليه مثات المعجبات بنات ونساء يجذبهن إليه فنه ونجاحه . . وكل منهن تحاول الاستيلاء عليه ، أو على الأقل تحاول تذوقه . . إن النجاح يجعل من الرجل الناجح شيئاً أشبه بقطعة الفاكهة النادرة التي تطمع كل امرأة في الاستيلاء عليها أو على الأقل تَذَوْقَهَا . . وَكَانَ صَلَاحٍ يَفْرِحٍ بِأَنَّهِ قَطَعَةً مَنَ الْفَاكِهَةِ النَّادَرَةِ ، ويَفْرِح بهؤلاء المعجبات ، ويفرح بالتليفونات والخطابات والدعوات الخاصة . . ويفرح أكثر عندما تكون المعجبة من عائلة كبيرة معروفة إنه يحس معها أنه استولى على العالم كله من القمة إلى السفح . . وكنت أرى صلاح وهو مع هؤلاء المعجبات أو وهو يحادثهن في التليفون كأنه يمثل دوراً في فيلم سينائي . . إنه يبدو كأنه كله حب ، وكله فن ، وكله رقة ، وحديثه الذكى يستطيع به دائماً أن يكمل الصورة التي رسمها ، حتى لا يترك واحدة إلا وقد استسلمت لكل ما يريده , , يتركها وهي تعيش الحب . . حبه . . وكان خبر مرض صلاح قد أذيع وانتشر . . وعلى عكس ما يتصور صلاح فإن الجمهور تعلق به أكثر بعدأن عرف بمرضه . . وازداد عدد المعجبات الجريئات أن الجمهور يزداد ثقة بالإنسان الضعيف المريض.

وأصبحت صورة صلاح أمام الناس هي صورة الرجل المريض الذي لايمكن أن تكون له شهوة في إحدى النساء . . إنه مريض ، . ولا يستطيع أن يستسلم لشهوة . . واطعأن إليه الرجال ، . فلا يشك أحد منهم في أنه يمكن أن تكون له علاقة بامرأة . . بزوجة أو ابنة أو أخت . . والبنات اطمأنن أكثر إلى الاتصال به . . لأن لا أحد يمكن أن يشك في أنه يمكن أن تقوم علاقة كاملة بين أى فناة وبينه . . اكتسب سمعة البراءة كأنه راهب . . ولا يمكن أن يكون إعجاب امرأة به أكثر

لصلاح وتجلس بجانبه ومى تسمعه بمثل دور راهب الحب , , وعندما كانت تسألها المعجبة التي تتلقى مكالمتها عن من هى كانت ترد , . أنا أخته , , وأحياناً ترد . . أنا الشغالة يا ستى . .

ويهما كان أكثر ما بطمئن فاطمة فى حيرتها أنها كانت مقتنعة بأنها وحدها التى لها الحق فى زيارة صلاح فى بيته . . كل البنات يحادثنه فى التليفون ويقابلنه فى الحفلات الخاصة أو العامة . . هى وحدها التى تدخل البيت . .

وكانت فاطمة تحييل دائماً . . تحيرلى فى شخصيتها . . وتحيرلى فى كل حياتها فهى - كصلاح أيضاً - لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تتكلم إلا بقوة ذكائها . . كنا لا نعرف شيئاً كثيراً عن عائلتها ولا عن حياتها العائلية . . كل ماكنا نعرفه أنها تعيش مع أيها الموظف بوزارة الداخلية ، ومع روجة أبيها ، بعد أن توفيت أمها . . ولهبعاً كنا نعرف عنوان بينها ونمرة التليفون ولا أكثر . . وكنا نعرف أنها طالبة فى الجامعة . . كلية الاقتصاد والسياسة . . ولكنها كانت أغلب الأيام معنا . . وكنا نسألها لماذا لم تذهب إلى الجامعة ، فتقول ضاحكة . . روغت . . . أو تقول في قرف ؟

ما ليش نفس للجامعة . . أنا دخلت الجامعة بس علشان أخرج من
 لست . .

وكان الشيء الوحبد الذي تتمسك به هو أن تعود إلى بيتها في الساعة السادسة حتى تتفادى ثورة زوجه أبيها . ـ لم نرها أبدًا بالليل . .

إلى أن دخلت نهال في حياة صلاح . .

. كانت نهال من أجمل فتيات المجتمع الراق . . كانت ابنة رجل حفيد عائلة السلامونى ، واستطاع أن يستمر فى الاحتفاظ بمستوى ثرائه ومكانته الاجتماعية . . وربما كان فى حياة نهال ما جعلها دائما هادئة هدوءاً أقرب إلى الحزن ، صامتة دائماً كأنها مكتفية بأن تعيش فى خيالها . . والهدوء والصمت يلفانها بالطبيعة الحاوة . . ويحتفظان لجمالها ببهرة . . ليست مثيرة أقرب إلى صورة من صور الملائكة أو صورة مريم العذراء . . وربما كان ما فى حياتها هو ما أدى بها إلى التعلق بصوت صلاح وأغانى صلاح ، هو ما جعلها تتعلق به منذ اليوم الأول الذى التقت به فيه خلال حفلة عائلية خاصة . .

وبهر صلاح بها كما لم يبهر من قبل . . بهر نجمالها . . وبهر باسم عائلتها الكبير . . وبهر بهدوئها ، وبهر بصنتها . .

> هل أحبها . . ؟ لا أدرى . .

ولكن كل أيامه أصبحت انهال ال. . إنه يفتح عينيه ليحدثها في التليفون ويحدد مصير يومه كله بعد أن يحدد مصيره معها في هذا اليوم . . متى يلقاها . . ومتى تحدثه في التليفون وبعد ذلك كل شيء ، ، حتى فنه أصبح يأتى بعد تحديد مصيره مع نهال . .

وهي . . نهال . ـ

طعاً أحبته . .

إنها تعطيه من اهتمامها ومن اللهفة إليه أكثر ما تعطى فتاة لا يدفعها سوى الإعجاب بفنه .. وبدأت قصة نهال وصلاح تنتشر فى المجتمع ، ثم . . تشرت فى الصحف . . ولم يعترض صلاح على نشر القصة فى الصحف وقد كان يستطيع بصداقته لكل رجال الصحافة أن يمنع نشرها ولكنه لم يفعل . . ربما لأنها قصة يتباهى بها وترضى غروره ، أو ربما لأنه قدر أنها قصة ترفعه فى أعين المحجبات لأن نهال بينهن شيء غال ممين . .

ولم تكن فاطمة قد عرفت شيئًا عن قصة نهال . . وكان صلاح لا يزال مرتبطًا بها . . وإن كان قد أصبح يحتج بأعماله ومواعيده حتى يقلل من زيارتها له واتصاله بها . . إلى أن قرأت ما نشر فى الصحف . .

وجاءت إلى البيت وأنفاسها مبهورة . . وبلا موعد . . ولم يكن صلاح فى البيت فانتظرته وتأخر إلى ما بعد الساعة السادسة فبقيت فى انتظاره . إلى أن جاء فى الساعة التاسعة يبدل ثيابه استعداداً لحفل كان يقيمه فى تلك الليلة ، وفوجئ بها . . . إنه لم يتعود أبداً أن يرى فاطمة بعد الساعة السادسة . .

وقالت له في هدوء :

- إيه الحكاية الجديدة دى ياصلاح . .

قال وجفونه ترتعش فوق عينيه :

- حكاية إيه ؟

قالت وهي لا تزال تبتسم :

- حكاية اللي اسمها نهال . .

وقال وهو يلوى شفتيه ساخراً :

- زى بقية الحكايات ...

قالت :

بس أنت بتقول لى على كل الحكايات ، ودى ما قلتليش عليها . .
 قال :

– ما افتكرتش . . وماجتش مناسبة . .

قالت:

واشمعنى الحكاية دى اللى انتشرت فى الصحف.

: ال

أنا عارف . . . يمكن علشان من عبلة معروفة . .

قالت ؛

بس أنت كنت تقدر تقول لهم ما ينشروهاش . ..

قال وقد بدأ يفقد أعصابه :

أنت فاكرانى عايش فى الجرايد علشان أعرف إبه اللى بتنشر وإبه اللى
 ما يتنشرش . . ما احنا حكايتنا اتنشرت ، قبل ما أطلب أنها ما تتنشرش .

قالت :

- وحكايتها زي حكايتي . .

وصرخ صلاح:

فاطمة ما تجننیش . . إذا كنت بتقولی بتحبینی یبقی حبینی زی ما أنا . .
 ما فیش فایدة انك تغیرینی . . وما فیش فایدة انك تحاسبینی . .

قالت وهي تكاد تبكي :

- الحب يعني أطمئن على حبك . . وأنا مش مطمئنة . .

قال كأنه قرفان :

- أطمئك إزاى ؟

ونظر إليها طويلاً إلى أن هدأت ثورته ، ثم ارتفعت إلى شفتيه ابتسامة هادثة كأنه استرد كل حبه لفاطمة ، وقال وهو بقترب إليها ليأخذها بين ذراعيه :

– عايزه تطعني . . بوسيني . .

وتركتهما للكملا بقية قبلتهما . .

وقى اليوم التالى كنت أنا الله أتصل بفاطمة بالتليفون الأطمئن عليها بعد أن تأخرت فى العودة إلى بينها إلى ما بعد التاسعة . . ولم ترد على التليفون . . رد صوت عنيف كلمانه كقطع الحجارة تلقى فى وجهى . . لعلها زوجة أبيها . . واتصلت مرة ثانية ، ولم ترد فاطمة أيضاً وفى آخر النهار . . هى التى اتصلت لتقول لى إنها تشاجرت مع زوجة أبيها بسبب تأخرها وتركت البيت ، وهى تقيم الآن عند إحدى صديقاتها ، وعندما أحست بانزعاجى عليها ، قالت ضاحكة :

– ما يهمش . . مش دى أول مرة . . كلها كام يوم وأرجع البيت تالى . .

م يهيش .. مس دى وقو را المجتمعات ، وأصبح يبدو معها فى المجتمعات ، وصلاح مستمر فى علاقته مع نهال .. وأصبح يبدو معها فى المجتمعات ، بل ربحا كان يتعمد الظهور معها ، إلى أن بدأت صورتها تظهر بجانب صواته

فى الصحف . . وفاطمة تحتمل . بل تحتمل أيضاً تهرب صلاح منها ، وتباعدت الأيام التي أصبحت تلقاه فيها . إلى أن أصابته الأزمة يوما ، وما كاد نزيف الدم

يتوقف حتى صرخ :

فين فاطمة . . دور على فاطمة . .
 وفي هذا اليوم ، وهو لا يزال راقداً في فراشه عقب الأزمة ، اتصلت نهال

بالتليفون وأشار إلى من بعيد لأقول لها إنه خرج ، بينها كانت فاطمة قد جاءت لتجلس بجانب فراشه . . فراشه المريض . .

ومرت الأزمة . .

وعاد صلاح يغنى . . ويثير ضجة حول حكايته مع نهال . . ويخنى حبه لفاطمة . .

ولم أكن أعرف أن نهال مخطوبة إلا بعد أنْ قرأت خبر فسخ خطبتها في لصحف ...

وأعقب نشر خبر فسخ الخطبة إشاعات ملأت البلد كلها حول قرب زواج صلاح ، وكنت أنا أول من سأل صلاح :

هل ستتز وجها ؟

وأجاب ضاحكاً ;

- مش ممكن . . ما فيش واحدة ترضى بينا احنا الأثنين انا وانت . كل حاجة عملناها من يوم ما اتولدنا عملناها احنا الاتنين . . فاكر . . اللعب اللي لعبناه في البلد . . والكتاب والمدرسة . . والناى . . والكمنجة . . والمنزيكة . . والفن . . والجوع . . والشبع . . والضحك . . والبكاء . . كله احنا الاتنين إلا الجواز أهو ده اللي ما نقدرش عليه احنا الاتنين . .

وضحكت دون أن أفهم شيئا من نيات صلاح ونهال . . وجاءت فاطمة . .

جاءت ثائرة على غير عادتها . . لا تحاول أن تعتمد على ذكائها . . ولا تحاول أن تفتعل الهدوء ولا النفاق . . وجاءت فى الساعة الثامنة صباحا حتى تتأكد من أن صلاح لن يهرب منها بعد أن يقوم من النوم . . وما إن فتح عينيه حتى ألقت قدرت تفهم إنى فنان . . وقدرت تعرف إنى ما انجوزتش إلا غنوة جديدة وإلا لحنا جديدًا و . . .

وقاطعته صارخة :

كفاية حكاية الفن بأه . . الفنان مش هو الإنسان اللي يودي غيره في اهية . .

صرخ صلاح:

- أنا ما وديش غيرى فى داهية , أنا بودى نفسى . . وأنا ما طلبتش منك حاجة , , , ماكذبتش عليك . . وما وعدتش وما غملتش بوعدى , . أنت اللي راضية بى . . مش أنا اللي غاصب عليك . .

وقالت :

– وأنا دلوقتي مش راضية . . حاتعمل إيه ؟

: ال

- أنت عايزه إيه ؟

قالت :

عايزه أنك تتجوزنى . . وإذا ما اتجوزتنيش خللى الناس تتكلم عنى . .

وقاطعها :

ما اقدرش . . مش ممكن . . وإذا ماكانش عاجبك سيبيني . . ابعدى
 منى . . .

وصرخت:

- للدرجة دى . . للدرجة دى ياصلاح . .

عليه صراخها وربما قبل أن تقول له صباح الخير :

- أنت حاتتجوز اللي اسمها نهال . .

وانتفض من فوق وسادته كأنه يتلقى كارثة وقال :

. . Y-

وقالت له في سرعة . .

– خلاص . . ما دام مش حاتتجوزها . . انجوزنی . ـ

وصرخ :

– إيه الكلام اللي بتقوليه ده . . من إمني بتتكلمي عن الجواز . .

وارتفع صراخها على صراخه :

- أنت انجنتي . . أنت مش فاطمة . . مش فاطمة اللي بحبها . . فاطمة

XXX V XXXXX

كان من المستحيل أن نذهب أنا وصلاح لزيارة قاطمة في بيتها ان أهلها سيطردوننا قطعا بمجرد أن يرواصلاح وقد يعتدون علينا بالضرب فهم يعتقدون أن صلاح هو الذي جي على مستقبل فاطمة ذلك فصلاح يصر، ثم رضي أخيراً أن أذهب أنا وحدى إلى هناك

وقلت له :

- ولكني لا أعرف أحداً من أهلها .

نال :

ولو . . إعمل نفسك زميلها في الجامعة . . ولا أي حاجة . .

وقررت أن أذهب إلى بيتها بعد الساعة السادسة حتى أتأكد من أنها عادت إليه كعادتها إذا كانت قد قضت اليوم في الخارج . .

وضغطت على جرس الباب . . وفتح لى رَجَل مَكْفَهُر الوجه ، لاشك أنه والدها . . وقلت له إنى زميل فاطمة فى الجامعة وإنى جئت إليها بكراسة المحاضرات كما طلبت منى . . وصرخ الأب فى وجهى :

ابعدوا عن فاطمة بأه ... كفاية اللي عملتوه قيها ... غير من وشي . ..
 وصفق الباب في وجهي . ..

وعدت إلى صلاح . . وكان يتحدث فى التليفون . . يتحدث إلى نهال . . ولأول مرة أراه وهو يبذل جهداً كبيراً حتى يحتفظ بهدوئه وهو بتحدث إلى نهال . . وأنهى المكالمة بسرعة ، وهو يسألني بلهفة : ثم رفعت أباجورة الإضاءة من جانب فراشه وألقتها على الأرض ، ثم أخذت تحطم كل ما تصل إليه يداها في الغرفة وهي تصرخ :

- أنا أحسن منك ومنها ميت مرة . . أنا اللي عملته لك ما فيش واحدة تعمله لواحد أنا مجنونة . . أنا مجنونة . .

وأمسكت بها حتى لا تحطم باقى الغرفة . . وأنا أحاول أن أهدثها ، ولكنها تخلصت من بين يدى ، وانطلقت تجرى خارج البيت . .

وقفز صلاح من فوق فراشه يحاول أن يلحق بها . ولكنها كانت قد خرجت وصفقت الباب وراءها بعنف كأنها تصفع البيت كله . وعاد صلاح إلى فراشه صامتاً وعلى وجهه آثار معاناة عاطفية عنيفة . إنه يحبها . إنى إلى اليوم مقتنع بأن الحب الوحيد في حياة صلاح هو فاطمة . كل البنات اللاتي مررن به كن أشبه بألحان اجتاعية يواجه بها المجتمع . . حتى نهال . . ولكن فاطمة كانت حياته الخاصة . . حبه الذي يضعه بعيداً عن عمله وعن مظهر الفنان وعن المظاهر والإشاعات الاجتاعية . . وقد بتى في فراشه صامتاً ثم مد يده إلى التيفون وطلب فاطمة . . ليست هي التي ترد . . وبعد قليل حاولت أنا أن أتصل بها في التليفون . . ولم ترد . . ثم عاد صلاح وحاول الانصال بها بالتليفون . . ولم ترد . . ثم عاد صلاح وحاول الانصال بها بالتليفون . .

- أنا لازم أطمئن عليها . . لتكون عملت في نفسها حاجة . . قوم نروح لها في البيت . .

- لقيتها ؟

ورويت له كل ماحدث . . وصلاح يزداد عصبية ، وهو يردد . . دى مجنونة . أنا عارف أنها مجنونة . وبدأ يستعد للسهرة التى أقيمت يومها وهو في عصبية . . بل إنه قبل رفع الستار بدقائق غير برنامج الحفل ، ووضع أغنية لم تكن في البرنامج مكان أغنية أخرى مما أخر رفع الستار حوالى نصف ساعة حتى يعيد الموسيقيون تجميع أوراق اللحن الآخر ويستعد كل منهم . . وغنى صلاح . . وأحسست يومها لأول مرة أنه يغنى لفاطمة وحدها . . يناديها من بعيد . . ويرجوها ألا تتركه وحده . .

وانتهى الحفل فى حوالى الثالثة صباحا . . وذهبنا لتناول العشاء فى الكافتيريا وصلاح لا يتحدث عن الحفل ، ولا يحاسب نفسه أو يحاسب الموسيقيين كمادته . . ثم بعد ذلك فرجئت وأنا بجانبه فى السيارة بأنه يسألنى عن مكان بيت فاطمة ، ثم يقود السيارة إلى هناك ويوقفها بحيث يستطيع أن يراقب باب البيت وقال فى إصرار كأنه لا يقبل المناقشة :

أنا متأكد أنها بايته في بيتها . ، والصبح حاننزل تروح الجامعة أو أي حته . .
 نستناها لغاية ماننزل . .

وكانت الساعة الخامسة . .

ولم أناقش صلاح ، إنى أعرف جنونه . .

ونمت في السيارة وهو لا ينام . .

وأصبحت الساعة الثامنة . والتاسعة . والعاشرة . والناس تمر وتنظر إلى صلاح فى دهشة . . وبعضهم يقف ويحييه . . وهو يدعى لكل من يسأله أنه فى انتظار أحد أصدقائه ولم تخرج فاطمة من باب البيت . .

وعاد صلاح إلى بيتنا وهو منهار ، أخاف عليه أن تدهمه الأزمة ... ولكن الأزمة لم تدهمه ، ويبدو أن الحب كالفن أقوى من المرض . . وقضى يومه وهو يحاول أن ينام ، ثم يقوم يطوف أنحاء البيت فى خطوات عصبية كأنه يبحث فيه عن فاطمة ، ثم يعود ويحاول أن ينام . .

وفي اليوم التالى دق جرس التلبفون ، وكانت فتاة تريد أن تحادث صلاح وهممت أن أعتدر لأن صلاح لم يكن في حالة يستطيع فيها الكلام ولكنها أسرعت وقالت إنها صديقة فاطمة . . فأعطيت التليفون لصلاح وقالت له الفتاة إنها رأته أمس في سيارته في انتظار فاطمة ، وكل سكان الحي رأوه ، وكلهم يعرفون حكايته مع فاطمة . . وهي تريد أن تبلغه أن فاطمة نقلت هذا الصباح إلى المستشفى . . مستشفى المقطم . . وأنها تبلغه دون أن تستأذن فاطمة في إبلاغه وعندما سألها صلاح وهو يرتعش عن صحة فاطمة ، أجابت :

دی تعبانة . . تعبانة قوی یا أستاذ . . کلنا بندعی لها . .

وأصبح صلاح كأنه مجنون . .

وبحثنا عن مستشنى المقطم . .

إنه مستشنى للأمراض العصبية . .

وسألت عنها في التليفون . . وقال لى عامل التليفون إنها ليست في خطر ، وطلبت أن أتحدث إلى الطبيب المختص وقال لى أيضاً إنها ليست في خطر ، ولكنها في حاجة إلى علاج يعيد أعصابها إلى طبيعتها . . ومضى أكثر من أسبوع استطاع صلاح خلاله أن يتعرف بطبيب المستشفى ، وأن يتلقى منه كل يوم تقريراً عن صحة فاطمة ، إلى أن اتفق معه على أن يسهل له زيارتها في وقت لا يكون أهلها معها . . لم يقل للطبيب عن قصة حبه لها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة أهلها معها . . لم يقل للطبيب عن قصة حبه لها ، ولكنه قال إنها معجبة قديمة

تعودت أن تعبر عن إعجابها دائماً وهو لا يعرف أحداً من أهلها ، ولذلك يريد أن يراها وحدها . .

وذهبت معه إلى المستشفى . .

وكان لقاء عجيباً .

إن فاطمة قد استعادت كل أعصابها تماماً .. ولكنها تغيرت .. إنها لا تحادث صلاح بنفس اللهفة ، ولا ينفس اللهجة .. وهي تبدو دائماً كأنها تفكر في شيء بعيد .. ورغم الكلام الكثير الذي قاله صلاح يؤكد لها حبه .. وارتباطه بها العمر كله ، حتى بلا زواج وحتى لو تزوجت غيره فإن حبها هو الذي يعينه على فنه وعلى مرضه .. ورغم كل هذا الكلام فإن فاطمة كانت تتلقاه بابتسامة شاكرة دون أن يبدو عليها أنها أصبحت تتأثر بهذا الكلام ..

وخرجنا من المستشفى وصلاح حائر مثلى فى الشخصية الجديدة التي رأى بها فاطمة . .

خرجنا وقد اطمأننا أن فاطمة ستترك المستشلي بعد أيام . .

كل ذلك وقصة صلاح ونهال مستمرة . وإشاعة زواجهما تتسع . . وبدأت الصحف تشير إليها دون أن يحاول صلاح أن يتدخل لينني الإشاعة أو يسكت الصحف . . لقد كان في حاجة إلى نهال . . إنها أعطته مجتمعاً كان طول عمره يربد أن يصل إليه . . مجتمع القمم . . ومظاهر وتقاليد وفخامة حياة القمم . . وكانت نهال تبدو أحياناً كأنها تلقنه دروساً في تقاليد حياة هذا المجتمع ، بل إنها بدأت تعلمه اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وقد تعمد أن نجيد اللغتين حتى أنه لم يكتف بنهال فاتفق مع أساتذة يعطونه دروساً خصوصية في البيت . . .

والإشاعة أصبحت أكبر من أن تعيش العمر كله كإشاعة . . ونهال تعانى

صغطاً من عائلتها ومن خطيبها السابق لتعود إليه . . وأصبح صلاح مضطراً أن بواجه نفس المشكلة ، مشكلة الزواج . . وهو يعرف عائلتها ويعرف أنها عائلة لا ترحب كثيراً بزواجه من ابنتها ولكنه يستطيع رغم ذلك أن يتزوجها خنى لو اضطر أن يهرب بها . . ولكن هل يتزوج صلاح ؟ لا . . إنه لا يريد . لا يستطيع . . إنه ليس ملكاً لنفسه إنه ملك فنه . . ملك الناس كلهم . . ولا أدرى مل استطاع أن يقنع نهال بكلامه أو أنها اضطرت للاستسلام لما يريده حتى تحفظ بكرامتها وتقاليدها وتعاليها . .

وقبلت أن تعود إلى خطيبها الأول تحت ضغط عائلتها ، وقالت لصلاح : - إننا لا نستطيع أن نتز وج ونحن نعيش الحب . . وأنا مضطرة أن أعيش الزواج بلا حب . .

وقال صلاح بذكائه الذي لا يعجز أبداً عن المنطق الذي يبرر به تصرفانه : - إن الزواج هو الواقع ، والحب أقوى من الواقع . . وأنت وأنا مضطران أن نستسلم للواقع ، ونحتمله لأننا لا نفقد الحب أبداً . .

وقد عارضته أنا كثيراً . . كنت أريده أن يتزوج نهال مادام الن يتزوج قاطمة . . قلت له إن عبد الوهاب عاش عمره الفنى ولا يزال يعيشه وهو متزوج ، دون أن يفقد الجمهور ولا لهفة المعجبات ، وكان يقول لى :

عبد الوهاب من جیل لم یکی فیه الزواج یستولی علی الوجل کله . .
 وعبد الوهاب لا یعانی ما أعانیه من أزمات , . وعبد الوهاب أستاذی فی کل شیء
 حتی فی قن الحیاة ولا أستطیع أن أرتفع إلی مستوی أستادی

وتنزوجت نهال

وصلاح هو الذي أحيا حفل الزواج . . وكنت أحس به وهو يغني كأنه هو الذي يملك نهال وهو الذي تنازل عنها في سبيل إسعادها . . كان يتصرف كأنه صاحب البيت وكأنه صاحب الفضل . . وربما كان هذا هو الإحساس الذي كانت تحمه نهال نفسها . . فحتى بعد الزواج ظلت على علاقتها بصلاح تدوو إلى بينها وتسأل عنه ، وتطمئن عليه وتحبه . .

وخرجت فاطعة من المستشفى . . ولم نعلم بخروجها إلا عن طريق الطبيب .. ولم تتصل بصلاح بعد خروجها ، وفوجئنا بأحد أصدقائنا من أفراد الفرقة الموسيقية يبلغنا بأنها ذهبت إلى نادى الفرقة وكانت تعرف كل أفراده عن طريق صلاح ، وأنها بقيت هناك وقتا طويلا . . وأنها غنت . . لم تغن كمحترفة ولكنها غنت وسعا أفراد الفرقة وهي تضحك معهم . . وقال صديقنا . . والله صوتها مش بطال . . وجمد صلاح لهذا التطور الذي حدث في حياة فاطمة ، إنها لم تعد حريصة على أن ترضيه بانعزالها عن الجو الفني وخصوصا عن أصدقائه . . بل إنها كل يوم أصبحت مع صديق من هؤلاء الأصدقاء . . واستطعت أخيراً أن أحدها ولتها لأنها لم تحاول لقاء صلاح . . وقالت في بساطة :

هو عايز يشوفني . . خلاص أشوفه . .

وجاءت إلى البيت . . ولكنها جاءت إنسانة أخرى . . جلست تتكا، كأنها إحدى المعجبات وتهرب من أى حديث يبدأه صلاح عن الحب والفن . . حتى عندما هم بتقبيلها أعطته قبلتها فى برود كأنها تحاول أن ترضيه أو كأله زبون من زبائن القبل . . وعندما ثار صلاح وبدأ يصرخ فى وجهها ويستعمل لأول مرة ألفاظاً جارحة تخدشها . . ردت عليه بهدوه :

المحمد ا

واستمر النقاش والجدال بينهما كأنه لن ينتهي أبدا . .

وأصبحت العلاقة بين صلاح وفاطمة علاقة غريبة . . لم نشهدها أى قصة حب . . إن كلا منهما يبدو كأنه بحاف الآخر ، ويعارب الآخر ، ويعادل الآخر ، ويجادل الآخر ، في فجأة بلتقيان في ساعات حب عنيفة ، يلتصق فيها كل منهما بالآخر كأنه لن يتركه أبداً ، ثم يعودان إلى الخوف والحرب وللجادلة . . وقد جد على صلاح أنه أصبح يغار على فاطمة . . إنها أصبحت تعيش في الوسط الفني كله . . وبدأت الإشاعات تلاحقها عن علاقات بينها وبين هذا أو ذاك ، ويجن صلاح إلى حد أن يتخد مواقف قاسية من هذا أو ذاك . . قامن إشاعة قوية عن علاقة بين فاطمة وعازف الجيتار ، فما كان من صلاح إلا أن عزل عازف الجيتار من الفرقة واستبدل به آخر . . أما فاطمة فكانت قد تعودن على الغيرة منذ عرفت صلاح . . لم يعد يؤثر فيها استمرار صداقته بنهال ولا زيادة عدد المعجبات . .

ولكن حب فاطمة كان يعود كما كان تماما إذا أصيب صلاح بالأزمة التي تقذف بطلقات الدم من فمه . . كانت لا تسمع بالأزمة حتى تترك كل ما هي

فيه وَتَجرى إليه لتجلس بجانبه على حافة فراشه . . وتبقى معه إلى أن تطمئن عليه . . ثبقى معه مهما كلفها بقاؤها من تضحية بالفن والمستقبل اللذين تسعى إليهما . . وربما كانت فاطمة هى أول من اكتشف أن أقيى علاج لصلاح فى أزمته هو فنه . . كانت بعد أن يتوقف النزيف ويستريح فى فراشه تطلب منه أن يغنى . . وكانت أحيانا تثيره حتى يغنى قائلة :

صلاح . . سمعنى الغنوة الجديدة . . فيها حته مش عجبانى

أو أحياناً كانت تبدأ هى فى الغناء ، حتى تأخذه إلى الإحساس بالتحدى فيغنى معها أو يسكتها ليغنى وحده . . ولا يكاد صلاح يبدأ فى الغناء حتى يبدو كأنه يسترد حياته . .

ومرت شهور ، وأقام معهد الباليه حفلته السنوية ، وإذا بفاطمة تبدو فى العرض متميزة عن كل الطالبات بل إنها استطاعت خلال هذه الشهور أن تكتسب ثقة وحب أساتذة المعهد بنفس أسلوب صلاح فى اكتساب من يحتاج إليهم ، فوضع أساتذة المعهد عرضاً فى البرنامج تبدو فيه فاطمة وحدها وهى ترقص وتغنى أيضاً . .

وأثارت فاطمة إعجاب من شاهدها وبدأت الصحف تتحدث عنها . . بدأت فاطمة تعيش بين الأضواء . . وقبل أن تنم دراستها في المعهد التحقت بفرقة الرقص الشعبي وأصبحت تقدم شيئاً جديداً . . رقصات باليه كلاسيك ، مع أغان شعبية . . تغنى وهي ترقص . .

وأصبحت فاطمة نجمة

كل ما كان يضعفها فى نظرى أنها استمرت تقلد صلاح فى كل شيء . . . فى حركاته وفى أسلوبه . . وفى تصرفاته وتفكيره . . ريما لم تكن تتعمد تقليده

ولكنها كانت متأثرة به إلى حد أن سيطرت شخصيته عليها ، وأصبحت تؤمن الاطريق للنجاح إلا طريق هذه الشخصية . . حتى لو كانت تقدم فنَّا يختلف عن فن صلاح . .

وكنت كثيراً ما ألح على صلاح أن يضم فاطمة إليه فى عمل واحد . . حفلة غنائية . . فيلم سبنهائى . . مسرحية . . ولكنه كان يرفض . . وكان يقول فى سخرية مرة :

عايزنى أنزل لمستواها . . ولا ترفعها لمستواى . . والناس بعد ما يشوفونا
 حايتكلموا عنها ولا عنى . . .

وكنت أقول له إن الناس لا تتكلم عن صلاح ولا عن فاطمة ، ولكن تتحدث عن العمل الفنى وإذا ضمها إليه فى عمل واحد فإنه سيقدم عملا فنياً ضخماً يثير ضجة ويخلق مستوى فنياً جديداً ، وعبد الوهاب عمل مع أم كلثوم فقدما تفزة فنية جديدة وارتفع عبد الوهاب وارتفعت أم كلثوم ولم يتأثر أحدهما بمستوى الآخر . . . وكان يرد على قائلا :

عبد الوهاب ما اشتغلش مع أم كلئوم إلا بعد ما بطل يغنى للناس . . اشتغل معاها من غير ما يواجه الناس وهي جنبه . . ما ظهرش معاها على مسرح ولا في فيلم ولا قى أغنية واحدة . . مش ممكن اننين يغنوا مع بعض حتى لو كانوا راجل وست . . وما يبقوش بيغنوا يبقوا بيقولوا منولوجات . . وأنا مش عايز أبقى متولوجات ياسي عمر . .

وفاطمة تنطلق فى آفاق النجاح . . أصبحت شخصية فنية قائمة بذاتها . . إنها ترقص رقصات الباليه وهى تغنى وبدأ الناس يقارنون بينها وبين صلاح ، كما كانوا يقارنون بين عبد الوهاب وأم كلثوم . . وانقسم الشعب إلى حزب صلاح ،

هذه هي قصة حياة صلاح . . أو قصة ما عشته مع صلاح . . وقد عشت معه العمر كله إلى أن حدثت إصابته بالأزمة قبل أن يغادر المسرح . . ثم حدثت مرة أخرى وبعد أسبوع واحد عندما أقام حفل بناء بيت الطلبة . . ويومها قرر الأطباء أنه يجب أن يسافر إلى لندن ليتم علاجه هناك . . وحدد له بسرعة موعد مع الطبيب الإنجليزى . . وسافرت معه إلى هناك . . إلى لندن . .

ووضع الأطباء الإنجليز مرض صلاح فى صورة أخطر ثما وضعها أطباء مصر . . . وبعد أيام طويلة قضاها صلاح وكل أدوات الكشف الطبى الحديثة مسلطة عليه تقرر إجراء عملية جراحية عاجلة له . .

ولم أفهم تفاصيل العملية ، وربما لم أهتم بفهمها ، يكنى أنها عملية جراحية ، وأول عملية يتعرض لها صلاح . . وقضى صلاح بعد إجراء العملية خمسة عشر يوما وهو غائب عن الوعى ، وكلما أفاق ، حقنوه ليعود إلى غيبوبته . .

ودخلت إليه مرة وهو راقد على فراشه فى المستشفى وإذا بى أجده يغنى . صوت ضعيف منهار ، ولكنه يغنى به . .

وقلت له :

ما تجهدش نفسك يا صلاح . . مش وقت الغنا . . .
 وقال وكأنه يبكي :

أنا حاسس أنى حاموت ، وعايز أموت وأنا باغنى , .
 وكتمت دموعى حتى لا أبكى معه ، ولا أغنى معه , . أغنية الموت , .

وحزب فاطمة ، كما كان منقسماً إلى حزب عبد الوهاب وحزب أم كلثوم . .
وقد بدأت فاطمة تحرص على إخفاء أى علاقة لها بصلاح ، كما كان يحرص
هو من زمان على إخفاء علاقته بها . . ترفض أن تظهر معه فى مكان عام ،
وترفض أن تلتقط لها صورة معه ، وأحاديثها عنه التى تنشرها الصحف أحاديث
باردة . . وأحاديثه عنها أبرد . . ويرغم ذلك فالعلاقة بينهما مستمرة بأسلوب جديد . .

إنى فى فترات متباعدة أفاجأ بهما فى البيت يستردان كل حلاوة قصة الحب الأولى ، وأحيانا أيضا كنت أكتشف أن صلاح قضى الليل فى بينها بعد أن انفصلت عن عائلتها وأصبحت تقيم وحدها . . والناس لا تعرف شيئاً . .

ودائما إذا ما أصيب صلاح بأزمته جاءت فاطمة بسرعة . . وعادت الفتاة الصغيرة التى تضحى بكل شيء من أجل حبها وجلست بجانب فراشه . . حتى لو عرف الناس وكنت أنظر إليهما وأنا اتساءل : كيف ستنتهى هذه القصة . . قصة أعجب حب بين رجل وامرأة . . لا . . إنهما ليسا رجلا وامرأة . . إنهما فنانه .

وفي الطريق إلى مصر قال لى صلاح :

 اسمع , , أنا وحدى , , وعايز أغنى بالإنجليزى , , طيب ليه كمان ما يكونش ملحن مصرى بلحن للإنجليز , ,

ومنذ وصل صلاح إلى مصر وهو يعمل مع الملحنين على إخراج أغنية بالإنجليزية .
والواقع أن صلاح كان بعد هذه العملية أقوى وأسعد وأتم صحة مما كان قبل
العملية . . واستطاع أن يقدم ثلاث أغنيات جديدة فى أقل من شهرين ، وأن
يقيم عدداً من الحفلات لا يقل عن حفلة كل أسبوع ، كأنه كان بريد أن
يطمئن الناس على صحته . .

وفاطمة فرحة به . . وتخفى فرحتها وحبها . . وتلقاه سراً ، هذه اللقاءات التباعدة التي قد تتباعد أكثر من شهر وشهرين . .

ر إلى أن عدنا إلى لندن . .

ومرت الأيام الأولى بعد العملية . . والأطباء يجتازون به حافة الموت إلى أن استطاع أن يعود إلى حالة مقاومة الموت بالفن . . وبدأ يغنى . . ثم أرسل يستدعى ثلاثة من الموسيقيين . . عازف الجيتار ، وعازف الكمان ، وعازف الطبلة ، وقدم أغنيته الإنجليزية في المستشفى . .

ولا تتصور فرحة الممرضات والمرضى بالأغنية . .

لقد تجحت داخل المستشقى إلى حد أن كتبت الصحف الإنجليزية عن صلاح وأغنيته . . بل تقدم أحد المتعهدين الإنجليز بعرض إقامة حقل عام يغنى فيه صلاح بالعربي للمقيمين العرب في لندن ، ويغنى بالإنجليزية للشعب الإنجليزي . .

وكان صلاح قد تعود على الأطباء الإنجليز ، فأصبح ينقاد لتهوره ، أو ينقاد

والحمد لله . . بعد أيام بدأ صلاح يسترد حالته التي تعود عليها , , حالته بعد أن تنتهى الأزمة . . يغنى ويعمل وهو فى فراشه . . وفى مرة ذهبت إليه وفاجأتى قائلا :

۽ طلع الناي

وكان يعلم أنى أحتفظ دائماً فى جيبى بصفارة صغيرة أتسلى بالعزف عليها عندما أجد نفسى وحيداً . . وأخرجت الناى من جيبى . . وبدأت أعزف عليه ، وصلاح يغنى وإذا بالمعرضات يلتففن حولنا معجبات ضاحكات ، بل كثير من المرضى الذين تسمح لهم حالتهم بمعادرة الفراش وبينهم كثير من العرب ، جاءوا إلى غرفة صلاح ليستمعوا إليه . .

وبدأ صلاح يعنى مرات كثيرة فى المستشنى خصوصا بعد أن سمح له الأطباء بمغادرة الفراش كان يطوف على المرضى ويغنى لهم ، وهو مريض بينهم . . وكان يمكن أن يغامر صلاح كعادته ويغادر المستشنى قبل أن يسمح له الأطباء ، ولكنه كان لا يزال فى خوف وحرج أمام الأطباء الإنجليز .

وفي يوم قال لى صلاح :

بيه رأيك تعال تغنى لهم بالإنجليزى ... علشان يفهمونا . ـ

وبدأ صلاح بغنى أغنية إنجليزية كانت شائعة . . ولكنه كعادته . . كان طموحا عبداً الحامرا : كان يربد أن يعنى أغنية بالإنجليزية له وحده . . أغنية حديدة هو الذي يقدمها . . وبدأ يسأل عن أسماء وعناوين الموسيقيين الإنجليز سعيا ليتفق معهم على تلحين أغنية له . .

ولكن قبل أن ببدأ في صناعة الأغنية الإنجليزية سمح له الأطباء بمغادرة المستشى على أن يعود اليهم بعد ستة شهور ، لاستكمال العملية التي أجريت له . .

لفنه دون أن يستأذنهم . . فكان يخرج من المستشفى بلا إذن . . ويعيد دون أنا يقول متى يعود ، وفي مرة شكوته للطبيب ، وقال لى فى اطمئنان :

— هناك شيء في الانسان لم يصل إليه العلم بعد . . شيء أقوى من العلم . . إن صلاح يعرف مرضه جيداً ، وهو قطعاً لا يريد أن ينتجر . . فإذا كانت في داخله دوافع أقوى من المرض فيجب أن نتركه لها . . من يدرى ربما كانت هذه الدوافع هي سر استمراره في الحياة . . ربما كان تمسكه بفنه أقوى من كل ما تسلطه الحياة . . فلنستسلم للأقوى . .

وأصبحت هذه هي حياتنا . .

نقضى نصف السنة فى مصر . . وفصفها الآخر فى لندن مع الأطباء الإنجليز . . وصلاح لا يريد أبداً أن يستسلم حتى يشفى تماماً . . بمجرد أن يتحرك يعود إلى فنه . . واقام حفلات عامة فى لندن نجحت نجاحاً ضخماً ، وأصبحت أغانيه بالإنجليزية تداع فى القسم العربى . . وكان يتفق على إقامة هذه الحفلات وهو راقد فى فراشه وفى المستشفى . . إنه دائماً مطمئن إلى أن فنه أقوى من مرضه . . وكان يخرج من المستشفى ليقيم الحضل رغم تحدير الأطباء . . بل كان أحيانا يخرج من المستشفى ويأخذنى من يدى وأجد نفسى فى طائرة تطير بنا إلى المغرب أو إلى لبنان أو إلى الكويت لنقيم حفلا هناك . . . ثم يعود إلى المستشفى . .

وفى مرة ظهرت فى صحة صلاح عناصر جديدة خطيرة ، وتقرر أن يذهب للعلاج فى فرنسا بدلا من لندن . . وانتشرت الإشاعة إلى أنه أصبح فى حالة مينوس منها . . كل الناس فى انتظار الخبر المفزع . . وأنا منهم . .

وكنا فى مستشنى باريس عندما فوجئت بفاطمة تدخل علينا . .

كانت قد تعودت أن لا تجلس بجانب فراش صلاح وهو يعالج في الخارج ولكن هذه للرة لم تستطع أن تقاوم الإشاعات ، وجاءت لتجلس بجانيه . .

أصبح الحب بجانبه . .

وساعده الحب حتى خرج من مرحلة الموت ، وبدأ يستعين بقوة الفن للتغلب على الموت . . وانتصر الفن . . وعاد يغنى . . وأقام حفلا غنائباً فى مسرح باريس . لأول مرة تشترك فاطمة معه . . لقد ظهرت أمام الجمهور فى باريس ورقصت وغنت . . ثم ظهر صلاح وغنى وحده . . غنى بالعربية . . وبالفرنسية أيضا . . ثم ظهر الاثنان معا وألفيا أغنية مشتركة . .

كان هذا هو أكبر تطور فى قصة صلاح وفاطمة . . انتصر الحب حتى جمعهما فى عمل واحد وإن كان لم يجمعهما فى زواج . . ولا أعتقد أنه سيجمعهما فى زواج أبداً . . وحتى فى باريس رأيت نهال تجلس بين جمهور المتفرجين . . . وهكذا نعيش . . .

نعيش في فرحة تجاح فني . , وفي خوف دائم من الموت . . والنجاح والموت يتصارعان داخل جــد يعيش على الألم . .

كيف ننتهي . .

لا أدرى . .

لا أحد يدرى . .

الله وحده . . رب الفن ورب العلم . .

تمت